مكتبة نوميديا 217
Telegram@Numidia_Library

سُلَّم إلى السَّماء

رواية

سُلَّم إلى السَّماء

ابتسام تريسي

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد 5825
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

جميع الحقوق محفوظة.

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء حالة الاقتباسات المختصرة التي تتجسد في الدراسات النقدية أو المراجعات.

الطبعة الأولى عام 2019

الترقيم الدولي: 9789927141324

تمت الطباعة في الدوحة-قطر.

مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة – أثناء – النشر (فان)

تريسي، ابتسام، 1959- مؤلف.

سلم إلى السماء : رواية / ابتسام تريسي. - الطبعة الأولى. – الدوحة، دولة قطر : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، 2020

صفحة ؛ سم

تدمك 978-992-714-132-4

1. القصص العربية -- سوريا. أ. العنوان.

PJ7964.U77 S85 2020

892.737– dc23

202027554740

يكفي أن تمتلك اليقين ليكون هذا ما حدث معنا حقًّا!

بدأتُ برسم اللوحة

اللون الرمادي لونٌ مؤسس تملكه صخور الكهف البركانية اختصر عليّ عناء الطّلاء الأوّل للّوحة. قسّمتُ الجدران إلى مربعات تُكوّن الفضاء الزّماني للحكاية التي سأرسمها لتكون آخر عملٍ لي في وحدتي... عدلت عن الفكرة؛ التّنظيم قد يقتل الإبداع اللّحظي، ويؤطّر الوحي ضمن مفهوم ضيّق.. هذا ما قاله «بدر» يومًا!

ضاق صدري، التمست النّسيم الخفيف خارج الكهف. جلست على صخرة عالية أرقب الأفق المكتظ بالغيوم وأفكر بالبداية. التفكير يفرض عليّ حالة تشوش.. قد لا أستطيع التقاط الخيط الأول للبداية المستحبة، لكنّي أمتلك اليقين بأنّ اللوحة ستجلو اللغز، وتدلني على القاتل الحقيقي.

وجدت نفسي أحصي الأيام التي قضيتها وحيدة في هذا الكهف بعد عبوري غير الشّرعي إلى البلاد.. لا أحبّ تسميتها «وطنًا»؛ البلاد لفظ يستهويني أكثر. فوجئت أنّ العدد زوجي.. غيم خانق احتشد في صدري؛ لا أحبّ الأعداد الزّوجية.. ملمسها لزج، وإيقاع رنينها كتيم كصوت ارتطام رصاص بالماء.

الرصاص بداية العبور..

2015 /1 /25

سيلفغيزو غيتي[1]

...

فجأة، علا صراخ رهيب، وهرولت النّساء وهنّ يسحبن أولادهن في مشهد غير إنساني، وقع بعضهن أرضًا وتمرّغن بالطّين، واختلطت دموعهن بمياه قذرة تجمّعت في الحفر التي لم تردم بعد في منطقة البناء الإضافي للمعبر الأقرب إلى الطّرف السّوري.

أسلحة الجندرمة كانت في حال تأهب، دفع أحدهم السّيدة الواقفة أمامي وصرخ في وجهها: «أدب سيز»؛ ليس البرد وحده مَن يقرض تلك الأجساد المرتجفة المنتشرة على الحدود بانتظار العبور إلى الجحيم.. ألسنة الشّرطة أيضًا تمتلك أسنان قارض شره يدمي روحي.

لم أكن أعرف من اللّغة التّركية سوى بضع كلمات تعلّمتها في أثناء رحلة النزوح؛ تلك الكلمات الضرورية لشراء الطّعام وركوب الحافلة والتّفاهم في الأمور البسيطة.

فهمت تلك العبارات التي شتم بها الشّرطي السّيدة وهي تحاول أن تشرح للموظف أنّها أضاعت «الكملك»، وتريد العبور إلى وطنها، وهو يصرخ في وجهها بأنّ ذلك غير شرعي؛ حتّى إن كانت تريد العودة يجب أن يكون لديها «كملك»[2] أو جواز سفر. السّيدة لم تكن تفهم التّركية، والموظف لا يعرف

---

(1) معبر باب الهوى من الطرف التركي.

(2) كملك: بطاقة إثبات شخصية تصدرها الحكومة التركية للاجئين.

كلمة عربية، أو ربّما لا يريد التّحدث بها، فمعظم الأتراك في المناطق الحدودية يجيدون العربية ويتكلمونها بطلاقة، لكنّ بعضهم يرفض التّحدث بها إلى السوريين لإحراجهم. تدخلتُ لأشرح لها. حدّق في وجهي ونهرني بالتّركية، وأبعدني عن الكوة. ربّما من دون قصد أصابت كفّه عظم كتفي وهو يأمرني بالابتعاد.. حينها، فقدت السّيطرة على أعصابي تمامًا وشتمته بالعربية... فصرخ في وجهي ورفض أن يختم جواز سفري.

مشيت حتّى البوابة، كنت أعلم أنّي لن أستطيع المرور ما لم يتغيّر الموظف. لكنّ ما حدث على الطّرف الآخر جعل أحلامي مستحيلة، فقد انطلق الرّصاص وأغلقت البوابة وهرول النّاس بالاتجاهين كأنّهم في يوم الحشر.

منذ فجر هذا اليوم، شعرت بانقباض وأنا أتوجه إلى الريحانية، وأقصد معبر باب الهوى. إنّه ذلك الحدس المزعج الذي لا يدرك التّفاصيل، لكنّه يعي بشكل واضح مآل اليوم ولونه. إنّه يوم أسود... لا يشبهه في حياتي سوى اليوم الذي أخبرت فيه زوجي أنّي أريد الانفصال عنه.

حطّت كفّه على الطّاولة بعنف وهو يقول: «سأكسر رأسك، ولن تجدي أمامك منفذًا حتّى إلى السّماء».

كان جلده يرشح عرقًا، وأنفاسه تلفح وجهي بريح عَطِنة. كيف سيمنعني من الوصول إلى السّماء وسُلّمي إليها ما يزال متكئًا على جدار بيتنا القديم؟!

صنعه أبي من شجرة السّنديان الضّخمة المزروعة في الحديقة الخلفية للدّار، عندما قطعها ليعمّر مكانها غرفة صغيرة يُلحقها بالمطبخ، لتصبح حمّامًا نستغني به عن الاستحمام في عتبة الغرفة؛ كانت أولى بشاراتها قد ظهرت: ثمرتان بنيتان صغيرتان من البلوط وضعهما جدي في يدي، وقال: «لقد اكتملت أنوثتها». لم أكن وقتها أعرف أنّ الشّجرة لا تطرح بلوطًا قبل بلوغها العشرين من عمرها، وهو العمر الذي أصرّ جدي أنّ البنت لا يجب أن تتزوّج

قبل أن تبلغه! كانت الشّجرة تشكّل عالمًا خاصًا بالنّسبة لجدي، يطلعني عليه بسريّة تامة، فأشعر بالتميّز والخصوصية اللذين أحظى بهما دون أختي وأخي.

وجدنا يومًا ثمار الكمأة السّوداء قد نمت حول جذع الشّجرة، وكانت وليمة خاصة بنا نحن الاثنين لم يشاركنا بها أحد. علّمني جدي كيف أحصل من الشّجرة على العفص[1] الذي يستخدم بالدّباغة.

مرّ زمن قبل أن تحصل تلك الظّاهرة الغريبة لي، فقد نبتت على حواف السُّلَّم الملاصقة للأرض طحالبُ ذات رائحة عطرية! كنتُ أكشطها بالسّكين خلسة، وأحتفظ بها في صفحات كتبي. ذات صباح، هوى السُّلَّم وغاص في الطّين، وبقي على تلك الحالة حتّى الصّيف!

في الصّيف، أهدى لي جدي مقعدًا صغيرًا من خشب الزّان الأملس النّاعم، وقال لي: «سأصنع لكِ طاولة في القريب العاجل، كما صنعت لشقيقتك «لينا»؛ أنتِ أيضًا ستصبحين رسّامة رائعة مثلها». لكنّ القريب العاجل أخذ جدي إلى السّماء، ولم يتحقّق حلمي بامتلاك طاولتي العجيبة التي تساعدني بأصابعها الخفية على الرّسم! يومها، لم ينتبه أحد لجثةِ السُّلَّم التي جفّ الطّين فوقها فأخذت شكلًا غريبًا، كنت أحدّق فيه فأرى وجه جدي!

أحضر جارنا لأبي سُلَّما جديدًا، ونقلوا صندوق جدي العتيق إلى السّقيفة، ووزّعوا أشياءه الأخرى، ودهنوا جدران الغرفة الكئيبة، لتتحوّل إلى غرفة خاصّة لأخي الكبير، وخُصّصت الغرفة الصّغيرة لي ولشقيقتي لينا التي لم أفترق عنها إلى يوم زواجها.

بعد موت جدي، رفعتُ سُلَّم شجرة البلوط، كشطت التّراب عنه، غسلته وتركته ليجف، ثم دهنته بما تبقى من الطّلاء الأبيض.

---

(1) العفص: أورام تتكون على أفرع شجرة السنديان كرد فعل على الضرر الناتج من بيوض تضعها بعض الحشرات. وهذا العفص يطلق عليه «عفص حلب»، ويستخدم في صناعة حبر الكتابة.

كان «بدر» حينها يراقبني من نافذة غرفته بفضول تحوّل إلى اهتمام دفعه للخروج من البيت، ووجدته واقفًا قربي يسألني: «لماذا تدهنينه؟ سيأتي الشّتاء ويتشقّق الدّهان ويتساقط». قلت: «سأغطيه، لن أدع المطر يصل إليه».

قبل أن يجفّ الطّلاء تمامًا، صعدت إلى السّطح، تشبثت بدرجاته ورفعت رأسي لأنظر إلى السّماء، حدّقت في الغيوم المتكاثفة وسط الزرقة، ورأيت وجه جدي! أحسست بهزة عنيفة خلعت قلبي، لم أستوعب مباشرة أنّ شخصًا حرّك السُلّم، بل ظننت أنّي وصلت إلى حافة السّماء، وأنّ يد جدي امتدت من بين الغيوم لتسحبني عاليًا. حين استطعت التّوازن والنّجاة من السّقوط، واجهتني عينا «بدر»، كان ينظر إليّ بخبث ويضحك.

نزلت، ودفعته عن طريقي بغيظ. ركض خلفي يسترضيني: «ما رأيك في أن أحضر لكِ سُلّم بيتنا لتدهنيه؟». راقت الفكرة لي. لم يبقَ من عبوات الدّهان تحت الدّرج سوى اللّون الأحمر الصّدئ[1]. أحضرته وطليت السُّلّم خلال دقائق. نظر إليَّ بضيق، وقال: «لم يعجبني اللون؛ يبدو كريهًا كدم الحراذين الجاف!». لوى شفتيه وابتعد، ثمّ عاد أدراجه، وقال: «ما رأيك في أن نتبادل؟». لم أوافق؛ لا يمكن أن أستبدل بسُلّم السّنديان آخر مهما كان لونه وشكله. صعدنا معًا إلى السّطح، كلٌ على سُلّمه.. حين صرنا في الأعلى، اكتشفنا أنّ كفوفنا اصطبغت باللونين الأحمر والأبيض، رفعنا أكفّنا في عين الشّمس، ونظرنا من خلال أصابعنا، رأيت نفسي أعتلي غيمة وأسابق الرّيح. قال لي: «انظري إلى قوس قزح تشكّل بين أصابعي!». انبهرت بالألوان المتسلّلة عبر أصابعه؛ قلت: «أتعيرني إياها؟». لم يفهم، فأوضحت له: «أصابعك». أبدى استغرابًا مرفقًا باحتجاج حاسم: «وكيف سأكتب وآكل؟». قلت: «أعطيك أصابعي». ضحك بسخرية وهو ينظر إلى كفي الصّغيرة البيضاء، وكأنّه يتخيلها

(1) دهان تأسيسي يسمى «زيرقون».

على طرف ذراعه السّمراء! قلت بحزن وأنا أشبك أصابعي بأصابعه: «انظر الآن كيف ينهمر قوس قزح!». كانت تلك أوّل لوحة رسمتها من تجويف الرّوح.

حين رأت أمّي أصابعي الملوثة بالدّهان، تنهّدت قائلة: «أنت مجنونة، ويبدو أنّ حياتك ستكون مجموعة كوارث!».

أخرجني من ذكرياتي صوتُ الباب يصفق بعنف؛ لقد عاد. انتفض جسدي على إيقاع الصّوت، ورحت أرتجف وأنا محشورة في الزاوية أراقب لوحاتي القتيلة، وأتخيّل أنّي أدخل إحداها وأتحوّل إلى فراشة. أختفي داخل زهرات البابونج الصّغيرة العطرة، يتقدّم مني، ويقبض على ساق الزهرة ويشدّها بعنف، أسقط في ظلّ شجرة مغمورة بأوراقها البيضاء والحمراء والخضراء، وألمح إحدى قبعات البلوط، أخطفها بسرعة، وأعتمرها وأختفي، لن يستطيع رؤيتي، لن يستطيع ضربي مرّة أخرى؛ أنا مختفية، أشعر بخفة جسدي. الغرفة الصّغيرة المكتظة باللّوحات الممزقة والألوان المنسفحة على الأرضية الخشبية تصبح حقلًا من الزّهور، فأشعر بالراحة وتهدأ خفقات قلبي. أغمض عينيّ وأنا على يقين بأنّه لن يراني بعد الآن، ولن تصل يده إليّ أبدًا.

الباب ثانية.. يخرجني من خفتي، ويرتطم بجسدي المحشور في الزاوية! لا، ليس الباب، بل الحامل الخشبي للوحاتي هوى على جسدي بقوة، قبل أن أسمع صوته يهدّدني: «سأقتلك في المرّة الآتية، يا عاهرة. ماذا تفعلين طيلة النّهار؟ لماذا لم تحضّري طعام الغداء؟ ماذا سآكل؟».

لم أستوعب ما يقول.. حدّقت بوجهه باستغراب، لم أكن أشعر بالألم، خرس الكون من حولي، وللحظات أيقنتُ أنّ خللًا أصاب سمعي وأعصابي. لا شكّ أنّ أيامًا طويلة مضت قبل أن أعرف أنّي ما أزال على قيد الحياة!

لكنّ عبارة «سأقتلك» تمدّدت في قلبي كنبتة شيطانية زرعت فيّ خوفًا حقيقيًا، وأعادت إليّ صورة أختي غارقة في دمائها؛ المشهد الذي يغافلني

بأشكال رهيبة عنيفة تهزّني وتتركني أرتجف بعد كلّ صحو، محاولة جمع شتات الحلم لأصل إلى يقين مختلف عن قاتلها.

إحساسي الجديد بالوجود ترافق مع طنين متواصل في أذنيّ يشبه صوت زيز الحصاد، لكنّ لحنه لم يكن متواصلًا، بل كان يأتي على دفعات تعقب كلّ وصلة سكون مخيف لا أسمع خلاله حركة الكون من حولي. كنت أراقب خلاله ملامح الأطباء والممرضات، وأقرأ التّبدلات الحاصلة لي في وجوههم!

بعد عودتي من المستشفى، تملّكني الشّعور بأنّي أصبحت كائنًا هلاميًا يتحرّك بآلية داخل كابوس لا ينتهي. لم أعد أستطيع التّواصل مع ابنتي، ولا أيّ كائن آخر.

أدركت أنّ فقدان السّمع الجزئي والضّجيج في أذنيّ نعمة، فلم أعد أسمع شتائمه، ولا صوته النّشاز. في حضوره، أغمض عينيّ وأنسى وجوده، وأدخل الحلم... ألج بوابة طفولتي، أقبع هناك في غرفة جدي، أراه يحضر لي طاولة من شجر البلوط، فوقها أصابع تمتدّ خلسة إلى أوراقي لتصحح أخطائي في الرسم، وتنثر ألوان البهجة عليها!

رأيت زوجي يفتح فمه كهاوية، ويصرخ قرب سريري؛ لم أفهم شيئًا! رأيته يفتح النّافذة، ويرمي عبوات الألوان وأوراق الرّسم واللّوحات، ثمّ رأيت بوضوح عاصفة رملية تحمل رسوماتي عاليًا، وتعود لتصطدم بالنّافذة! سال لونٌ أحمر صدئ، سال لونٌ أخضر، سالت ألوانٌ برتقالية وصفراء، وابتلع الأبيض كلّ الألوان!

****

وأنا أعبر البوابة إلى الدّاخل التّركي رأيته. كاد قلبي ينخلع من مكانه وهو يسقط في الحفرة ويتضرّج بالوحل. ركضت وحملته بين ذراعيّ. لم أكتشف أنّي

أبكي حتّى مدّت أمّه ذراعيها وأخذته مني وهي تقول: «سلامة قلبك». وقعت نظرتها الحزينة في روحي، وشطرت قلبي نصفين. ما الذي يحدث؟ همستُ: «بدر». حدّقتْ والدته فيّ بذهول: «كيف عرفتِ اسمه؟». غاصت الكلمات في حلقي، ولم أجد ما أردّ به. كان يشبهك حدّ أنّي شعرتُ بتلاشي الزمن، وعدت طفلة...

انفتح الأفق أمامي على حقلٍ من الأقحوان وشقائق النّعمان، ركضتُ بكلّ قوتي وراء اليعاسيب الملونة.. كان «بدر» هناك يحمل بيده زجاجة مليئة باليعاسيب المرتبكة من حصار الزجاج، رجوته: «أطلقها». ضحك بسخرية: «كم أنتِ هشة!».

جلسنا على التلّ قرب النّهر، انقبض قلبي وأنا أراقب اليعاسيب الملونة وقد بدأت أجنحتها الغشائية تتعرّق، ويتكاثف الغبش على الزّجاج، فتغدو ألوانها باهتة وقد فردت أجنحتها وتوقفت عن الحركة! الأجنحة البرتقالية الممزوجة بزرقة سماوية تحوّلت إلى طيف. رجوته: «أطلقها كرمى لخاطري». قال باهتمام: «انظري كم هي جميلة ألوانها! أمسكتها كرمى لخاطرك». قلت: «لا أريد.. أرجوك أطلقها، ستجوع، دعها تذهب إلى الماء».

اقترب من النّهر وفتح فم الزّجاجة، لكنّ اليعاسيب لم تنطلق منها. تركته هناك، وعدت إلى البيت ركضًا ودموعي تغسل وجهي.

في اليوم التّالي، أعاد لي مجلة استعارها مني، قال: «تركت لكِ فيها مفاجأة!». كانت اليعاسيب داخل المجلة قد جفّت وصارت أجنحتها غبارًا! لكنّ عيونها ما زالت تحدّق في شيءٍ مبهم، ربّما يكون فريسة أو ماء!

****

انتبهت إلى يد الطفل وهي تطلق فراشة صغيرة كان يمسكها بقوة.. سقطت في الوحل؛ كانت ميتة، والطفل الخائف غفا على صدر أمّه وتشبثت

يداه بملابسها. في غمرة الرّعب والنّعاس، نسي الفراشة، وصمت الكون. هنا تزهق الأرواح بصمت... لا تجرؤ حتّى على إطلاق صرخة احتجاج. لا توجد طريقة أخرى للخلاص.

الفَرَاش والأطفال يموتون بكلّ بساطة. وأنا أقف هنا على الحدود ما بين جحيمين، أحاول أن أسمع أصوات الكون من حولي، ولا يصلني سوى صوت الرّصاص!

عادت أصوات الكون تطن بشكلٍ مزعج، وتسبب لي ألمًا في روحي قبل أذنيّ! أيعقل أن أفقد سمعي يومًا وأعيش وسط سكون تام؟ وهل أستحق هذا العقاب لمجرد أنّي فكّرت باستعادة حقّي في الحياة؟!

هدأ الألم، غصت في النّوم، الحل الوحيد لكلّ مشكلاتي، أنسحب إليه بكامل إرادتي. استيقظتُ بعد زمن مفزوعة لأجد أنّي عشت حلمًا غريبًا، دارت خلاله أحداثٌ لم أستطع القبض على تفاصيلها مباشرة. احتجت لفنجان قهوة قبل أن تتضح لي الرؤيا، وأدرك بشكلٍ نهائي أنّ قصتنا ستتجدد. أنا على يقين أنّ قلبي لا يخطئ، فقبل أن تلوح الكارثة في الأفق، تنتابه تلك الحالة من الجزع والانقباض، ويدرك بقلق أنّ مجهولًا على وشك أن ينشر الاضطراب في حياتي، ويتركني في فوضى مشاعري أتعثر بالحبّ، وأدرك أنْ لا سبيل للملمة ما تبعثر من الأمان، واستعادة ما تبدّد من هدوء الرّوح وسكونها!

منذ فاجأني، الخميس الماضي، في الخامس عشر من آذار، بطلب إضافة على صفحتي في «فيسبوك»، أمسكتُ قلبي بأصابع من جليد، وأوقفتُ نبضه تحسبًا لأيّ حركة غدر قد تبدر منه. قلبي وأعرفه، يجتاحه الحنين دائمًا لنوبات عشق مجنونة، فيستحضر الأحداث الأكثر مرارة في علاقتنا! أشعر بأنّنا لم نفترق يومًا، ما زلنا على حافة النسيان، نحاول أن نرتق جراحنا ببلسم الكلمات، فنداوي ما تعتّق منها بوهم صداقة لم يخدش صفاءها ما حدث بيننا

في ذلك الزمن الذي نعيشه مجددًا بصورة متحضرة تدلّ على أنّنا افتقدنا روح المغامرة، ولم يعد يعنينا أن نجرّب نكْء الجراح ونبش الأحاسيس المريبة في إيقاعها الصّاخب.

فاجأتني ضربات قلبي، تشكّلت على هيئة بنفسجةٍ صغيرة نفثت في أنفي رائحته؛ توجست خيفة.. أيعقل أن أستعيد ارتباط حواسي بحواسه؟!

رأيت نافذته الافتراضية مضاءة في العاشرة ليلًا، كتب لي: «أتعلمين أنّي اشتقت إليكِ؟». تحدّث باللهجة المتدفقة ذاتها من دون توقف وكأنّه ما زال يمسك يدي في الحديقة منذ عقود، والنّهر يتفرّج على ملامحنا الغاضبة حينًا المتألقة حينًا آخر.

عيناه! لم أكن أحتاج إلى ذاكرة كي أراهما بوضوح كما كانتا في الدّقائق الأخيرة من علاقتنا. لم تفارقني تلك النّظرة المتسائلة المليئة بالشّكّ والاتّهام، بالشّوق والكره، بالإقدام والنّكوص. رافقتني طيلة حياتي بعمقها ودلالاتها الرهيبة. كانت صورته تحمل تلك النّظرة مع حزنٍ شفيف عاتب، برقة لم أعهدها فيه من قبل. كدت أسمع حديثه قريبًا من أذني. ما أنا على يقين به أنّ عبارته «مشتاقٌ إليك» كانت تحمل نبرة صوته ذاتها التي داعبت أذني مئات المرات وهو يقول: «أحبّك».

كتبت له: «بي من الحنين ما يجعل قلبي ينتفض، حتّى أنّي تخلّيت عن تلك المسافة التي أضعها بيني وبينكَ بتسميتك صديقي. أحسّ أنّي أودّ أن أمنحك كلّ ما في قلبي من حبّ هذه اللحظة بتلقائية كاملة».

في الواقع، كنت أفكّر أنّ بإمكاني أن أمنحه الحبّ بلا حدود، ما دام قلبي يستطيع أن ينبض بهذه القوة، ويرتعش لحديث الذكريات. أخبرته أنّه قال لي في المنام: «أحبّك»، وأنه نظر في عينيّ باشتياق هيّج كلّ حواسي، وقبّلني بحرارة تركت وجهي ساخنًا حتّى بعد استيقاظي بساعات!

ربّما لم يصدّق روايتي، كعادته في التقليل من شأن ما أصفه له من أحاسيسي، لكنّه تمادى في نبش الذكريات الأكثر حميمية بيننا، حدّ أنّه تخيّلني معه في فراش واحد!

ولأنّي امتلأتُ بيقيني، وبه شعرتُ بأنّ الزمن يعود إلى الوراء، وأنّنا لا نتحدّث من خلال شاشتين، بل نجلس في تلك الغرفة الخالية من الأثاث على كرسيين من الخيزران، تفصل بيننا طاولة تحتضن فوضى كتبنا وكأسي شاي، وصوت نجاة يأتي خافتًا من مسجلٍ صغير في الركن تغني: «وفي وسط الطريق». رفعت الأغنية من «يوتيوب»، ووضعتها على صفحتي. لم تكن فخًا، لكنّي أملت أن يسمعها علّه يعيش معي تلك اللحظات الاستثنائية من علاقتنا السّابقة، عندما كان يشرح لي قصيدة امرئ القيس «تعلّق قلبي»، وتهمس عيناه بأشياء يدركها القلب، وتنطق شفتاه كلمات القصيدة مشدّدًا على الحروف والكلمات. يشرح ويعيد الشرح! يقطّع البيت ويردّده مُنغّمًا بحره الطويل. ولا أسمع شيئًا لأنّي مشغولة بحديث عينيه! حدّق فيّ طويلًا، وقال:

- وبعد؟ أعدتُ الأبيات ثلاث مرّات، ولم تحفظي شيئًا.
- لا أحبّ العَروض.
- ليس مهمًا؛ نحن لا نتعلّم ما نحبّه، بل ما يساعدنا على الارتقاء بحياتنا إلى الأفضل. عليكِ إتقانه إن لم يكن لأجل كتابة بيت من الشّعر، فمن أجل علامة الامتحان.
- لا تهمني العلامة.
- مع هذا، ستحفظينه.. انتبهي جيدًا وإلا سأعاقبك، آخر مرّة سأشرح لكِ.
- بمَ ستعاقبني؟

استقرّت نظراته على شفتيّ، ومن دون أن يتكلّم قالت عيناه كلّ شيء، ومع أوّل خطأ مسّ شفتيّ بقبلةٍ سريعة، وتابع القراءة وكأنّه لم يفعل شيئًا!

مع يقيني أنّه سيتجاهل الأغنية، فإنّي أصبت بإحباط لتحقق اليقين، فتركت له رسالة قصيرة في بريده على «فيسبوك»: «كم سيكون جميلًا لو أنّ صوتك فاجأني حيث لا أتوقع، فأنبت الأقحوان تحت جلدي، وزرع وردة الأماني في أصابعي، وتركني أرتعش بكلي! كم سيكون جميلًا أن تزرع الودّ قُبلةً في الرّيح تلامس روحي العطشى فترويها بالأمل!».

ردّ مباشرة: «كنتُ مشغولًا بكِ. طيلة الطريق، سيطر عليّ إحساسٌ بأنّي أشمّ رائحة اليوم الأوّل لنا!». كتبت له: «إلى أين أنت ذاهب؟ ثمّ لم أفهم، عن أيّ يوم تتحدّث؟».

كتب لي: «اليوم الذي اجتمعنا فيه وراء باب مغلق، اليوم الذي احتضنتك فيه لأوّل مرّة؛ كأنّ الذّاكرة تستطيع أن تعيش المشهد ثانية، تعيده بروائحه وتفاصيله.. كدت ألمسك، أوقفت السّيارة جانب الطّريق، وأغلقت عينيّ، وشممت أنفاسك بعمق. كم تثيرني تلك الرائحة فترخي أعصابي! تمامًا كما تفعل رائحة الورد حين تسيطر على الجملة العصبية، فتبعث الارتياح في النفس. أشتهي أن أضمّك ثانية، أن أبعد شعرك قليلًا، وأقبّلك وراء أذنك.. أتعلمين؟ كثيرًا ما خطر لي أنّ روحك أجمل ما فيكِ، لأنّي كنت أربطها دائمًا بأنفاسك حين تتغلّب على حواسي، فتجذبني إلى تقبيلك بلا نهاية. تذكرين؟».

كتبت له: «نعم أذكر، كلّ خطأ بقبلة، كم كانت مضحكة تلك الليلة!».

«بل كانت الأجمل في ذكرياتنا، كنتِ تلميذة كسولة لهذا تجدينها مضحكة».

«من؟ أنا؟ أنتَ واهم، كنت أتعمّد الخطأ لأجعلك تفوز».

«اللعنة عليكِ، من فاز وقتها هو أنتِ، أنا كنتُ أحمق وصدّقت أنّك لم تستطيعي حفظ قصيدة سهلة خلال ثلاث ساعات من التكرار! مع هذا، لو انتبهتُ وقتها لتواطأت معك وتغاضيت عمّا تفعلين».

«بالطبع، من مصلحتك فعل ذلك».

«الحقّ على امرئ القيس، لولا قصيدته لما تورطت معك أبدًا».

«إذن، تعترف بأنّ حبّك لي كان ورطة! يمكنني الآن فهم دوافعك للزواج من غيري».

لم أكن أقصد أن أصل في حواري معه إلى نقطة خلاف.. وحين شعرت بأنّنا عدنا إلى نقطة البداية، واستعدنا قصتنا بكلّ تفاصيلها، آثرت الابتعاد؛ أغلقت صفحتي على «فيسبوك» وهاتفي، وانزويت في الفراش وسط سكونٍ عميق لم يستطع منع الهجوم الشّرس للماضي واحتلاله لروحي.

...

حدث تعارفنا في زمن ما عندما كان أبي يبحث عن بيت يستأجره ريثما ينتهي من بناء بيتنا على أرض اشتراها بعيدًا عن المدينة، التقى والده الذي أتى منذ فترة قصيرة من غرب العاصي، وبنى بيتًا على الطريق الجبلي، يتألف من ثلاث غرف أماميات وغرفتين خلفيتين. الغرف الأمامية تطلّ على فسحة ترابية كبيرة أعلى من الطريق، تنتهي بدرجات ننزل منها إلى الشارع. في الفسحة شجرة مشمش كبيرة تفرش ظلّها على المكان. كان علينا أن نقطع الفسحة الصّغيرة المغطاة بطبقة من الأسمنت، ثمّ ننعطف في ممرٍ ضيّق لا يتجاوز طوله عدّة أمتار، لندخل بيت الخلاء المفتوح من الغرب على بستان مشمش يتوسطه بيت لجيران لم نعرفهم بعد! كان أمرًا مزعجًا الخروج إليه في الليل، وكثيرًا ما خفت من اجتياز فسحة أرض الدّار والعبور إليه، ولم ينتهِ الخوف إلا عندما سوّر أبي الفسحة الأسمنتية بجدارٍ عالٍ، وأغلقها بباب من الحديد، وفصلها عن الفسحة التّرابية التي حوّلها إلى حديقةٍ رائعة زرع فيها بيلسانة اتكأت على السّور، وطالت قامتها مع الأيام حتّى تجاوزت الجدار، ورصف ممرًا ضيّقًا لا يتجاوز عرضه المتر كي نعبر من خلاله إلى الشارع، فلا نلوث أحذيتنا

بطين الشّتاء، وصنع حوضًا على طول الممر الموصل إلى بيت الخلاء، ملأه بزهور الزوق[1] البنفسجية التي كثيرًا ما يجتاحني الحنين إلى منظرها، وأفتقد الإحساس الممتع لملمسها المفرط في نعومته، وقسّم الفسحة التّرابية إلى أحواض زرع فيها الخس والبقدونس والبصل والفول الأخضر وعبّاد الشّمس. كانت متعتي الفريدة في الرّبيع أن أختبئ بين أغصان شجرة المشمش، وأراقب النباتات الصّغيرة وهي تكبر ببطء فتبهج روحي. أمّا في الصّيف، فلم أكن أفارق أعواد عبّاد الشّمس، أقيس طولي بها، وأرى كيف تكبر بسرعة وتتجاوزني، ثمّ تحدّق بالشّمس بكلّ جرأة. أذكر أنّي جرّبت مرّة أن أفعل مثلها، حدّقت في الشّمس للحظة، فغشي نظري؛ دخت ووقعت أرضًا والدّوائر الملوّنة تتراقص أمام عينيّ بأطياف قوس قزح، ترفعني نحو السّماء فألامس الغيم، وتسحرني نشوةٌ غريبة تهزّني برفق كأرجوحتي القماشية! يومها، عشقت تلك الزّهور التي بإمكانها أن تحدّق بوجه من تحبّ بكلّ جرأة وثبات! وصرت أرافقها في التّحديق الأخير وهي تنكّس رأسها جهة الغرب؛ حينها أحسّ بأنّي أمتلك العالم بامتلاكي للنّظرة الأخيرة في عين الشّمس.

****

أم بدر كانت تمشي ذهابًا وإيابًا بصعوبة؛ سألتني أن أراقب حقائبها، فهي لا تستطيع الجلوس خشية أن يتجمّد الولد أو تتجمّد هي. جلستُ قرب الحقائب. البرد تسلّل بسرعة إلى عظامي؛ كنت أرتجف وأنا أراقب جموع النّاس المحاصرة بين بوابتين، وأصوات الرّصاص لم تتوقف. عادت المرأة ووضعت طفلها في حضني، وقالت: «الله يخليكِ ديري بالك عليه... أريد أن أقضي حاجتي ولا أعرف كيف».

(1) اسم محلي لزهور العايق.

صعقت.. أنا أيضًا بدأت أشعر بحاجتي لبيت الخلاء.. احتضنت بدرًا، وشممت رائحة الوحل من ثيابه المبلّلة، أخرجت حرامًا صوفيًا من حقيبتي ودثّرته به. كان يتنفس بصعوبة، والأبخرة تخرج من فمه المفتوح. تأخرت أمّه وبدأت أشعر بالقلق.. أين ذهبت؟ أمر الجندرمة النّاس بالخروج والعودة إلى المكان الذي جاؤوا منه. مرّت ساعة وأنا أنتظر، تيبست ذراعاي، وتجمّدت ساقاي. الدّم انسحب من جسدي. شعرت بتشوش في الرّؤية والعتمة تخيّم على المكان...

لم تنشأ بيننا صداقة في البداية، فأوّل كلمة قالها لي كانت تتعلّق ببيت الخلاء. لمحني داخل شجرة المشمش وأنا أقرأ في مجلة، نظر إليّ وهزّ الشّجرة بقوة، صرخت وأنا أتمسك بالأغصان، وسألته ماذا يريد. ردّ ضاحكًا: «تستمتعين بالقراءة قرب بيت الأدب؟ ما أسخفك!».

ارتبكت بما يكفي لانبعاث الحرارة في وجهي، مما جعله يتهكّم من لونه بعبارةٍ ساخرة أخرى: «البنات لا يعرفن شيئًا سوى صبغ خدودهن بالأحمر».

فيما بعد، اقتصرت لقاءاتنا الأولى المتباعدة على متعة التّجول في السّهول، وزيارة موقع البناء الجديد، إلى أن فاجأني عصر أحد الأيام وأنا جالسة على تلة التّراب التي راكمها الحفّار قرب الأساسات.. جلس إلى جواري، ولمس كتفه كتفي، أردت أن أبتعد قليلًا، لكنّي فقدت توازني؛ أحاط كتفي بذراعه وشدّني إليه، كانت عيناه تحدّقان فيّ باشتياق أربكني، قلت لأتغلب على ضربات قلبي: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟». قال: «لأراكِ». تساءلت: «وكيف عرفت مكاني؟». ضحكَ: «قالت لي العصفورة». ثمّ ساد الصّمت بيننا. كانت نظراته تزداد جرأة، تنقّبان في جسدي عن شيء لا أعرفه. مدّ يده ليلمس أصابعي، أبعدتها بخوف. قال: «ما رأيك لو ننزل لنبحث في الأساسات عن كنز؟». ضحكتُ: «هل أنت جاد؟». قال: «كلّ الجدية، ألا تعرفين أنّ الرومان مرّوا من هنا، وأنّهم تركوا آثارًا وكنوزًا دُفنت تحت الأرض؟ انظري هناك عند شجرة التين، ألم تلاحظي

فم المغارة في الأسفل؟ أعتقد أنّ هذه المغارة تحوي كنزًا؛ لم يجرؤ أحد، سوى الكلاب، على دخولها، الكلاب تدخل فيها ولا تخرج، وهذا يدل على أنّ هناك مخرجًا آخر لها.. من يدري؟ قد يمتدّ عمقها آلاف الأمتار!».

حديثه حرَّض مخيلتي على رسم آثار خرافية في المغارة؛ وافقت على دخولها معه بإشارة من رأسي، أمسك يدي ونحن نهبط المنحدر التّرابي بحذر. وعند فم المغارة، انحنيت لأرى ما بداخلها.. فاجأتني العتمة الشّديدة والرّائحة الغريبة، فشعرت بخوف جعلني أتراجع خطوتين، لم أشأ أن أدخل، كان الأمر في منتهى الصّعوبة، عليّ أن أقرفص أو أزحف، وهذا ما لم أكن على استعداد لفعله، فقد كنت أرتدي ثوبي المخملي الجديد مبتهجة بلونه القرنفلي والدانتيل الأبيض الذي يزيّن أكمامي وصدري وخصري وأسفل الثوب. أدركَ سبب ترددي؛ قال: «تخافين على أناقتكِ؟ ألم أقل لكِ إنّكِ برجوازية؟!». لم أعرف معنى الكلمة، لكنّي شعرت بأنّها صفة سلبية، فكان عليّ أن أثبت له عكس ما يظنه بي؛ وضعت ديوان الشّعر جانبًا، انبطحت أرضًا وزحفت إلى الدّاخل. بدأت روحي تبكي، فثوبي لم يتلوث فقط، بل تمزّق كمّه الأيمن عند الكتف؛ فكّرت في غضب أمّي التي جلستْ أيامًا وراء ماكينة الخياطة لتنجز لي ثوبًا لم تلبسه فتاة في البلدة غيري! لمحتُ عينيه تلمعان في العتمة وهو يقترب مني. كان سقف المغارة أخفض قليلًا من قامتينا، فاضطررنا للانحناء. همس: «لنجلس قليلًا». كنت أعاني قهرًا وضيقًا، وتكاد الدّمعة تفرّ من عينيّ. شعرت بيده تضغط على يدي، ويده الأخرى تدير وجهي صوبه. همس بحرارة أوجعتني: «أحبّك». لم أكن مستعدة لسماع ذلك الاعتراف الخطير في هذا المكان! اضطربت مشاعري بين قبول ورفض؛ وددت أن أصفعه، ووددت لو أندسّ في حضنه، تمنّيت لو يقول أكثر، وتمنّيت أن أرفض حبّه بقوة، لكنّي فجأة أجهشت بالبكاء،

وارتميت في حضنه. لم أستطع تفسير تصرفي ذاك، هو أيضًا شعر بالإحراج، لم يعرف ماذا يفعل إزاء انتفاض جسدي بتلك القوة! راح يمسح دمعي ويعتذر، ويقبّل رأسي ويمسح شعري. أحسست باضطرابه، هدأت قليلًا، وحدّقت داخل المغارة الواسعة، بعد أن اعتادت عيناي على العتمة، قلت: «لا أرى شيئًا غير عادي: لا رسوم على الجدران، ولا كنوز في الزوايا؛ لقد خدعتني!». لمحت ابتسامة هازئة على شفتيه، لكنّ صوته خرج عميقًا هادئًا، أعاده الصدى وكأنّه آتٍ من عالم آخر: «ليس هنا، علينا أن نتوغّل أكثر». قلت بحذر: «لا، لن أفعل، يجب أن أعود». ضحك تلك الضحكة الشيطانية الهازئة: «ما أجبنك!». لم أهتم هذه المرّة لسخريته، نهضت بحذر، وأسرعت أريد الوصول إلى المدخل، فتعثرت قدمي ووقعت. اختفت صور المكان وملامحه، شعرت بشيء يشل حركتي ويد تقبض على ساقيّ، وأيقنت من خلال خوفي أنّي سأموت في هذه البقعة المعتمة، وربّما تأكلني الغيلان قبل أن يكتشف أحد غيابي، ويستدلون على مكاني.. فجأة، سمعت صوته الهادئ قرب أذني وهو يساعدني على النّهوض، ثمّ يتركني ليحفر بيديه في التّراب الرّطب، حيث كان جسدي قبل قليل! أدركت أنّ الرّعب الذي سيطر عليّ أربك ذهني، وأوقعني في فخ مخيلتي التي تجنح دائمًا لاختراع أشياء لا صلة لها بالواقع، حدّ أنّي أعيشها كأنّها حقيقة!

حين خرجنا إلى النّور، ناولني جرّة فخّارية صغيرة، وقال ضاحكًا: «احتفظي بها ذكرى لحبّنا، إيّاك أن تفرّطي بها». استوقفتني عبارة «حبّنا!»، لكنّي شُغلت عنها بتأمل الجرّة الفخّارية، لم يكن فيها ما يثير الانتباه سوى ثقبٍ صغير قريب من العنق، حيث يرقّ الفخّار كثيرًا ويكاد يشفّ!

ابتسمت للفكرة التي خطرت لي. قلت: «شكرًا، لن أفرّط بها». نسيت في غمرة فرحي بالهدية كتابي الملقى على تلّة التّراب قرب التّينة، نسيت كلمته

«أحبّك»، حرارة أنفاسه، كلّ شيء. كنتُ أفكّر فقط في ذلك الثقب والغاية منه، لم تكن الجرّة لحفظ الزيت، ولا للشرب، ليس لها مشرب، ذات عنق طويل وثقب في مكان رقيق أسفله! وكأنّ سهمًا رهيفًا اخترقها، ولم يخلّف وراءه قطرة دم!

قال لي فجأة: «ضعي إصبعك فوق الثقب». نفّذت طلبه بذهول، انحنى فوق فم الجرّة وهمس بضع كلمات، ثمّ أغلقها بيده.. حمل من الأرض حجرًا صغيرًا وسدّ الفتحة، وأنا أراقبه باستغراب.. قال: «أبقي إصبعك مكانه». حمل كتابي، ومزّق ورقة منه، وكتب شيئًا عليها، رفع إصبعي ببطء وسدّ الثقب. قال وكأنّما قام بعمل سحري: «إيّاكِ أن يفتحها أحد، حاولي أن تخفيها في مكان أمين». سألته عمّا همس به داخل الجرّة، ضحك وقال: «ستعرفين يومًا ما!». حمل الجرّة عني حتّى وصلنا إلى المنزل. كان من الصعب أن أخفيها في البيت، قال: «سأحفر هنا تحت شجرة المشمش وأدفنها.. حين تنتقلون إلى بيتكم الجديد، لا تنسي أن تأخذيها معك».

بعد انفصالنا، حرقتُ رسائله، ونزعت السدادة، ووضعت الرماد داخلها، كنتُ كلّ يوم قبل أن أغفو أسمع أنينًا: «أطلقيني»، فأتردّد بين رغبتي في الاحتفاظ به وترك روحه حرّة، كانت الجرّة تصدر نشيجًا مخنوقًا، وكثيرًا ما استيقظتُ من نومي مبلّلة بالعرق وأنا أسمعه يهمس: «أحبّك».

لم أغامر بحمل الجرّة إلى بيتي عندما تزوجت، ظلّت سنوات محبوسة في سقيفة بيت أهلي. حين زرتهم آخر مرّة، كانت ابنة أخي تعاني من الحمى، قالوا لي إنّهم فكّروا بتنظيف السّقيفة لاستخدامها من جديد، وأنّها صعدت السُّلَّم الخشبي، وحين فتحت باب السّقيفة داهمتها ريح عنيفة محمّلة بالغبار أوقعتها عن السُّلَّم. البنت أقسمت لي وهي تهذي: «يا عمتي، بي مسّ.. لا بدّ أنّ جنيًّا يسكن السّقيفة».

ركضتُ إلى الغرفة متعثرة بضربات قلبي، فتحتُ باب السّقيفة على مهل، وهمستُ: «لقد عدت». حينها، هدأ الضجيج، وتحرّك «عنتر»[1] في السّقف مصدرًا صوت طنين خفيف، وتسلّل خارج المكان المعتم مخلّفًا بيوته الطّينية الملتصقة بالسّقف خاوية مهجورة.

مرّت كنسمة باردة كلماتُه على روحي، أغمضتُ عينيّ وأطبقت شفتيّ على طعم ملوحة دمعي. سمعته يهمس داخل رأسي: «أعلم لمَ تجلسين ساعات طوالًا في السّقيفة؛ أنتِ كاليمامة تخشى الفقد، لذا تتشبثين بالأماكن الحميمة المعتمة بقبس روحكِ الذي ينير الأشياء من حولكِ. المكان ضيّق جدًا، لكنّ روحك تمنحه فضاءً بلا حدود».

احتضنت الجرّة الفخّارية، وبدأت أسمع همساته آتية من السّهل البعيد قريبًا من النّهر، يركض خلفي ويقول: «لن تسبقيني». وكنت أضحك.. ضحكتي الصّافية الرّنانة تصلني الآن من ذلك الزمن البعيد، أحسّ بألقه، بعذوبة الماء، بألوان السّماء المتأججة بنار العشق المجنون، بأوّل قبلة همس خلالها بصوت مرتعش: «يا إلهي!».

حملت الجرّة برفق، خرجت من البيت، وسرت صوب النّهر. طوال الطّريق، كنت أراه يتأبط ذراعي، يثرثر ويضحك ويقصُّ عليّ نتفًا من حوادث تكشف لوعته في بعدي. جلستُ أتأمل مياه النّهر، وأغمس قدميّ فيه. كان الأمر أصعب ممّا تصورت؛ أكاد أكون على يقين بأنّ روحي فارقتني في اللحظة التي مددتُ فيها يدي، ونزعت الورقة من الثّقب والحجر عن فم

---

(1) «عنتر» اسم نطلقه على نوع من اليعاسيب الخاصة بمنطقتنا، التي انقرضت حاليًا، لونها بني غامق وعسلي، وأجنحتها أقوى من أجنحة باقي اليعاسيب، تبني بيوتها من طين رقيق بطريقة فنية مدهشة هندستها بمنتهى الدقة في سقف كهف أو سقيفة أو قبو مغلق، تضع بيوضها وتتكاثر ثمّ تغادر المكان.

الجرّة، وخضت النّهر حتّى وصلت إلى منتصفه. المياه الضّحلة في هذه البقعة لم تغمر كتفي. غمستُ رأسي فيه ونفضته وأنا أتنفّس بصعوبة. وقبل أن أجرؤ على التخلي عن جرّتي إلى الأبد، لمحت آلاف الأطياف لكلماتٍ كانت تغادر الجرّة وتتشكّل على هيئة غيمةٍ بنفسجية لها شكل زهور أقحوان.

خرجتُ من المياه مبتلة مرتعشة يخنقني البكاء، كان مالك الحزين بساقيه الطويلتين واقفًا هناك كما لو أنّه يبكي! حين اقتربت منه، لم يهرب؛ رفع رأسه وحدّق بي مصدرًا صوتًا يشبه أنين شخص يحتضر، ذكّرني باللحظات الأخيرة لأختي قبل رحيلها! تركته ومشيت. لم أكن قد ابتعدت كثيرًا حين سمعت صوت أختي يخرج من حنجرته: «لماذا تهربين دائمًا من مواجهة مشكلات الحياة؟ ألأنك تملكين ساقين طويلتين تصلحان للفرار؟ توقفي قليلًا، وتأملي حولكِ جيدًا؛ قاتلي يتنفس بالقرب منكِ».

*****

جاءت أم بدر أخيرًا، اعتذرت إليّ وهي مرتبكة، كان لونها شاحبًا لكنّي لم أجد الوقت الكافي لأسألها عمّا حدث، ناولتها بدرًا، وطلبت منها مراقبة حقائبي ريثما أعود...

ليست المرّة الأولى التي ألجأ فيها إلى الخلاء لقضاء حاجتي، فقد اضطررت في رحلة النزوح غربًا لفعل ذلك، لكن هذه المرّة كانت مخيفة إلى حدٍّ كبير.

شعرت بأنّ أحدًا يراقبني؛ لم يكن مجرد شعور، بل سمعت حفيف خطوات خفيفة ليست بعيدة عني سوى بضعة أمتار؛ خشيت أن ألتفت، ولم أجرؤ على تجاهل الأمر، الرّيح تدفع جسدي بقوة، بدأ المطر يهطل من جديد، صرت أرتجف، لم أعد أستطيع اتّخاذ قرار.. الحاجة أقوى من الخوف،

التفت ببطء، لم أجد أحدًا، السّهول الممتدة على جانبي الطريق واضحة رغم العتمة، وأصوات النّاس المنتشرين في البرية تقول إنّ المكان آمن.. ضحكت من فكرة الأمان مع صوت رشقات الرّصاص البعيدة...

لم تكن المعركة تعنيني سوى بمقدار تأثيرها على المدّة التي سأبقى فيها ممنوعة من العبور إلى الطرف الآخر.. سرت بضعة أمتار.. تبعني صوت الخطوات المتلصصة.. وشممت رائحة واخزة.. كانت رائحة مألوفة لديّ، أحدهم يشرب عرقًا في الجوار.. الرّائحة تقترب أكثر... وأصوات الرّصاص تتلاشى... لم يعد لديّ شكّ بأنّ شخصًا ما يلاحقني. أشعر بنظراته تلسع ظهري، والبرد يكاد يجمّد أطرافي.

بين صحو وآخر، تعود أصوات الكون خارج النّافذة لتناوش سمعي بطريقة مزعجة، أسمع فيها صوت زيز الحصاد في الحقول البعيدة يغني للحرّ القاتل الذي يضغط على أعصابي، فأخفض درجة التّكييف؛ أسمع صوت زوجي يصرخ من الغرفة المجاورة: «هل تريدين الانتحار بتجميد نفسك؟ إن كنت تريدين الموت، فهناك طرقٌ كثيرة أذيقكِ منها ما تشائين!».

من قال إنّي أريد الموت وقد فَتَحتْ نافذتُه الافتراضية لي أبواب الحياة؟!

فتحت الكمبيوتر، وبحثت عنه؛ كانت نافذته مضاءة باللون الأخضر، لوننا المفضل. كتبت له:

- لم تنم بعد؟
- هناك ما يمنعني...
- ماذا هناك؟
- صدّقيني، لا أدري. ما أعرفه هو أنّني أبحث في قلبي وعقلي عن شيء ما أستطيع أن أقوله، فلا أجد إلا الفراغ، فراغٌ في فراغ، مع أنّ كلّ ما حولي يضجُّ بالحركة.

- أنت تعرف بالتّأكيد أنّه لا يوجد فراغ، بل ثمّة أفكار تزدحم وتتلاطم، وضجيج يعلو فيصمّ أذنيك.
- لعلّ الأمر كما تقولين.
- أتدري؟ تجتاحني الآن ذكرى الخوف الأوّل الذي ورطتني به! كم كنتَ تحبُّ المجازفة، وكم كنتُ جبانة! لكنّ العناد كان يمنحني قوة أتغلّب فيها على حذري وتردّدي. الآن، كم تبدو تلك الأيام قريبة!
- أتعلمين أنك فتحتِ لي نوافذ الحياة بعد أن ظننت أنّه لم يعد هناك ما يستحق الاستمرار على وجه الأرض؟! الخواء يسيطر على التّفاصيل كلّها منذ قرّرت الانسحاب من مواجهة ما يجري، والعزلة بين جدران منزلي، لكنّ الموت يلاحقنا أينما حللنا، وكلّما ابتعدتُ أكثر يصبح حضوره أقوى، حتّى أنّي أفكّر جديًا بمغادرة البلاد.

قلت من دون تفكير:

- ربّما يكون ذلك الحلّ الأمثل لكلّ ما تعاني منه.

قال:

- لكن هذا القرار صعب جدًا، ويحتاج إلى جرأة استثنائية لا أملكها؛ ما زلت ضعيفًا تجاه ارتباطي بالمكان، وكثيرًا ما أفكّر في أنّه لو خلت سوريا من البشر، ولم يبقَ أحدٌ غيري، فلن أغادرها.

لم أجد ما أردّ به. لم يصدمني كلامه، ولم أستغرب إصراره على البقاء، لأنّي أعرفه بما يكفي لفهم ما يشعر به.

هناك على المرتفع، حيث خبّأتُ كثيرًا من أحلام الصبا، وحيث خفق القلب للمرّة الأولى، جمعتُ الأقحوان الزاهي لأقدّمه له رمزًا لديمومة الحبّ، ومنعًا لفراق يعقبه نسيان! كنت على ثقة بأنّ باقة الأقحوان المضفورة بعشب أخضر، تتوسطها زهرةٌ قانية من زهور شقائق النعمان -التي ربطتها بإحدى

شرائط شعري- ستبقى على مرّ الأيام تشعلنا بنبض القبلة الأولى، واللمسة الأولى، والكلمة الأولى التي تبادلناها بكلّ القلق والحذر والخوف والرّغبة والدّهشة. كانت اكتشافًا رائعًا وفتحًا خالدًا! ترعشني ذكرى تلك اللحظات الخاطفة التي كنّا نمرّر فيها بسريّة تامة أحاسيسنا عبر نظرات حذرة ولمسات عابرة ورسائل صغيرة.

نادرًا ما كنت أفكُّ ضفائري، لأنّي كنت أتضايق من شعري الأجعد الكثيف الطويل، فقد كان جمعه وترتيبه في ضفيرة أمرًا صعبًا مربكًا. وليقينه أنّ ذلك يضايقني، كثيرًا ما كان يعبث بشرائطي الحريرية، ويسحبها من شعري فجأة، ليتركه بين يدي الرّيح ونحن نجوب السّهل في الأيام العاصفة!

أطول فترة خصام بيننا كانت أيام امتحان الثّانوية العامة، حين التقى بي صدفة في الطريق. كان يوم أحد، ودوامنا في المدرسة حتّى السّاعة الثّانية عشرة، ألحّت عليّ إحدى صديقاتي أن أذهب معها إلى حلّاقة الشّعر، فذهبت. لا أدري ما الذي أغراها في شعري، فزيّنت لي أن أقصه لأنّه يليق بوجهي أن تحيط به هالةٌ سوداء قصيرة، فتزيده استدارة ونورًا! أعترف أنّها امتلكت أسلوبًا مقنعًا جعلني أجلس على الكرسي أمامها باستسلام، وأنظر إلى ضفائري المحلولة وشعري الطّويل ينهمر كشلال على كتفي. كدت أبكي وأنا أرى خصلاته تتساقط أرضًا تحت ضربات المقص المدرّب. كنتُ أذبح، أحسست بالإهانة، وغصّ حلقي بالدّمع.

حين نظرت إلى وجهي في المرآة وقد تخفّفت من ثقل شعري على الكتفين، ومن أطرافه الباهتة، شعرت بغتةً بالرضا، فقد بدا أسود فاحمًا، بغرّة نزلت على الجبين، وأطراف قصيرة، وتطاول عنقي يزهو بعريه لأوّل مرّة!

رأيته يحدّق في وجهي باستغراب، ثمّ مال عليّ هامسًا: «ماذا فعلتِ بشعرك؟ كنت لا تطيقين قصّ شعرة منه، فكيف فرّطت بخصل كاملة؟!».

عندما وصلت إلى البيت، وفتحت الباب الخارجي للحديقة، وأصبحت داخل السّور، نزعت القبعة عن رأسي، وسرت إلى الدّاخل من دون كلمة. كنت أراه بعينيّ قلبي، أرى ذهوله، غضبه، الكلمات المختنقة في حلقه، وأسمع عبارته التي لاحقتني كلعنة: «مجنونة»!

كتبت له: «أتذكر أشجار بيتنا، وما دفنته تحت شجرة المشمش؟ الأرجوحة؟ باقات الزّهور؟ شرائط شعري؟ و...

اليوم، وجدت نفسي هناك في الحلم.. الخواء المسيطر على البيت، والجبال من حولي، جعلني أحسّ بحجم الفجيعة التي تتكرّر بلا توقف. مررتُ على الحديقة ذابلة الزّهور، لمستُ بأصابع الحنين سورها، اقتربت من شجرة المشمش، تأملتُ شجرة التّين العجوز، وحطّت نظراتي على أشجار الرّمان، كانت نُضرة أوراقها لافتة للنظر بنعومتها، أشعرتني بذلك التّوهج الخفي الذي تتركه كلماتك في داخلي. لا شكّ أنّ وجهي ما زال قادرًا على التّخضب بلون الأصيل القاني للمساء، فقد شعرت بالسّخونة تحرق بشرتي، ولم أكن بحاجة لمرآة، بل لعينيك مرآة قلبي وروحي.. كنت أرى فيهما انعكاس صورتي حين أحدّق في وجهك!

في الحلم، نفضت الغبار عن أرجوحة الطفولة التي لم تبارح مكانها، كدت أرى الوجوه كلّها التي اتكأت على حبالها المتينة، ألمس الضّحكات بأصابعي، والكلمات التي احتفظ بها الأثير، تحرّكت حولي كائنات تمتلك الحياة كلّ الحياة! ولمحتك تقترب، تدفع الأرجوحة، فأطالبك بأن تدفعها بقوة أكبر. أغمضت عينيّ، كنت تضحك، وتهدّدني بدفعي نحو السّماء، فأردُّ بلا مبالاة: «ليكن، أودّ ذلك، لكنْ هل تستطيع أن تصبر على فراقي؟». تضحك وتقول: «بالتّأكيد أستطيع.. جرّبي، وسأصعد السُّلَّم، وألحق بكِ»... ها هي الأرجوحة تتحرّك، وتلتفُّ حبالها حول نفسها، ثمّ تنفكّ تدريجيًا وتهدأ

تمامًا، وأنا أمضي إلى الباب غير عابئة بندائكَ، أسمع خطواتكَ ورائي، أشعر بيدكَ على كتفي، أحسّ النّار تحرق أطرافي، لكنّي أحافظ على ملامح البرود والغضب طمعًا في كلمات تسترضيني بها تبرّد حرقة القلب. وصلنا إلى الباب معًا، فتحته ببطء وأنا أحدّق في عينيك، يدي تلمس خشبه بتوتر، وأنت تودّعني بكلّ برود. أدركت في لحظة أنّك لن تتنازل، وتقول لي ما يطفئ لهيبي، وأنّي أكثر منك عنادًا. مع هذا، لم أكن على استعداد للتراجع عن موقفي، لم أترك لك يدي كعادتي عندما تريد مصافحتي، بل سحبتها بسرعة وكأنّ نارًا أحرقتها.. لا أعرف ماذا حدث وقتها، ما أذكره أنّي بقيت متكئة على الباب لدقائق طويلة أحاول خلالها ضبط نبض قلبي ورعشة أصابعي. مرّ زمنٌ طويل بعد ذلك التّاريخ، حاولت خلاله أن أستوعب اللحظة بتفاصيلها، لكنّها كانت تتبدّى لي بأشكال مختلفة: تأتيني على هيئة إثم يجب التّخلص منه، وبصورة صلاة تأخذني بعيدًا، فأشعر بالصّفاء والنّقاء والجمال؛ تصارعت في ذهني الصورتان مرارًا، حتّى استطعت في زمن ساكنٍ محايد أن أدفن الصّورة بعيدًا عن ذاكرتي، وأنسى اللقاء الأوّل لشفاهنا. أقف الآن في مواجهة صريحة مع تلك اللحظة التي تفتّحت فيها أنوثتي على كنز أجهله، وفشلت في الحصول عليه، كنت أتخيّله فقط كلّما انفردت بنفسي بعيدًا عن واقعي! وبعد كلّ لقاء متخيّل، كنت ألوم نفسي وأخاصمها طويلًا، لاعتقادي أنّي لا أملك الحق في التّفكير فيك، ما دمنا افترقنا وصار لكلٍّ منا حياته.

وصلتُ إلى الباب. تأملتُ طلاءه المتآكل طويلًا، خربشات منمنمة تركتها أقلام الصّغار الذين كبروا ورحلوا.. رحت أنبش تلك العبارات، بحثًا عن خطّ قديم أوضح من بقية الخطوط ترك رسمًا قديمًا صغيرًا في الزاوية العليا. خرجت الآه من صدري محترقة بحنين تأجّج في أحشائي، كدت أصرخ باسمك، كدت أناديك وأنا أملك يقين حضورك، وأنّك ستحضنني كما في تلك

اللحظة، والباب شاهد على ما جرى! بابٌ ما زال يعبّئ جعبة الوقت بالأسئلة المربكة، فلا أجد سوى إجابة يتيمة: يدخل الأحبة حياتنا بهدف الرحيل!».

****

حين وصلتُ إلى حافة الطريق، تجرّأت والتفتُّ مرّة أخرى إلى الخلف، فاجأتني عيناه الجاحظتان وهما تحدّقان فيّ باشتهاء.. أردت أن أهرب، خذلتني ساقاي الطويلتان! همست برعب: «ماذا تريد؟». كشّر عن ضحكة مكتومة، وقال: «ما تريدينه، ماذا تفعلين في الخلاء وحدك؟ تبحثين عني بالتأكيد». تحركت بسرعة أريد الابتعاد، أمسك ذراعيّ بقوة، رائحته الخانقة لم تكن رائحة عرق، بل رائحة دم ما زال طازجًا؛ الرعب خلّف فيّ قوة استثنائية مكّنتني من الابتعاد خطوات عنه... انطبعت أصابعه على كم معطفي، حدّقت فيه برعب، البندقية على كتفه، زجاجة العرق في يده. صرخت: «قاتل». ضحك بسخرية: «إنّها طيورٌ تائهة وحيواناتٌ شاردة مثلك». صرخت: «أنتَ الحيوان»، وركضت بكلّ قوتي.

كنتُ ألتقي بكَ في طريق عودتي من المدرسة وأنا أصعد الدّرب التّرابي مرهقة محتقنة الوجه من الحرارة صيفًا، ومرتجفة من البرد شتاءً. تتأملني بطريقة غريبة، ثمّ تسرع لتسبقني إلى البيت، فأشعر بالارتياح، خاصّة حين كنت أراك مع بقية الأولاد تقتلون الحراذين بعد صيدها، وتدهنون أيديكم بدمها! كان ذلك يثير قرفي، فأشعر بالغثيان. لم أستطع يومًا أن أستوعب كيف تستطيع فعل ذلك، إلى أن اصطدمت بك ذلك المساء في الممر الضّيق المؤدي إلى بيتكم وفي يدي صحن طعام ساخن، حملتَه عني بسرعة، وأوصلتَه للبيت، وبقيت تنتظر خارج الباب.. حين خرجت أريد العودة إلى بيتنا، فوجئت بك تسدّ عليّ الطّريق بعد المنحنى بفرد ذراعيك جانبًا! فاجأني تصرفك وأخافني، ولم أستطع أن أنبس بكلمة. حين رأيتني على هذه الصورة، ضحكت وأنزلت

يديك، وقلت: «أردت فقط أن أشرح لكِ؛ رأيت الاشمئزاز والخوف في عينيك هذا الصّباح.. الواقع أنّنا نفعل ذلك كي لا تؤثر عصا الأستاذ في أيدينا؛ لو فعلتِ ذلك لن تشعري بالضرب!». قلت بصوت خرج غريبًا من حلقي: «لا أحتاج إلى ذلك، فهو مقرف، والمعلمة لا تضربني؛ لن أضطرّ لمثل هذا».

أفسحت لي الطريق وأنت تقول ساخرًا: «المعلمة لا تضربك ليس لأنّك مهذبة، بل لأنّك جبانة!»، وسرت صوب الشّارع.

يومها، شعرتُ بالغيظ، لأنّك لم تعتذر عن تصرفك المزعج؛ صرخت بك: «مغرور». لا أذكر إن كنتُ قد بكيتُ ليلتها، لكن ما أنا على يقين به أنّي بقيتُ مستيقظة حتّى ساعة متأخرة من الليل. وحين غرقت في النّوم، رأيت «التابعة» تمزق يديّ، وتسجنني وتعذبني، وتسدّ كلّ الطرق عليّ، فأختنق بصوتي ولا يسمع صراخي أحد! بعد هذه الحادثة، التبست مشاعري نحوكَ؛ تراوحت بين كراهية وحبّ، لا أعرف نوع ذلك الحبّ الذي شعرتُ به، لكنّه إحساس خاص جدًا، أكّد ذلك الشّعور ورسّخه رؤيتي أولاد الحي يعذّبون قطة، ويحاولون قطع ذيلها، حين وصلتَ وأنقذتها من بين أيديهم؛ شعرتُ بعاطفةٍ غريبة وبفرح يغمرني، لكنّه لم يستمر طويلًا، فقد جئتني يومًا وبيدك عصفورٌ ميت أردتَ أن تريني ريشه الملوّن الجميل.. شعرتُ بألم من أجله؛ لم أكن أحبّ رؤية العصافير في الأقفاص، فكيف أراها ميتة؟! ما آلمني أكثر أنّك قلت لي: «اصطدته لأجلك». هربتُ يومها ولم ألمس الرّيش النّاعم. خبّأتُ دمعي؛ لم أكن أريدك أن تقتل كائنًا حيًّا لأجلي، كائنًا يعشق حريته، أراه في السّماء وأتمنّى أن أكون مثله، فكيف أقبل أن أراه ميتًا لأجلي؟! هل أردتَ أن تبدو لعينيّ رجلًا؟ هذا الادّعاء أمقته، كنت أحبّ فيك شفقتك على القطة، تخليصها من أيدي الأولاد الشّرسين.. أمّا هذا فلا، لا يمكن أن أقبله أبدًا، لكنّك لم تهتم يومًا بما أريده، كنت تشعر برجولتك مبكرًا.

التقيتُ بك مصادفة في الطّريق بعد انتقالنا إلى البيت الجديد، سألتك عن البيت، عن شجرة المشمش، عن السّطوح، وعن سُلَّمك الأحمر! كنت أحدّثك بلهفة عن كلّ الأشياء المشتركة بيننا، ولم أنتبه إلا متأخرة لتلك الضحكة التي تسكن عينيك، فتلمعان تحت الشّمس، وترسلان كهرباء غريبة تصعقني من دون أن أفهم ما يحدث! تركتك وسط الطّريق وهربت!

****

رمى زجاجة العرق من يده وركض خلفي، لم تعقه البندقية ولا الجعبة، الشّهوة أطلقت ساقيه، والرعب أوقعني أرضًا.. لم يكن لديّ الوقت الكافي للنهوض، ارتمى فوقي بجثته الثّقيلة وأغلق فمي بكفه، كدت أختنق، لم أعد أستطيع الصّراخ ولا الحركة، تذكرت تلك الحادثة الفريدة في طفولتي.. ربّما لم تكن ذاكرتي من وعاها، فقد روت أمّي الحادثة مرارًا باستغراب؛ كانت تبحث عن تفسير لحالة الغيبوبة التي أصابتني مرتين: إحداهما لم أكن قد تجاوزت السنتين من عمري، عندما وبّخني والدي لاقترافي جرمًا صغيرًا، حين قطعت كلّ زهور الحديقة وخبّأتها في سرير شقيقي الصّغير؛ والثانية حين كنت ألعب مع الأولاد «عروس وعريس»، واختار بدر إحدى بنات الجيران لتكون رفيقته في اللعبة.. يومها، حملني الأولاد إلى البيت وكنت -حسب رواية أمّي- مثل «الخرقة»، حتّى ظنّتني ميتة! هذه المرّة أيضًا لم تكن حالة الإغماء بإرادتي.. شعرت بسكون غريب، خرست على أثره أصوات الكون، ولم أعد أشعر بشيء حولي.

مرّة أخرى يعود السّكون ليسيطر على الكون من حولي، لكنّي لم أعد أرتاح لغوصي العميق في لجته، لأنّه يمنعني من سماع صوتك على الهاتف، صوتك الذي بات نافذتي الوحيدة على الحياة بكلّ تفاصيلها وذكرياتها

الماضية. قرّرت الاتّصال بك غير آبهة بكلّ ما لديّ من خوف وحذر من معرفة زوجي للأمر ومراقبته الدّائمة لي. جاءني صوتك رائقًا بنبرة ضاحكة.. قلت: «الحمد لله، تبدو اليوم بمزاج حسن، يبدو أنّك متفائل».

أجبتني: «التفاؤل لا يأتي من الواقع، بل يأتي من حركة الزمن، وهو متغير. ما زال ثمّة أمل ما دامت السّنوات تتوالى، والفصول والسّاعات تتحرّك؛ الزمن متحوّل لا يثبت على حال».. وقطعت الاتصال.

لم تنسَ موعدنا. قبل الثّامنة مساءً، اتصلت بي وأنت تقود سيارتك إلى مكان ما، على الرغم من تنبيهي الدّائم لك ألا تتصل بي في أثناء قيادة السّيارة.

- كأنّي بكِ أنا، أدرك أنّ الحبّ هو ما يجعلنا منسجمين إلى هذا الحدّ. أمّا هذا الثبات في حبنا، وصموده إلى الآن، فهو ما يحيرني. هل أسألك: لماذا تحبينني؟
- حين نعشق، يكون الحكم الجمالي على من نحب شيئًا ثانويًا تحكمه رغباتنا بالقدر نفسه الذي نجد فيه الأعذار لخطايانا، فنبررها بحيث تصبح مقبولة مستساغة.
- كأنّك تهربين من الجواب بتعميم المنطق الذي تخاطبينني به!
- ليس كذلك، بل أحدّد ما هو عام، وأحتفظ بما هو استثنائي.
- هل أفهم أنّ حبي بقلبك استثنائي؟
- منذ متى لم يكن كذلك؟! تحبطني أسئلتك وأجوبتها من البدهيات.
- من قال إنّ البدهيات لا تحتاج إلى تأكيد؟ أحتاج إلى أن أسمعك تكرّرين دائمًا أنّك تحبينني.
- وهل قلتُ قبل الآن إنّي أحبّك؟ كم أنت مغرور!
- ربّما لم تلفظيها بعد، لكنّي أحسست بها مئات المرّات، أتشكّين بحدسي؟

- يا لحدسك! يورطني بأشياء غير قابلة للنقاش أبدًا.
- لأنّي أدرك أنّ الحبّ عندكِ يقف في وجه الموت، وفي وجه المرض، ويتغلّب عليه. الحبّ يمنحنا الأفكار الجميلة، ويجعلنا مبدعين، ويدفعنا للتّضحية بدمنا وحياتنا في سبيل الآخر.
- أعترف بمقدرتك المذهلة على قراءة أعماقي.

توقفتَ فجأة، وقلتَ:

- حسنًا عزيزتي، لقد وصلت. أتركك بخير.

****

فجأة، تخفّفتُ من ثقل جسده، وتسلّلت أصوات بشرية إلى أذنيّ؛ فتحت عينيّ ورأيته ينهض محاولًا خلع حزامه وجسده يترنح، نهضت بتلقائية محاولة الهرب، انتبه إلى محاولتي فانقضّ عليّ بسرعة وأمسك ذراعي.

أخطأت تقدير قوته، كنت أظنّ أنّ باستطاعتي التّغلب عليه ما دام في حالة سكر وخطواته غير ثابتة. لم أجد بدًا من استخدام أسناني وساقي لأخفف ضغط يديه عن ذراعي.

أخيرًا، استطعت التخلّص منه، والرّكض باتجاه تجمع النّاس.

حين ابتعدت بحثًا عن أم بدر وحقائبي، اكتشفت أنّ هاتفي قد سرق، وكذلك إسورتي، وأفرغت جيوبي! جلست على حافة الطّريق قريبًا من جموع النّاس الذين ينتظرون الفرج، وبكيت بحرقة.

لم أنتبه إلى أنّ زوجي سرق هاتفي في أثناء إغفاءتي، وتصفّح الرّسائل والمحادثات. ومع أنّي كنت حريصة على مسح كلّ محادثاتنا مباشرة، فإنّي غفوت يومها قبل أن أفعل.

اختفيتَ شهرًا كاملًا! حتّى أنّي وقعت في فخ قلقٍ تطوّر إلى حياد غريب تجاه علاقتنا، فلم أعد أهتم إن اتصلت بي أو لم تفعل، إن كتبت على صفحتي

أو لم تمر بها. صرت أحسّ غيابك عاديًا، وأتمنّى ألا تتصل بي، حتّى أنّي حدّثت نفسي بأنّ ما بيننا يجب أن ينتهي!

أراحني هذا التّصحر في أحاسيسي، وكأنّ النّدى بات يشكّل أرقًا مزعجًا، فلا أطيق أن يكلّل كلماتي، وكأنّ الغبار بات كلّ شيء في حياتي، وتأقلمت معه بسرعة عجيبة، حتّى فاجأتني ببداية أيلول برسالة تقول فيها: «كان مطرًا مفاجئًا، أغرق روحي بالحبور، كنت كأني أخرج من أقبية الكآبة وأنا أشتمّ رائحة المطر، لكِ ما شعرتُ به اليوم، لكِ هذا الصّباح الأيلولي المنعش، لكِ حفيفه الخجول ونوره الرّوحاني. على فكرة: لأيلول شمس روحانية لا أجدها في أيّ شهر آخر، إحساسي بأيلول خاص جدًا. لكِ هذا الصباح الأيلولي قبل أن يغادرنا أيلول».

كتبت الردّ مباشرة متناسية كلّ أحاسيسي الفظة السّابقة: «لي مع أيلول ذكرى لا يمكن أن تنسى، ترفدني دائمًا بفيضٍ من عبير الأماكن التي رحلتُ عنها، فيه نكهة مدن اليمام، وفيه ذلك الحنين الغريب لسطوة النّهر وألق زهر الغريب، عطرية أمّي وإكليل الجبل والجلنار المختبئ بأصص الفخار تحت أشجار الرّمان. أيلول يفاجئني بحضوره مع ذكرى لقائنا الحميم الأوّل. كان للشمس حضور عذب في عينيك، وكنتَ تفيض حبورًا وحيوية، وكنتُ أحمل بين أصابعي رعشة قرنفلة أمّي الخمرية التي قطَفَتْها خصيصًا لصباحات أبي الخريفية التي لا يشبهها صباحٌ آخر».

اتصلت بك بعد ساعات لأطمئن عليك.. فوجئت بتماهيك مع أشكال الموت الفظيعة من حولك.. فقد بدأت تشعر بموت علاقتنا. لم أكن مثلك، فأنا على يقين أنّ علاقتنا لن تموت، ولو رحلت أجسادنا عن هذه الحياة. وعرفت أنّ كلّ الإحباط الذي تشعر به بسبب رسالة وصلت إليك مني!

لم أتخيّل يومًا -على الرغم من معرفتي أنّ زوجي نذل- أن يصل به

الأمر إلى استخدام هاتفي لإرسال رسائل إلى أصدقائي في العالم الافتراضي، تظهرني متهتكة مجنونة صاحبة مزاج سيئ، وأملك استعدادًا استثنائيًا لإيذاء الآخرين.

منذ اتّخذت قراري الأحمق بالزواج منه، لم أرتح للون عينيه، فأنا أبغض العيون الزرقاء لأنّها بطريقة ما تذكّرني بعيون الثعالب؛ عيناه بالتّحديد فيهما مكرٌ واضح، ونظرةٌ شهوانية إلى النّساء لم أغفل عنها، ولكنّي تجاهلتها، وحاولت أن أنساها كي لا تسبب لي مزيدًا من الألم. لم أكن بطبعي أميل إلى الشّجار وتبادل الاتّهامات، فقد حاولت مرّة واحدة في بداية زواجنا أن أنبّهه إلى تصرفه غير اللائق مع زوجة أخيه في حفل عيد ميلادها، فانفجر في وجهي، واتّهمني بأنّي أسعى للتفريق بينه وبين أخيه كي يخلو لي الجوّ وأختلي به. لم أتصور أن يصل به الاستهتار إلى هذا الحدّ إلا بعد أن تيقنت أنّه يقيم علاقة جنسية مع زوجة أخيه، وأنّه على استعداد لاتّهامي بأيّ جرم كي يمنعني من كشف الأمر أو مواجهته. هل أخطأت بالتزامي الصّمت؟ كنت أعلّل تصرفي بالعجز عن تغيير شيء في حياته أو حياتنا معًا.

منذ ذلك اليوم، صارت الوجوه في لوحاتي شاحبة مطموسة العينين، كلّ الوجوه عيونها لا لون لها، فقط دوائر بيضاء يتوسطها خطٌّ أصفر؛ إنّه انعكاس لشمس شاحبة، أو غضب حبيس في روحي لا أجد له منفذًا سوى رسم وجوه عمياء. ويزداد غضبي بعد الانتهاء من اللوحة، فأغرس دبوسًا صغيرًا في موضع القلب، وأدير اللوحة جهة الحائط.

كنت على يقين أنّي دخلت المرحلة الزّرقاء في الرّسم التي ابتدعها بيكاسو، متجاوزًا رسم الأزهار بالألوان القاتمة، معبرًا عن حالته النّفسية التي كانت مزيجًا من الحزن والسّوداوية والبرود، فكلّما رسمت لوحة أشعر بأنّها تحمل ملامح المتسولين والفقراء وأصحاب العاهات الذين كان يرسمهم؛

بالتّحديد كانت لوحاتي تأخذ ملامح «عازف الغيتار العجوز»[1] الذي برع بيكاسو في تجسيد التّدهور الجسماني والنّفسي من خلاله.

ولم أكتشف إلا متأخرة، بعد أن قام زوجي بتمزيق كلّ تلك اللوحات، أنّها كانت تحمل ملامحه وشكل عينيه وجبينه وشعره وأصابعه!

لوحة وحيدة بقيت معلقة على الجدار لم يمزقها، بورتريه للينا، رسمتها قبل مقتلها بأيام، احتفظت فيها بشكلها وهي حامل.. تضع يدًا على بطنها، وتمدّ الأخرى بباقة أقحوان لشخص لا يظهر في الصورة.

استيقظت في اليوم التّالي وجسدي يرتجف من كابوسٍ رهيب، رأيت فيه وجه لينا في اللوحة ينزف دمًا يملأ الغرفة حتّى كاد يغرق سريري.

اقتربت من الجدار، لمست اللوحة بأصابع مرتعشة، رأيت الثقوب، مكان الرّصاصات الست.. ينزف دمًا!

****

تخلّصه من اللوحات أراحني؛ شعرت أنّي تخلّصت منه شخصيًا، وصار التّفكير في الانفصال عنه هيّنًا. في البداية، فكّرت بالهرب، تأملت ساقيّ اللتين أصبحتا أشبه بمسند خشبي، بعد السّنوات الطّويلة التي عُزلت فيها عن العالم في مدينة صحراوية سماؤها وبحرها وشوارعها يصبغون روحي بلون الرمال.

لم أجد بدًا من مواجهة زوجي وطلب الطلاق؛ ضحك طويلًا، وقال: «نجوم السّماء أقرب لك». فكّرت بالنّجوم التي يمكن أن أصل إليها، فلجأت للسفير الفرنسي -الذي اشترى إحدى لوحاتي في أثناء معرضي في السّفارة- طلبت منه المساعدة، شرحت له أنّ زوجي سيعيدني إلى سوريا وأنا مطلوبة هناك لفرع الأمن السياسي. وعدني السّفير بحل مشكلتي في أسرع وقت.

---

(1) لوحة شهيرة رسمها بيكاسو خلال ما عرف بالمرحلة الزرقاء (1901 - 1904).

امتلأت روحي غبطة ممزوجة بالقلق والخوف من المجهول الذي لا أعرف عنه شيئًا، لم يكن في مخيلتي أيّ تصور لحياتي المقبلة، ربّما لأنّي تقبّلت وضعي في الغربة مع زوجي وابنتي سنوات طويلة، اعتدت فيها على الانصياع له، وتنفيذ القرارات التي يأخذها من دون مناقشة.

إلى أين ستحملني ساقاي الضعيفتان اللتان لم تعودا قادرتين على الركض لمسافات طويلة لتنقذ روحي من السّقوط في الهاوية؟

كيف سأهرب من ارتباطي به والنّوافذ مغلقة بقضبان حديدية؟ هل أستطيع تحقيق رقم قياسي آخر في الفرار من قدر رسمته لي خطوط لوحة؟

منذ فراري الأول من منزل جدتي في أثناء الحريق، لم أعد أذكر تفاصيل تلك الحادثة الرهيبة، ولم يعد وجه «دون بونيللو» يلاحقني في المنام؛ لقد فقدت اهتمامي بتلك الوجوه الطفولية الباكية منذ تيقنت أنّ ما حدث سيحدّد مصير حياتي الشّخصية قبل حياتي بصفتي مبدعة.

لم أكن قد تجاوزت الثالثة عشرة حين حدث الحريق، كنت في زيارة لجدتي في أوّل ربيع من دراستي الإعدادية، وكانت جدتي في ذلك العام تعاني وهنًا عامًا أقعدها مدّة في الفراش، ولم أكن وقتها أحلم أن أتسلم مكانها في حقول البرتقال، لكنّي بذلت جهدًا خرافيًا لإقناعها بأنّي أستطيع فعل ذلك. حرصت على جمع الزهور بطريقتها، وكانت متعتي الاستثنائية في مراقبة ماء الزهر وهو يقطر في الوعاء، لم يكن الرابط منطقيًا بين تلك القطرات ودموع الطفل الباكي في لوحات آماديو[1]، لكنّ الفنان لا يحتاج إلى رابط منطقي بين الأشياء. قضيت أيامًا وأنا أرسم صورة لطفل باكٍ، على غرار

(1) الفنان الإيطالي برونو آماديو، صاحب اللوحة الشهيرة «الطفل الباكي» المعروف باسم جيوفاني براغولين، رسم العديد من اللوحات لأطفال يبكون وذاع صيت اللوحة وقصتها المأساوية عالميًا.

اللوحة الشهيرة المنتشرة في البيوت والمحلات، وعلى الأرصفة عند بائعي اللوحات الرخيصة... لم أكن يومها أعرف حكاية الطفل صاحب اللوحة، وحين عرفتها أيقنت أنّ ثمة ارتباطًا خفيًا لا يمكنني تفسيره بين اللوحة الأصلية ولوحة الطفل التي رسمتها، ووضعتها قرب جهاز التقطير كي يتشبع نسيج اللوحة بأنفاس زهر الليمون الذي ظهر في اللوحة على شكل دمعة تسقط على خد الطفل!

لاحقتني لعنة اللوحة لمدّة سنوات خمس، ابتعدت خلالها عن رسم الوجوه، سواء كانت من الذاكرة أو الواقع، والتفتُّ إلى رسم الطبيعة، لكنّ لوحاتي كانت تخلو من أشجار الليمون، وحين أرسم بيت جدتي من الذاكرة، أترك مكان الشجرة فارغًا وزهورها تطير في الفضاء!

لا أدري ما الذي أيقظني في تلك الليلة، لكنّي اعتقدت أنّ الرّائحة هي السّبب، كنت أغفو في المطبخ حين جفّ الماء في طنجرة الضغط، وحصل الانفجار الذي أدّى إلى اندلاع الحريق.

لم أعرف على وجه الدّقة ما الذي قذف بي إلى بساتين الليمون البعيدة عن بيت جدتي التي فسّرت ذلك بأنّي أملك ساقين تستطيعان أن تجتازا المسافة في دقيقة واحدة مبتعدة عن المكان قبل أن أستوعب ما حدث. حين عدت إلى البيت، كان همي الأوّل أن أبحث عن رماد اللوحة كي أحتفظ به؛ فوجئت بها سليمة تمامًا، فقد دفع بها الانفجار بعيدًا عن مكان الحريق. حين حملتها بحذر، لاحظت شيئًا غريبًا: كانت الدّموع قد مسحت من اللوحة، وكان هناك ظلّ ابتسامة متشفية على شفتي الطفل! لم أشأ أن أتخلّص من اللوحة؛ لففتها بأوراق الجرائد، وحزمتها بحبل متين، ووضعتها على ظهر خزانة الملابس. بعد عودتي إلى بيت أهلي، تناسيت أمر اللوحة، ولم أجرؤ على رسم بورتريهات لأطفال بعد ذلك، فقد كنت أخاف ابتسامتهم الخبيثة وعيونهم الخالية من

الدّمع! وحرصت على تدريب يومي في الطّريق الصّاعد إلى الجبل كي أحافظ على ليونة ساقيّ اللتين تملكان حلًا للمشكلات بأبسط طريقة!

****

أخيرًا، انفتحت كلّ النّوافذ المغلقة، واستطعت الحجز على طائرة متجهة إلى إسطنبول، في التّوقيت نفسه الذي وصلت إليّ رسالة من بدر يخبرني أنّه قرّر ترك سوريا، بعد أن نُسِفَ بيته ببرميل متفجر. كانت فكرة اللقاء الوشيك تربكني وتخيفني، فلم أعتد على تحوّل الأحلام إلى حقائق! الحلم يسعدني أكثر، فأنا أعيشه في الحدود التي تخصّني. أمّا أن نكون معًا، فالحياة تضعني أمام تجربة غريبة قد لا أحتمل حدوثها، ولا أتقن التّعامل معها.

لم نستطع الحجز بتوقيت واحد، سيصل قبلي بأيام.. لم أرتح للأمر، لأنّه يعني أن ينتظرني في المطار، وهذا ما لا أريده؛ كنت أرغب أن يكون لديّ متسعٌ من الوقت لألملم مشاعري بعيدًا عن عينيه، وأختار المكان والتوقيت المناسبين لي، لذا أغلقت صفحتي على «فيسبوك»، ولم أخبره بتاريخ وصولي.

وصلت إلى إسطنبول في صباحٍ ماطر من صباحات آب! لم أستطع النّظر إلى الأماكن بعيني سائحة، ففي داخلي تراكمت هزائم لا يمكن معها أن يخالجني أيّ شعور بالجمال وسط الكم الهائل من الخراب الدّاخلي والخسارات. لم أكن أحمل سوى حقيبة صغيرة فيها بعض الملابس والأوراق. وكلّ ما يخص حياتي تركته خلفي في جدة! هل كانت الحريّة تستحق أن أتخلّى عن كلّ ما عشته في السّنوات العشرين الماضية من عمري؟! حين تمتزج الحريّة بطبيعة مثل التي أراها في طريقي إلى الفندق لا شكّ أنّها تستحق! فهي تشبه إلى حدّ بعيد تلك البلاد التي حرمت من الرجوع إليها، وصارت عصية عليّ، حتّى في أحلامي. هنا، كلّ شيء يقول لي: أنتِ في

سوريا؛ المطر والأشجار والزّهور والنّسيم المعتق بروائح الغابات... حتّى البوسفور يمنحني الإحساس بحميمية المكان، وخروجه بطريقة ما من ذاكرتي، بل من جلدي. المذهل أنّي سمعت في الحافلة خلفي شخصين يتكلّمان العربية باللهجة السّورية لمنطقة العاصي. سهم دخل قلبي، وأصاب منه مقتلًا، حين رنّ هاتف أحدهما، فسمعت أم كلثوم تغني: «وان كنّا نهجر أوطانا.. الحبّ يدلنا أوطان!».

وأنت تدخل إسطنبول في آب، يفاجئك مطرٌ خفيف، والغابات تفوح بروائح غريبة تخدر أعصابك.. وأمام عينيك، ينفتح أفق من أشجار السّماق ذات العناقيد الخمرية، وأشجار الفلفل الأحمر، والصّنوبر، والحور والشّيح، كلّ هذا مع عشب أخضر وأزهار الرّبيع الصّفراء والزّهرية والخمرية تنتشر في السّفوح. لا تستغرب أن ترى أزهار الطّيون أيضًا في طريقك، لتكتمل اللوحة المدهشة. ربيع وخريف وصيف... ثلاثة فصول تجتمع معًا بتنوع غرائبي من الزّهور والأشجار والرّوائح.

همستَ لي: «كم أنتِ جميلة، ووجهك صافٍ مرتاح! يبدو مثل شجرة الأرجوان، انظري إليها... يا للروعة!». قلت: «بل هو الحبّ الذي يجمّل ملامحنا، ويمسح بيده تجاعيد الحزن والزّمن!».

الأسواق أيضًا تحمل تلك الرّائحة المميزة لسوق «الحميدية» في دمشق، وسوق «المْدِينة» في حلب. اشتريت حاجتي من الملابس، وابتعدت عن الألوان والأزياء التي غُصبت على ارتدائها في السّنوات السّابقة من عمري. كان طيف «لينا» يلاحقني في كلّ واجهة تحتوي على ألوانها المفضلة، ملابسها الدّاخلية، أثوابها القصيرة الضّيقة، عطورها. رائحة العطر الخاص بها فاحت فجأة من الأثواب التي قلّبتها يداي لأرى مقاسها... اللون الأحمر... اختلطت رائحة العطر برائحة الدم.

شعرت بدوار خفيف. أسندتني بذراعيك، وضممتني بلطف.

جلسنا في أحد المقاهي، وطلبت لي قهوة.. أشعلت سيجارة، وناولتني إياها. قلت لي: «احكي لي ما بكِ... أودّ أن أسمعك بقلبي وحواسي كلّها». قلت: «أتذكر حين أخبرتك أنّي في المستشفى؟ أخبرتك أنّها نزلة برد حادة، وأنّ صوتي اختفى، ولا أستطيع الاتّصال بك.

حين عدت إلى البيت، كان جنون زوجي قد وصل حدًا تدميريًا؛ فُوجئت بأنّه خلط الألوان كلّها في وعاء واحد، ومزّق كلّ لوحاتي. وقال لي بشماتة: (أريني كيف سترسمين؟).

على الرغم من مضي حوالي عشرين عامًا على ارتباطنا، لم أستطع أن أفهم سبب كراهيته لنجاحي. بعد كلّ معرض أو لوحة أبيعها، أحضّر نفسي لزوبعة تنتهي بتحطيم كلّ شيء، والتّهديد بحبسي في البيت، ومنعي من السّفر، ومن رؤية أهلي، ومن الرسم، ومن قائمة طويلة ترافقها دائمًا شتائم مقذعة تعوّدت على سماعها من دون أن تؤثر فيّ.. حين يبدأ بالصراخ، تنسحب روحي بهدوء، وأغلق أذنيّ تمامًا، فلا أسمع سوى وشيش وضجيج، ولا أستوعب ما يخلّفه حولي من دمار، بعد أن يخرج صافقًا الباب خلفه!

في البداية، كنت أتغاضى عن كلّ تصرفاته، وأجد له الأعذار، وأقول في نفسي إنّه ما زال يحبّ لينا، وإنّ الذنب ذنبي، لأنّي لم أستطع أن أعوضه عن غيابها، على الرغم من محاولاته الحثيثة لجعلي نسخة منها! لم أعرف حين تزوجته أنّي دخلت المصيدة بإرادتي! لم تمضِ سوى أيام قليلة، حتّى طلب مني أن أرتدي أحد أثواب نومها.. ثمّ اكتشفت أنّ ملابسي الدّاخلية كلّها قد اختفت من البيت، واختفى معها كلّ ما أحضرته معي من أدوات الزينة والعطور.. والأحذية.. والحقائب.. ثمّ ملابس الخروج.. وبقيت عباءة واحدة معلّقة على الحائط، مع وشاح أضعه مرغمة عندما نضطر للخروج إلى السّوق! حين واجهته

بالأمر، صفعني بقسوة، وقال: تتهمينني بسرقة أغراضك، يا عاهرة؟ أنا من يجب أن يسألك: من تجرّأ على دخول بيتي في غيابي؟ وعند أيّ عشيق تركتِ ملابسك؟

لم أجرؤ بعد ذلك اليوم على قول كلمة واحدة.. كنت أنتظر الإجازة لأعود إلى سوريا، وأخبر أمّي بما حدث.. لكنّ المفاجأة كانت صاعقة؛ اختصرت أمّي الحديث بقولها: «يكفينا العار الذي ألحقته أختك بنا، ماذا سنقول للناس؟ زواجك أبدي، أنت تعلمين ذلك منذ لحظة ارتباطك به، ولم نرغمك على الزواج.. أمّا الطلاق، فلدينا طرقٌ كثيرة تمنعك من اقترافه.. لا نريد كوارث جديدة في بيتنا».

كنت القنبلة التي حرص الجميع على نزع فتيلها كي يحافظوا على سلامهم وأمانهم.. وهذا ما زاده شراسة في معاملتي. حتّى اضطررت أخيرًا لاحتمال كلّ ما يفعله من دون ردّة فعل مهما كانت صغيرة. حين يرضى، ونادرًا ما يفعل، يشتري لي الألوان والقماش والورق وكلّ ما أحتاج إليه، ويساعدني في نقل اللوحات إلى المعارض، ويقف بجانبي، ويتسلم ثمن المبيعات كلّها.. ثمّ تهبّ رياح جنونه، فيحطم كلّ شيء!

وبين جنونه ورضاه، امّحت ملامح الحقول من لوحاتي، وصرت أرسم نساء سجينات خلف قضبان، وطيورًا محطمة الأجنحة، وبمامًا طرحه رصاص قنّاص! واكتفيت بألوان ثلاثة: الأزرق الغامق، والرمادي، والزيتي. لكنّي في كلّ مرّة، أرى الألوان تتخضّب بالأحمر، بعد مرور ستة أيام على رسم اللوحة!

أعقبت ذلك هدنة بيننا، التزم فيها الصّمت الخبيث، وغرقت في عزلتي العميقة.. وهكذا مضت الأيام بيننا».

قلتَ لي:

«حبيبتي.. الحمد لله أنّها مضت. مع هذا، تبقى الأمور نسبية».

****

النّسبية في هذه اللحظات المريرة هي كلّ ما أحتاج إليه لأستطيع تقبل الأمر، والتكيّف مع الوضع الذي وجدت نفسي داخله من غير أن تمتد يدٌ لمساعدتي.. أدرك أنّ النّاس هنا يحملون صخورًا على صدورهم، ولديهم من المآسي ما يكفيهم، بل ويوزعون على الكرة الأرضية ما يكفيها.. فماذا باستطاعتهم أن يفعلوا لي؟ الجندرمة لا شأن لهم بما يحدث، فهم مشغولون في حلّ الإشكال بينهم وبين أحرار الشّام وصقور الشّام الذين دبّت فيهم الحمية نتيجة معاملة شرطي لامرأة سورية معاملة سيئة في المعبر، فحصل الاشتباك وتبادل إطلاق النّار وإغلاق المعبر! يمكن أن أرى مشكلتي بعين النّسبية الآن وأنا أستمع إلى قصة أم بدر...

أدركت النّسبية جيدًا. ما يجتاحني الآن من أحاسيس وذكريات وأنا أغوص في لجة البرد والوحل والانتظار يعيد إليّ بعض التّوازن. حجارة بيت أهلي القديم، السُّلَّم المتكئ على سطح مليء بالطحالب وقد اكتسحته زهور الربيع الصّفراء، أعواد الدّالية العجوز والعريشة المتكسرة، مساحة الحنين تراكمت فيها أوراق الشّجر لسنوات طويلة. وجوهٌ وروائحُ وأرواح.. ثمّة حياة لم تغادر ذلك المكان! حياة لا ينقصها سوى وجودٍ محسوس لجسدينا كي نكون على يقين أنّ الزمن لم يتحرّك بنا، وأنّنا ما زلنا واقفين على عتبة الباب ننتظر ظهور وجوه من رحلوا...

ظهورك في حياتي من جديد جعلني أعتقد أنّ ثمّة فاجعة تتكرّر أمامي! هل يعقل أن نعيش قصتنا مرّة أخرى في الواقع؟

قلت لك: «بحسب نظرية النّسبية، عمرنا يختزل بساعات معدودة». قلت: «نعم، تلك السّاعات التي مرّت كريح عاصفة اقتلعت قلوبنا ورحلت.. تعلمين؟ كثيرًا ما كنتُ أراكِ في أحلامي كما يرى النّائم حلمًا أخرس، يشلُّ حركته ويكتم أنفاسه، فيفقد مقدرته على المقاومة. عيناك اللتان أضيئتا بعسل

خفيف كأنّه زيتٌ انسكب على نار الغروب توقظ الشّهوة الدّفينة في نفسي للقاء حميم. في فترة ما، صرت أحسّ بغرابة مشاعري، في عينيك حضور مرعب لأحاسيس افتقدتها مع مرور الزمن والروتين في حياتي الزوجية.. لم أشأ أن أخبر زوجتي بعلاقتنا، كما طلبتِ مني.. كنتُ أعتقد أنّ إخفاء الأمر عنها يرتبط بالزوق، ولا علاقة له بالخوف من انفضاح أمري؛ لقد وصلت إلى يقين أنّ مشاعري تخصني وحدي، ولا مبرر لأن يراها الآخرون.

تكاد علاقتي بكِ تصبح أمرًا مقدسًا لا أريد أن يمسه أحد بسمع أو بصر!

سأخبرك أمرًا ربّما يضحكك، لكنّه أحد تلك التناقضات التي عشتها. أحيانًا، كنت أرى فيكِ طيف أمّي، وأشعر بأنّ هناك شبهًا غريبًا بينكما، خاصة حين تناديني (يا تقبرني)؛ العبارة التي كثيرًا ما همست بها أمّي في أذني وأنا محموم... كنت أشعر بحاجة لحضنك، ثمّ ما ألبس أن أشعر برغبة فيكِ في لحظات حرجة من الليل، تتشكّل أنفاسي على هيئة جسدك، أراكِ تنزلقين بجانبي، فأستدير وأحضن جسد زوجتي... لحظات ويتغيّر إيقاع الرغبة في أصابعي، تختلط التضاريس، ويطغى عبير الخزامى على حواسي، فيصبح كلّ ما حولي ممتلئًا بك، ألمس جسدك بوضوح، أقبّل عينيك، شفتيك، أقبّلك بكلّ جوارحي قبلة تتلوّن بأطيافٍ عنيفة من الماضي، ثمّ فجأة أجد نفسي ألتمس حضنك وكأنّي أبحث عن طيف أمّي!

أكثر من مرّة كدت أهمس (هيفين)، لكنّ الشّرطي المتأهب داخلي يخرس لساني، فيهمد جسدي. أحاول الاستسلام للنوم الذي لم يعد يأتي بسهولة، أستحضره بمزيد من التّركيز على أفكار تشغل ذهني، أرسم في مخيلتي صورة ليوم غد: ماذا سأفعل؟ ماذا سأكتب؟ كيف سأشرب قهوتي في الصّباح؟ أشياء صغيرة تافهة لكنّها تملأ الفراغ. يغلبني النّعاس. تتداخل الكلمات وتضطرب، فأعرف أنّي سأغرق في النّوم. لكنّ شيئًا أقوى من النّوم

يجعلني أراوح في منطقة الصّحو الكامل، كأنّ ذلك التّشوش لم يكن سوى سقطة ارتطمت روحي فيها ببلاطٍ قاسٍ جعلني أصحو تمامًا.

هذه الحالة سيطرت عليّ أسابيع طويلة، قبل أن أتخذ قراري بالسّفر.. آخر ليلة أذكرها جيدًا...

نهضت ببطء، جلست وراء مكتبي وكأنّ جبلًا من غبار سكن رئتي.. أشعلت سيجارة، نفخت أوّل أنفاسها في جوّ الغرفة الكئيب، تسلّل البرد إلى عظامي.. المدفأة خامدة؛ لعنت في سرّي كلّ ما يحيط بي من أزمات. أتيت بغطاء لففته حول جسدي، وفتحت الكمبيوتر ثانية.. لا شيء مثير، شعرت بالحياد تجاه كلّ شيء.. لا طعم للأشياء من حولي، حتّى جلدي بقي باردًا كأنّه جلد جثة لا حراك فيها. في صغري، كنت أشعر بلذّةٍ غريبة حين تقف الشّعيرات النّاعمة في ذراعيّ بفعل القشعريرة التي تصيبني من أيّ شيءٍ عابر، حتّى لو لمست قطة بطريق الخطأ.. أشدّ تلك الحالات حضورًا في ذاكرتي حين لمست أصابعي في العتمة نهد ابنة الجيران التي اختبأت أسفل درج بيتنا القديم، بعد أن شدّتني إليها بشكلٍ مفاجئ. شكرت العتمة في سرّي، لأنّها سترت ارتباكي، وأضاعت عليها فرصة التقوّل عليّ بين أترابها، ووصفي بالجبان».

ضحكتُ وقاطعتك قائلة: «تلك التي اخترتها لتلعب دور العروس معك، وهي صدّقت أنّك عريسها، وأنا أغمي عليّ يومها».

ضحكتَ قائلًا: «يا لذاكرتك، تنبش أشياء عجيبة لم أعد أذكرها.. صدقيني، إنّها الآن مرّت بذاكرتي مرورًا عابرًا بحكم الحديث فقط، لأنّ شعوري ذاك كان مرتبطًا بأشياء كثيرة، مثلاً: مرور الطباشير على سبورة رطبة كان يصمُّ أذنيّ أيام الدّراسة، وصوت حذاء معلم الرّياضيات الجديد وهو يصدر تلك الزّقزقة التي تشبه صوت باب حديدي صدئ و...

يومها، فتحت ملف السيمفونيات، وضغطت على اسم بيتهوفن، السيمفونية الخامسة (هكذا طرق القدر بابي). لم تفلح موسيقا بيتهوفن في تحريك أيّ حاسة من حواسي النّائمة!

فتحت ملفًا جديدًا، وكتبت: (هذا النّظام زرع فينا الخوف حتّى غدا ركامًا من غبار، هزّته العاصفة فأغلق عين الشّمس، لم يعد ينفع معه الصّبر، لم يعد ينفع الحوار، صمتٌ سكننا خمسين عامًا، صمتٌ ولدنا فيه وعشنا، وها نحن في خريف العمر نحاول الخروج منه، فيخنقنا غباره المتراكم في روحنا، من أين أتى كلّ هذا العنف؟! على الضّفة المقابلة، أجد هناك سؤالًا أكثر مرارة من طاقتي على الاحتمال: كيف يستطيعون القتل بكلّ هذا البرود والوحشية؟ كلّ ذلك بلا جدوى!).

اندسست في الفراش، هاجمني البرد، اصطكّت عظامي، عرقٌ بارد فوق جبيني، سمعت أنينًا يخرج من حلقي، أهي الحمى من جديد؟ عقلي يفرُّ مني ولا شيء سوى هلوسات تشكّل أشباحًا أمام عينيّ تحاول جرّي إلى العتمة، يتخشب جسدي ويغرق في الظّلام، أنهض من النّوم مفزوعًا مبللًا بالعرق، ألهث من شيء لا أعرفه.. أشرب القليل من الماء.. أتساءل: ما الذي يحدث لي؟ لماذا تعاقبيني بهذا الحضور الطّاغي؟ ما الحكمة من وجودكِ في أحلامي وفراشي بهذا الشّكل المربك؟

لا أعرف بالضبط متى غرقت في النّوم.. غرقٌ لذيذ هادئ، أحسست بعده أنّي أعوم في النّهر، وأطفو فوق الماء، أسبح إلى الشّاطئ، وأستلقي مستمتعًا بالشّمس الدّافئة.

كان منامًا غريبًا، شاهدته مرارًا على مدى سنوات طويلة، بعد أن كنت أعاني من الكوابيس، وأحسّ بيدين تريدان خنقي، فأهرب وأدخل مغارة معتمة، يُسدّ بابها فجأة بحجر ضخم، أصرخ وما من أحد يسمع صوتي،

أصرخ من جديد حتّى أفقد صوتي، هزّتني موجة نشيجٍ عنيفة، يداي أضعف من أن تستطيعا زحزحة الحجر من مكانه، لكنّي لمحت نورًا خافتًا يتسرّب من ثقبٍ صغير حاملًا معه بعض الهواء، حاولت أن أوسّع الثّقب لأخرج منه، فظهرتِ فجأة، مددت يديك من الكوّة، لكنّ الكوة انغلقت، صرخت: (أطلقيني)، سمعت ضحكتك تجلجل، ثمّ تتلاشى مبتعدة.. قبل هذا سمعتك تهمسين: (ألم يحن الوقت بعد لتقولَ لي بمَ همستَ للجرّة؟). لا أعرف عن أيّ جرّة تتحدّثين، مع أنّي حاولت جاهدًا أن أعود بذاكرتي إلى طفولتنا، شبابنا، سنوات حبّنا، لم يسبق لي أن تحدّثت إلى جرّة! ما الذي كنتِ تقصدينه يا ترى؟».

قلتُ: «ذاكرتك من ماء... وذاكرتي متاهة». نهضت من مكانك وجلست بجانبي، خطفتَ السيجارة من بين أصابعي، أخذت نفسًا، وقلت: «ضعيها في فمك.. بمَ تشعرين؟ هذه هي المتاهة التي أريد أن أدخلها ولا أخرج منها أبدًا.. متاهة الحبّ». قلتُ بارتباك: «يقول سرفانتس في متاهة الحبّ: **ألا يمكن أن يحدث دون أن تعترينا الدّهشة لذلك، أن تبحث امرأةٌ لنفسها عن رجل، مثلما يبحث رجلٌ عن امرأة؟**». سألتني: «أهي الحاجة؟». قلت: «لم أربط يومًا تلك الفكرة بالحاجة، بل سلّمت بأنّها قدر محتوم تعاملت معه باستسلام.. لا أنكر أنّي صادفت رجالًا كثيرين عرضوا عليّ علاقات عابرة، وبعضهم أبدى استعدادًا للزواج، في حال انفصلت عن زوجي.. لكنّ بوصلتي لم تخطئ قبلتها يومًا؛ أمران لم أكن أتخلّى عنهما، على الرغم من تناقضهما الشّديد: حبي لك، وإخلاصي لحياتي الزّوجية.

كنت أمتلك اليقين بأنّي سأصل معك إلى اندماج كلي يخرجني من حالة الموات التي سيطرت عليّ زمنًا طويلًا.. لا أعرف ماذا نجد في تلك الحماقات حتّى نصرّ على وجودها بيننا في أيّ حوار. أنت تعتقد أنّي على

النّقيض منك: أعيش حالة حبّ، وأنت تعيش حالة غضب! ما يثيرني في الأمر أنّك تهمّش إحساسي بالمسؤولية والتّفاعل مع ما يجري بإصرارك على تضادّ حالتي الحبّ والغضب، وفصلك التّام بينهما! كلّ ذلك التّشنج لأنّي تجاوزت المألوف بيننا بإلحاحي على سماع صوتك، لم أعرف يومًا لغة الأرقام التي حدّثتني بها حين قلت: (إنّ ما أشعر به تجاهك لا يتجاوز عشرين بالمئة مما تشعرين به!). تلك النّسب الغبية في الرّياضيات لم أكن أجهلها فقط، بل أكره وجودها أيضًا. لم يكن هينًا أن أقتنع أنّك استطعت وبالقسوة نفسها أن تهجرني للمرّة الثّانية. لم يكن سهلًا أن أسمعك تقول: (لا أريد أن تصبح علاقتي بك اعتيادًا، لا أريد أن أشعر بأنّ من واجبي الاتّصال بكِ، أريد أن أتصل بدافعٍ ذاتي). كانت كلماتك تحمل شكل صفعة أدمت فمي، هل كنتُ أحاصرك بمائي حدّ الاختناق؟».

لم تستطع أن تردّ، تنهّدت وهمست: «سامحيني، لا أجد كلمات مناسبة». ثمّ ابتسمت محاولًا تغيير الحديث، تأبطت ذراعي وخرجنا من المقهى.. كنّا بحاجة إلى فضاء أخضر بعيدًا عن شارع الاستقلال.. وصلنا إلى السّاحة.. وقفنا نتأمل محلات الورد بدهشة، اقتربنا من إناء مليء بالأقحوان، أشرتُ إلى زهرة كبيرة وقلبي يخفق، كان اليعسوب العسلي اللون يرتاح في قلب الأقحوانة الأصفر، يشبه عنتر.. يا الله!

مددت يدك إليها.. هتفتُ: «لا، اتركه أرجوك، أريد أن أتأمله فقط». ذكّرتني كم أحضرت لي من اليعاسيب الجميلة.. لم تعرف أنّي احتفظت بها حتّى آخر لحظة في غربتي داخل حقيبة مقفلة. كنت أخشى أن يسرق زوجي دفتر مذكراتي المليء بالورد واليعاسيب... قبل سفري، فتحته ببطء كي لا تسقط من بين أوراقه أفواج الورد اليابس.. قلّبت صفحاته بحذر.. ووجدتها هناك: قرنفلتك الخمرية، وقد كتبتُ تحتها

تاريخ انضمامها إلى حقل ذاكرتي الورقي! جئتني بها ليلًا، نقرت النّافذة، ورميتها لي.. لم أعرف أين أخفيها، خبّأتها في جيب سترتي الشّتوية، ثمّ في حقيبتي، وضعتها خلف خزانة الملابس.. كنت أعرف أنّك قطفتها في غفلة من أمّك، رأيتها وهي ترعاها لتكبر، وأعرف كم انتظرت حتّى ظهر أوّل برعم فيها! وكنت حاضرة عندما أرتها لأمّي، وقالت لها: «لا يوجد أروع منها، كم أحبّ القرنفل! أم ديب أخذت مقابلها جرة زيت، لم تتخلّ عنها بسهولة لأنّها فريدة من نوعها، لم أجد في بيوت البلدة كلّها مثلها في الحجم والرّائحة، تعلمين زهور القرنفل البلدية حجمها صغير، هذه بحجم وردة جورية، ورائحتها تدوّخ!». شعرت بأنّي ارتكبت إثمًا بقبولي إياها، وأنّ جريمتنا المشتركة كانت أكبر بكثير مما تخيّلت، حين رأيت حزن أمّك عليها، وعرفت أنّها ضربتك لأوّل مرّة في حياتها.. لكنّها لم تعلم أبدًا أنّك أهديتني إياها.

لم يتبقَ من اليعاسيب سوى آثارها على الورق: بقايا من رأسها، وخطوط باهتة من جسدها، ولون أصفر تركته أزهار الكلونيا قربها! أشمّ الورق بعمق.. فيما مضى، امتلكت اليقين بأنّ اليعاسيب ستترك هي الأخرى رائحة مميزة على الورق، لكنّي أصبت بالخيبة.. فيما بعد، اضطررت أن أمنحها رائحة الورد اليابس كي لا يصدمني غرقها الكامل بالفناء.

حين بدأت الرّسم بالألوان الزّيتية، كنت أعتقد أنّي سأحتفظ في لوحاتي برائحة الحقول.. لكنّ صدمتي كانت كبيرة، حين رحل الرّبيع ولم يترك في لوحاتي رائحته! في الشّتاء، تخليت عن الألوان، ورسمت لوحاتي بأقلام الفحم، لكنّها لم تحمل لي رائحة مدفأة الحطب أو مدافئ المازوت، تمنيت أن أحصل على رائحة قميم الحمام العام في بلدتي الصغيرة المختلطة بالغيوم الرّمادية ولسعة البرد الجميلة.. تراكمت الخيبات فصلًا بعد آخر. وكرهت

الألوان كلّها، المائية والزيتية، والباستيل، والفحم.. واستعرت أصابع شجرة البلوط، واكتفيت بالرّسم بأقلام الرّصاص!

****

ركبنا الترام وقصدنا «آيا صوفيا».. في الحديقة المحيطة بالمسجد، شربنا بعض العصير والقهوة.. كانت أصابعنا متشابكة، وأعيننا تبحث في تفاصيل الحجارة والشّجر عن تاريخ العشق الذي أتى بنا إلى هذه البلاد.. سألت نفسي: «هل أنا في حلم؟». أغمضت عينيّ كي لا تصدمني الحقيقة.. كنت أخشى إن فتحتهما أن أرى نفسي بين جدران غرفتي في «جدة»، وأن أسمع صوت الباب يغلق بعنف، وزوجي يصرخ «يا عاهرة».. بل سمعت صوته وصار جسدي يرتجف.. لم أجرؤ على فتح عينيّ إلا بعد أن شعرت بيدك تحتضن يدي وتضغطها بقوة، وصوتك يهمس في أذني: «حبيبتي، أرجوكِ حاولي أن تتخلصي منه... أنا معك».

قلت: «أتعلم ماذا فعل بعد اكتشافه رقم هاتفكَ على جهازي؟ صار يلاحق منشوراتك على (فيسبوك)، وحاول السّطو على صفحتك».

غمرتني بابتسامتك: «أعرف. وقد أرسل إليّ رسائل هدّدني فيها بقتلك إن لم أبتعد عن طريقك». همستُ بذهول: «يقتلني!».. فاحت رائحة الدّم قرب أنفي، ورأيت لينا ممددة على الرّصيف وقد غطّتها أمّي بشرشفٍ وردي بانتظار قدوم الطّبيب الشّرعي، ما لبث لونه أن أصبح أحمر قانيًا، رأيت جانب وجهها الشّمعي، حين أزاح الهواءُ الشرشفَ قليلًا، كانت تحدّق في وجهي.. سمعتها تهمس: «احذري».. لم أعرف ممَ كانت تحذّرني بالضبط. تذكّرت تحذيرها ذاك حين رأيت تلك النّظرة الحاقدة في عيني زوجي ذلك المساء بعد معرضي في السّفارة الفرنسية، وبعد ما كتبته الصّحف عن المعرض

وعني، والصّور التي التقطت لي.. مزّق الجرائد وما تبقى من اللوحات، وخلط الألوان بعضها ببعض، وخرج من البيت. عاد في ساعة متأخرة من سهرته مع أصدقائه الأجانب وهو سكران. أغلقت باب غرفتي من الدّاخل، وسحبت السّرير، وجلست أرتجف في العتمة.. حين ملّ من الشّتائم، خبط الباب بقبضته وانسحب إلى غرفة النّوم. حدّقت في الألوان التي امتلأ بها الوعاء، لم أشعر بيدي التي أمسكت بالفرشاة... كان هناك شيطان يمنحني من القوة والهمة ما جعلني أعمل ساعات طويلة، أجمع حطام الزّجاج وما تبقى من الزّيوت العطرية، وأرسم حقلًا من الخزامى والأقحوان والحنّون، أرسم أفقًا أزرق، أرسم زهرة غريبة. ما أعيه جيدًا أنّي كنت أرسمني كما أتمنّى أن أكون. أرسم ماضيًا ومستقبلًا...

نمت بعد أن أعيتني السّعادة بإنجازي، نمت على البلاط، وحين استيقظت لم يكن جسدي محطّمًا، لم أشعر به أبدًا. كان السّكون يخيّم على المنزل، عدا نغمة خافتة تصدر من غرفة ابنتي. شممت بعمق رائحة غريبة، وحين حدّقت بالجدران التي كانت عارية أذهلني المنظر. كنت وسط حقول شاسعة من الزّهور، تتوسطها وردة غريبة تنفث رائحة أغرب! لم تكن رائحة الخزامى، ولا الياسمين ولا النّرجس ولا عبّاد الشّمس، لم تكن رائحة فلّ ولا جلنار ولا قرنفل. كانت مزيجًا من كلّ الرّوائح العطرية الموجودة في غرفتي مجتمعة على حائط واحد تحت النّافذة. كانت الوردة الغريبة المنظر تحاول أن تمدّ رأسها من الشبّاك متحدية الغبار! ضحكت بقوة: «لن يستطيع تمزيق لوحتي هذه المرّة، لن يستطيع منع وردتي من تسلّق النّافذة والهرب بعيدًا».

ضحكت الوردة، وقالت: «أنسيتِ أنّكِ تملكين ساقين طويلتين تصلحان للفرار؟».

ابتسمت خفية عنها، أدرت رأسي عن النّافذة خوفًا من خضوعي لغواية الفكرة. منذ متى لم أستخدمهما في الفرار! تأملت ساقيّ النحيلتين، لمست عضلاتهما الرّخوة. تنهدت بقوة: «يا إلهي، لقد سحب الحياة من جسدي، وخلّفني حطامًا!».

قلتَ لي: «لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام.. لستِ حطامًا، أنتِ أجمل مما كنتِ أيام الشباب. أنت جميلة بما يكفي لأحبّك أكثر من أيّ وقت مضى».

****

اخترنا مكانًا منعزلًا، لكنّه قريب من تجمعات السّوريين قرب المعبر، جلسنا فوق الحقائب لمدة لا تتجاوز السّاعة.. لم يكن الطّقس يساعد على النّوم، مع هذا غفوت لدقائق إغفاءة كافية لتمحو الرّغبة العميقة في اللجوء إلى سريرٍ دافئ.. حين فتحت عينيّ، كانت أم بدر تغط في نومٍ عميق، وبدر متكوّر في حضنها. من عجائب الدّهر النّوم في مثل هذا الطّقس، وبهذه الطّريقة الغريبة.

الصّباح كان بعيدًا، وليل الشّتاء الطّويل لا يكاد ينتهي..

نهضت وتمشيت في الشّارع الرّئيس، معظم الأطفال ناموا في أحضان أمهاتهم.. ومعظم الرّجال يتوغلون في البرية على جانبي الطّريق ينفثون همومهم مع دخان السّجائر، فتكاد البرية تضيء ببصيصٍ يشبه ضوء اليعاسيب في الليالي الصّيفية.. مع كلّ نفَس يُسحب من سيجارة، يضيء قلبٌ وسط الرّماد ويربك ذاكرتي.. اليعاسيب الجميلة التي حملت نبضات قلوبنا خلسة، وكانت مرسال الحبّ الغامض الذي لا يخطر على بال أحد! ألوانها التي تشبه قرص العسل، بيوتها التي يفوق جمالها ما تصنعه النّحلات النّشيطات... كانت أحلام!

****

في الجيل الثّاني من الحلم، حين أصبحت في الجامعة، ذهبت لزيارة جدتي في الجبل.. كانت تجمع أزهار الليمون لتقوم بتقطيرها وصناعة ماء الزهر منها. في تلك السّنة، كانت رياح الخماسين قد أحرقت معظم الموسم، فقد هبّت قبل اكتمال تفتحه. جمعتُ مع جدتي أكبر عدد ممكن من الزّهور في أكياس من القماش؛ كانت تقول لي: «القماش يحنو على الزّهر، وهذه الخاصية غير موجودة في أكياس النايلون». كنت أراقبها كيف تضع الزّهور في طنجرة الضّغط حتى منتصفها، وتسكب الماء بمقدار الزّهور. وكنت أراقب كيف تتكاثف القطرات داخل الخرطوم الموصول إلى الطّنجرة من طرف، ومن الطّرف الآخر يتصل بخرطوم نحاسي موجود داخل وعاء ماء بارد، يتصل بخرطوم آخر يصل إلى القنينة التي تتلقى القطرات. حين انتهت عملية التّقطير، ألبست جدتي قنينة ماء الزّهر ثوبًا من «الكروشيه» نسجته بنفسها. كانت فنانة في النّسج تدلّل أواني المطبخ والأرفف والأوعية بعمل أغطية ملونة، وتعلّق على الجدران قطعًا فنية تحمل بها الأواني السّاخنة! علّمتني كيف أنسج بالمخرز مذ كنت طفلة، لكنّي لم أجد الوقت الكافي لأعمل أغطية وحرامات وأثواب لأواني المطبخ مثلها. القطعة الوحيدة التي نسجتها استغرقت سنة كاملة حتّى أنهيتها، ولم أجرب أن أعرضها أمام أحد، فلم يكن لديّ ثقة بأنّها تستحق ذلك!

عندما كنت أساعدها في جمع الزّهور، قرصتني نحلة في إبهامي كانت تمتص رحيق زهرة وقعت يدي عليها من دون انتباه. هاجمتني أخرى وقرصتني من أنفي. بعد دقائق، لمحت جثتي النحلتين تحت الشّجرة، حدّقت جدتي فيهما وقالت: «ماتتا دفاعًا عن نفسيهما، وخسرت الخلية عاملتين». أدهشني ما قالته؛ كانت جدتي عرّافة الطّبيعة بلا منازع بالنّسبة لي، أخبرتني أنّ النّحلة التي تجمع العسل هي الوحيدة التي تموت إن

لسعت إنسانًا.. فكّرت قليلًا بمقدرة الإنسان العجيبة على إفناء الكائنات، الإنسان القاتل حتّى في لحظات استسلامه. حملت الجثتين إلى غرفتي، وضعتهما على الطّاولة، تأملتهما طويلًا، وخطر لي أن أحتفظ بهما، كما فعلتُ مع اليعاسيب، على الرغم من يقيني أنّ ذلك العمل سيكون فاشلًا وغير مجدٍ. مسحت أنفي وإصبعي بفص الثّوم، كما أشارت عليّ جدتي، لكنّ نصيحتها تلك سبّبت لي الضّيق. فقد أضاعت رائحة العسل العالقة بأنفي! لحظتها، خطر لي أن أرمي جثتيهما في جهاز التقطير لأحتفظ برائحتهما في قارورة! لكنّ الفكرة كانت بائسة، فاستعضت عنها بوضعهما في قارورة.. وبدل المحلول الحافظ للجثث، وضعت فوقهما زيتًا عطريًا، وتركته لعدّة أيام في الشّمس، ثمّ أضفتُ إليه لونًا عسليًا غمستُ فيه ريشتي، ورسمت النّحلتين على ورق «كانفاس».. حين جفّت اللوحة، لم يبقَ أثرٌ للرّائحة. كانت رائحة اللون من القوة بحيث طغت على كلّ شيء عداها. خطر لي أنّ رائحة النّحلة تشبه رائحة أزهار عبّاد الشّمس، وتترك الأثر الأصفر ذاته على الأصابع!

في تجربة فاشلة أخرى، بعد زمن، جمعت كثيرًا من أزهار عبّاد الشّمس الصّفراء، جفّفتها وطحنتها ونقعتها في الزّيت العطري، وحاولت الرّسم بها، لكنّي لم أحصل على اللون المطلوب.. حينها، فكّرت بقشر الجوز الأخضر الذي يتحوّل خلال دقائق إلى لون الحناء على الأصابع. لا بدّ أنّي أستطيع الحصول منه على اللون المطلوب. لم يخطر لي مباشرة أن أختصر التّجربة المعقدة بالحصول على اللون المطلوب من الحناء نفسها. لكنّها أيضًا كانت تجربة فاشلة لأنّي كنت أبحث عن الأثر الذي تتركه الرّائحة لا اللون، وكانت تجربتي الأخيرة مع زهور الزّعفران شبه ناجحة، لكنّها اضطرتني إلى غش لا بدّ منه لأتحايل على الرّائحة!

كان بين يدي المواد التي أستطيع الحصول منها على اللون المطلوب بعجنها بقليل من الماء والرّسم بها. لكن من المستحيل أن أحصل على الرّائحة المناسبة ما لم أستخدم الزّيت العطري للمادّة نفسها، بدل استخدام زيت الرّسم! فقرّرت أن أجرّب الرّسم بالماء وبماء الزّهر وماء الورد وماء الخزامى و... لكنّ المشكلة التي أربكتني أنّي لا أستطيع الحصول من هذه الأشياء سوى على درجات من اللون الأصفر البني العسلي، وأنا أريد أن أرسم حقلًا من شقائق النّعمان، ويلزمني كثير من الأعشاب الخضراء، يلزمني اللون الأحمر الذي يمكن لنبتة الختمية أن تمنحني إياه، إن حفقتها بقوة فوق الورق. لكن هذا اللون لم يصمد طويلًا، تحوّل إلى لون دم متخثر، اسودّ تدريجيًا وأصابني بالإحباط! مشكلتي لم تكن هنا فقط، بل مع زهور النّرجس والكلونيا وماء البحيرة وأوراق الأشجار، كيف يمكن أن أنقل الطبيعة برائحتها إلى لوحة! فالجوز يحتفظ برائحته، والزعفران كذلك والحناء وقشر الرّمان. لقد تشوّهت الأشياء.. وكان لا بدّ لي من اكتشاف طريقة أخرى للاحتفاظ بالرّائحة. دهنت الورق بزيت اللافندر وتركته حتّى جفّ، ثمّ رسمت الزّهرة، وانتظرت. تركتها في العتمة... أغلقت الأبواب ونمت على الأرض، لأجد نفسي وسط حقول الخزامى في أعالي الجبال. في الحلم، حلم اليقظة، كنت أرى نفسي أقطف أزهار العسل، وأمتص رحيقها، وأصنع منه لونًا مائلًا إلى البياض. كان غبار الطلع لذيذًا مغريًا بإعادة التّجربة مرارًا.. في كلّ مرّة، كنت أحصر حواسي كلّها لأحتفظ بالرّائحة حتّى أنفثها من جلدي... أخيرًا، نجحت التّجربة، فقد قال لي بدر: «ما اسم العطر الذي تضعينه؟».. إذن، هو يشمّ رائحة جلدي! طلبت منه أن يركّز جيدًا، ويخبرني هو ما الرّائحة التي يشمّها، أخبرني أنّها تشبه رائحة الأرض بعد المطر! أصبت بالخيبة..

كيف لا يستطيع تمييز رائحة زهر العسل[1] والياسمين العراتيلي يعرّش على أوردتي، وينفث عطره من نوافذ جلدي؟ الخيبات المتتالية لم تصبني باليأس من إعادة التّجربة، والإصرار على الوصول إلى هدفي منها.

****

نعم، هدفي كان واضحًا هذه المرّة، ولن أتراجع عنه ولو أُغلقت كلّ المعابر في وجهي..

اتفقنا مع مهرب كانت تقف قريبًا منه سيدة تحدثه بالتركية -لم أرتح لمنظرها، خاصة أساورها الذهبية الغليظة، وأطواق الذهب التي أحاطت عنقها، ولون شعرها المشقر بفعل صبغة رخيصة سادت موضتها في منتصف السّبعينات، وهي نوع من الأوكسجين- كانت تقف مع الرّجل قريبًا منا وتحدّثه بالتّركية، نظرت صوبنا مرارًا، ثمّ تقدمت منا وقالت بالعربية التي تحمل لهجة سكّان جبال السّاحل السّوري: «لماذا تريدون الذهاب إلى سوريا؟ ماذا يوجد هناك غير الحرب والدّمار؟ ثمّ ألا تعلمون أنّ الأتراك يريدون أن تعودوا، ولن يسمحوا لكم بدخول تركيا ثانية؟».

استغربت حديثها، لكنّي عرفت مباشرة أنّها تعادي الحكومة التّركية، لذا قصدت تخويفنا.. قلت لها: «نحن بطبيعة الحال سندخل إلى سوريا، ولن نعود ثانية إلى تركيا». ابتسمت باستخفاف وقالت: «ليس أمامكم سوى الدّخول عن طريق التّهريب، وهو مضمون مئة بالمئة».

الهدف يستحق المغامرة، والمغامرة هذه المرّة مصحوبة برغبة عميقة في لقاء أبدي معك!

---

(1) الياسمين العراتيلي كما يسميه أهل دمشق هو نفسه «زهر العسل» كما يسميه سكان الشمال السوري، ويطلق عليه في بعض المدن «صريمة الجدي»، مغليه يفيد في نزلات البرد، ومسحوقه يداوي التهاب اللوزتين.

كلّ ما كان يهمني من الحياة أن نبقى معًا.

لم تكن فكرة الهجرة إلى أوربا مريحة بالنّسبة لي، فلم أكن أرغب بمغادرة إسطنبول إلى بلد آخر، لكنّ الظّروف كانت أسوأ مما أتصوّر، ويبدو أنّ الزّمن الذي عشناه منفصلين أحدث تغييرات كثيرة في شخصيتينا؛ لأوّل مرّة تمكنت من إقناعي بوجهة نظرك وتقبّلتها من دون جدال! ربّما لأنّ أقدارنا كانت مرسومة مسبقًا بتلك التّفاصيل المربكة.

كنت حريصة في أثناء وجودي في فندق «Pera Hotel» على أن أقضي معظم وقتي في القراءة كي أنسى تفاصيل المكان الضيّق والمشكلات المالية المقبلة، في حال لم أجد عملًا في أقرب فرصة ممكنة.

فاجأتني وأنا أقرأ في كتاب «التّربية الجمالية للإنسان» لفريدرك شيلر، قلت ضاحكًا:

- يتسع الفكر حين تضيق الأمكنة، يبدو أنّك تحاولين الخروج من غرفة الفندق الضّيقة بإطلالتها الفقيرة على الزّقاق، بالعيش في عالم شيلر الرّحب. بالمناسبة، لقد أحسنتِ الاختيار، أنا أيضًا معجب بشعر شيلر، وأتقاطع معه في جوانب كثيرة من شخصيته وتفكيره الفلسفي وحبّه للتّاريخ.
- بالنسبة لي، تتسع المخيلة، فأنا أخشى الأماكن الضّيقة.. ما لفت انتباهي في الكتاب اشتراط شيلر للذّات المؤهلة لإصدار أحكام جمالية أن تكون ذاتًا قادرة على أن تنوب عن الجنس البشري كلّه، وهي قدرة يمتلكها من يستطيع الارتفاع فوق فرديته!

ابتسمتَ بفتور وقلت:

- تقصدين أنّي لا يمكن أن أنوب عن الجنس البشري بإصدار أحكام أخلاقية لأنّي لم أتنازل يومًا عن فرديتي وإحساسي المتضخم بذاتي؟

- ما زلت تمتلك مقدرة عجيبة على تأويل كلامي على غير ما أقصد.
- حسنًا، لننهِ هذا الحديث.. ما رأيك لو ننزل إلى شارع الاستقلال لنتمشى قليلًا، وأدعوك لتناول وجبةٍ خفيفة مع فنجان قهوة؟
- جدتي كانت تقول: «المليحة لا تحتاج لمشورة».

توقعت أن نقصد مقهى «ساراي» كالمعتاد، فقد نشأت بيني وبينه ألفةٌ غريبة منذ دعوتني إليه أوّل مرّة.. وعلى الرّغم من خيبة الأمل التي أصبت بها عندما اقتربت من السّور في الطّابق الثّاني لألمس زهور الجلنار الحمراء الرّائعة وأحييها، فاكتشفت أنّها زهور صناعية.. فإنّي أدمنت الجلوس على مقربة منها، وفي كلّ مرّة أترك لها فرصة خداعي، فأشعر أنّها زهور طبيعية تمتلك رائحة أصيص كانت جدتي تحرص على مكانه في شبّاك غرفة نومها، ولا تسمح لأحد بسقايته، فقد كان لها طقسٌ خاص بها.. تسقيه من قهوتها، وتداعب أوراقه، وتهمس له يوميًا بأسرار قلبها، ولا تغلق النّافذة عندما تنام لتبقى ورائحته على مسافة واحدة من الحبّ!

همستَ ونحن نعبر الشّارع إلى الجهة الثّانية: «دلّني صديق على مقهى فيه عرّافة، وربّما عرّاف، لست متأكدًا.. ما رأيك لو نذهب إليه بعد الغداء، ربّما يقول لنا إلى أين ستمضي بنا الأيام في رحلتنا المقبلة!».

كنت تعرف أنّي أمتلك فضولًا استثنائيًا لمعرفة مستقبلي معك، لكنّك لم تربط ذلك يومًا بمدى غرابة علاقتنا وخصوصيتها.. في الحقيقة، حين وافقت على اقتراحك باندفاع، لم أكن أضع في حُسباني معرفة مصيرنا؛ كان شيءٌ ما يخزني في القلب، لم أشأ أن أخبرك به.. كما لم أشأ أن أصدّق يومًا ما تقوله العرّافات، وإن صدقت نبوءتهن.

****

باب الهوى 2015

...

وافقت أم بدر على فكرة الدّخول إلى سوريا عن طريق التّهريب، بعد أن أقنعتها المرأة المريبة الشّكل بأنّ الرّجل الذي سيرافقنا لن يتركنا حتّى يوصلنا إلى غايتنا، وسيدبر لنا وسيلة نقل إلى أيّ منطقة نريد السّفر إليها.

لم أكن أثق بالمهربين، فتجربتي السّابقة في الهجرة إلى أوروبا علّمتني كثيرًا، لكن لا أعرف ما الذي جعلني أنساق لرغبة أم بدر! أهو تعلّقي الغريب بالطفل الذي يشبهك إلى حدٍّ جعل عواطفي تتأجج نحو زمن لا يغادرني؟

****

غربًا نحو الحريّة

...

«أن نحصي خسائرنا فنجدها مادية فقط ذلك قمة الرّبح.».. قلت لي ذلك وأنت تسندني، في محاولة لتخفيف ألم ركبتي إثر الوقوف الطّويل بانتظار المهرّب الذي أخلف وعده معنا، وتركنا تائهين في شوارع أزمير نبحث عن غرفة تأوينا في الفنادق الرّخيصة من دون جدوى، محاولًا إقناعي بأن نبحث عن فندق فخم بعيدًا عن زحمة اللاجئين، لكنّي رفضت.

عثرنا أخيرًا على فندق سيئ بكلّ المقاييس، ضحكت قائلًا: «لن تشعري بالغربة، فأنتِ هنا في أوتيل فخم من أوتيلات شارع القوتلي بحلب». شعرتُ بانقباض في قلبي وأنا أدخل الغرفة التي دفعت أجرتها مئة وخمسين ليرة تركية! أوّل مرّة ننفصل منذ التقينا، أوّل مرّة سأضطر للنوم مع غرباء في غرفة مشتركة. هربت من الغرفة يدفعني الجوع والقلق وقد ازدحمت الدّموع في عينيّ.. الآن، بدأت أشعر بالغربة.. وجدتك بانتظاري على وجهك ابتسامة متعبة.. قلت بلهفة: «شغلتِ بالي، أهناك ما يضايقك؟».. قلت باختصار: «جائعة».

السّوريون الذين ينتظرون العبور إلى اليونان بحرًا انتشروا في كلّ مكان، فلم نجد صعوبة في الوصول إلى ساحة «بصمة جي»، حيث السّوق والحديقة العامة.. السّوق مكتظ بالمطاعم ومحلات الصّرافة ومحلات بيع ستر النّجاة التي كانت قبل التّغريبة السّوريّة محلات لبيع الألبسة!

التّسكع أعادني إلى أيام الجامعة، حيث كنّا نشتري شطائر السّجق والكولا من محلٍ صغير قرب الحديقة، ونمضي اليوم على مقاعدها نحكي عن أحلامنا

التي لا تنتهي. لم نجد سوى محلات الشاورما؛ غصبت نفسي على طعام لا أحبّه، وكان سعره غاليًا مما أغاظني، فقد دفعت ثلاثين ليرة ثمن شطيرتين. منيت النفس بدخول الحديقة والجلوس، كما في الماضي، على مقعدٍ خشبي لأعيد الزمن إلى الوراء، لكنّ رجال الأمن منعونا من إدخال حقائبنا.

جلسنا على طرف السّور الخارجي وتناولنا طعامنا.. كنت أظنّ أنّ تلك السّاعات أسوأ ما في الرّحلة على الإطلاق.. لكنّ وجودك بجانبي هوّن عليّ الإحساس بثقل الزّمن وغربة المكان.

اتّصل المهرّب بنا في السّاعة الواحدة والنّصف، وأخبرنا أن نشتري ستر النّجاة لأنّه لا يملك وقتًا لذلك، فهو ذاهب لشراء القارب المطاطي «البلم»! وسيكون عندنا بعد ساعة ونصف.

قلت لي بلهجة مازحة: «هذه المرّة ستدفعين مبلغًا كبيرًا ثمن السّترة لأنّ فيها إنقاذ روحك، لا مزاح مع الموت». اشترينا ستر النّجاة الغالية، حسب نصيحة شابٍ سوري يعمل في أحد المحلات أقنعنا بأنّ داخلها نسبة من الفلين تساعد على العوم!

عدنا إلى السّاحة واتّصلنا بالمهرّب، لكنّه اعتذر عن المجيء، وأعطانا الموقع على الجي بي إس، وطلب منا أن نستقلّ سيارة أجرة ونذهب إلى هناك!

تدبرنا سيارة أجرة رفض سائقها أن يُشغّل العدّاد حين علم وجهتنا، دفعنا مئة وخمسين ليرة تركية قبل أن نتحرّك!

أمسكت يدك، شعرت بالخوف يتسرّب مع الهواء من النّافذة، لمحت وجه زوجي فجأة يطلّ من بين أشجار الزّيتون، بعد أن اجتاز السّائق الأوتوستراد إلى طريق ترابي في بضع دقائق.. كانت هناك سيارات مركونة بين الأشجار، أوقفنا رجالٌ مسلحون قطعوا علينا الطّريق بسياراتهم. أمرونا بالنّزول، وسألونا:

من أين؟ وإلى أين؟ أخبرناهم أنّنا من طرف المهرّب «أمير،221،224»؛ وكانت تلك كلمة السّر ليسمحوا لنا بالمرور.

أركبونا في سيارة طلي زجاجها باللون الأسود من الدّاخل. وسط العتمة، انتفض قلبي، لمستَ يدي برفق، وهمست: «لا تخافي، لن يحدث لنا أسوأ مما حدث في الماضي، المهم أنّنا معًا». أسندت رأسي إلى كتفك وأغمضت عينيّ، ليس لأغرق في العتمة أكثر، بل لأراك بوضوح.

بعد أقلّ من ساعة، توقفت السّيارة، سمعنا صوت بوقٍ حاد فُتح على أثره بابٌ حديدي ضخم، دخلت السّيارة وأغلق الباب.. «إلى أيّ مجهول جئنا؟» همست وأنا أتشبث بك لا أريد النّزول!

وجدنا أنفسنا داخل مكان يشبه الإسطبل، خرجنا من بابه إلى منشرة خشب، كلّ ما فيها بقايا نشارة وأقذار. كان هناك خمسة عشر شخصًا وصلوا قبلنا، ثمّ جاءت دفعات أخرى، حتّى أصبح العدد خمسة وأربعين شخصًا، بينهم أحد عشر طفلًا تتراوح أعمارهم بين الخامسة والخامسة عشرة، وأربعة أطفال أعمارهم أقلّ من سنتين!

منعونا من الخروج، ولم ننتبه مباشرة أنّ السّبب وجود المنشرة داخل مُجمّع سكني، ولم يكن مسموحًا لنا أن نتحرّك، حرّاسنا في الفسحة يصرخون بنا لنخفض أصواتنا دون جدوى، مما اضطر أحدهم إلى تشغيل ماكينات نشر الأخشاب لتطغى أصواتها على أصوات النّاس.

السّاعة تجاوزت العاشرة، والنّاس هيّجهم الجوع والعطش والحصار، ولم يبقَ معنا دخان.. صرخ بعض الشّباب ممن يتقنون التّركية بالحرس وهددوهم، اكتفى الحرس بالنّظر إلينا باستخفاف وسخرية. عندها، فصل شخصٌ نحيل رث الثياب من مكانه قاطع الكهرباء، فتوقفت المحرّكات عن العمل، وعلت أصوات البشر المحاصرين بالجوع والعطش.. لا أدري ما

الذي جعل قلبي يرتجف وأنا أراه يجلس قريبًا مني وبين شفتيه عقب سيجارة احترقت بأكملها.. يداه ترتعشان ونظراته زائغة وقد غطّت وجهه لحيةٌ أكلت ملامحه كلّها. أين رأيت هاتين العينين؟ انتفض قلبي وهو يحدّق فيّ كأنّه يعرفني!

تلاشت تساؤلاتي حين دخل الحرّاس وقد جلبوا لنا الماء والشّطائر، ومعهم جاء المهرّب أمير.. أومأ للرّجل الغريب وانتحى به جانبًا، تفاهما بشأن ما ثمّ خرج مع الحرّاس وقفلوا باب المنشرة، ووجدنا أنفسنا في سجن لا نعرف متى سنخرج منه.

الرّجل النّحيل الغريب الهيئة أعلن أنّه مسؤول عنا في غياب المهرّب، وأنّه غير سعيد بهذه المهمة، فهو يراها مهينة له.. كان يخطب فينا بفصاحة وطلاقة شاب اعتاد أن يقف على المنابر! ذكّرني بشخص يلاحقني طيفه منذ كنت في ساحة بصمة جي في أزمير.. شعرت لثوانٍ أنّ الأمر ليس مصادفة، بل هو حدسي من جديد ينبئني بكارثة.. لكن من يكون هذا الشّخص؟ وكيف يصلني بالماضي بهذه القوة؟ الصّوت.. صوته لا يمكن أن تخطئ أذني نبرته أبدًا، أيعقل أن يكون هو؟ هذا مختلف تمامًا.. لكنّها عشرون عامًا مرّت أو أكثر، يمكنها أن تغيّر ملامح شخص حتّى يبدو غريبًا أمام نفسه، فكيف بالآخرين؟!

اتصل المسؤول عنا بالمهرّب، ولم يرد عليه أحد! توقعنا أنّهم سرقوا أموالنا وتركونا هنا، وانصبّ غضب النّاس على الرّجل، واتّهموه بأنّه شريكٌ للمهرّبين.

في السّاعة الواحدة والنّصف ليلًا، جاء المهرّبون ومعهم بيك آب كيا 400، مغطّى بشادر، وقالوا لنا إنّهم لا يستطيعون أن يأتوا بحافلة كي لا يلفتوا أنظار السّكان...

كالأغنام المساقة للذّبح دفعونا داخل البيك آب، ومنعونا من حمل حقائبنا.. بعد أن اكتظت المساحة الضّيقة بأجسادنا، رموا فوقنا الحقائب وأغلقوا الباب!

قاد السّائق البيك آب في طريقٍ ترابي، ثمّ خرج إلى أوتوستراد سار فيه حوالي ثمانين كيلومترًا، بعدها دخل أراضي مزروعة بالزيتون.. توقف البيك آب، فتح المهرّبون الباب وأزالوا الشّادر، واستطعنا أخيرًا التقاط أنفاسنا.

الإحساس بالارتياح لم يدم سوى دقائق، كان علينا بعدها أن نطيع الأوامر، ونسير باتجاه الشّاطئ.. كانت المسافة طويلة، لكنّ أحدًا لم يستطع الاعتراض، حملنا حقائبنا وسرنا فوق الصّخور التي كانت سببًا في تعثر كثيرين ووقوعهم مرارًا..

ذلك الرّجل ثانية، اصطدمت به وأنا أخطو إلى البلم، حمل عني الحقيبة، ومدّ يده ليسندني قبل أن ينتبه إلى نظرات بدر المستنكرة.. شيءٌ ما داخلي كان يرتجف! جلست على الحافة، ووضعت الحقيبة بين قدمي، وأنا أراقب حركاته وهو يتحدث مع المهربين، ويتلقّى تعليماتهم حول قيادة البلم. من يقود القارب لا يدفع أجرة للمهربين، هذا ما عرفته قبل أن يبحر القارب الذي انطفأ محركه فجأة قبل أن يتسلمه «حليم».. اتصل هاتفيًا بأحدهم وطلب المساعدة. لم تمضِ دقائق حتّى رأينا سيارة بيك آب تعتليها أضواء ضخمة تنزل بسرعة هائلة من الجبل أثارت الرّعب بين اللاجئين الذين ظنّ معظمهم أنّ الشّرطة التّركية آتية لاعتقالهم، لكنّ المُهرّبين لم يتحرّكوا وصاحوا: «هذا المعلّم»!

المعلّم شغّل المحرّك، لكنّ الخوف الذي سيطر على النّاس منع معظمهم من الصّعود إلى البلم وسط بكاء الأطفال، وبدأ البعض يصرخ يريد العودة.. كانت السّاعة الثّالثة والنصف من يوم السبت (13/ 9/ 2014).. سحب

المهرّبون الهراوات، وانهالت الشّتائم علينا، وهيّأ البعض أسلحتهم، ودفعوا الناس لركوب البلم بالقوة.. كأنّنا ذاهبون إلى الموت!

رأينا ضوءًا من البحر انطفأ مباشرة، فأمر «المعلّم» «حليم» بالانطلاق...

بعد دقائق من مغادرتنا الشّاطئ، لحق بنا خفر السّواحل. صارت البارجة وراءنا، الموج الذي أثارته لضخامتها هزّ البلم، وأفقد النّاس توازنهم. أوقف «حليم» المحرّك وابتعد عنه، وتعلّقت عيون النّاس وقلوبهم بجدار البارجة التي كادت أن تسحق البلم بركابه الذين ارتفعت أصوات ابتهالاتهم والدّموع تغلبهم.

صاح الخفر بمكبر الصّوت: «توقفوا».. وطلبوا من الركّاب الصّعود إلى البارجة، وأوّلهم السّائق. «حليم» تكلّم بصوت مرتفع بالتّركية مع الخفر، وقال إنّنا سنصعد، وهو أوّلنا، اقترب بهدوء من المحرّك، وبتواطؤ غريب ساد الصّمت، حتّى الأطفال كتموا أصواتهم في صدور أمّهاتهم. سيطر الرّعب على الجميع فشلّ ألسنتهم في تلك الدّقيقة التي أدار فيها المحرّك، وانطلق البلم بأقصى سرعة. كلانا كان يرتجف. ما أنا متأكدة منه هذه المرّة أنّه ليس الحبّ.. أمسكتَ يدي، ضغطتها بقوة، همست بكلمات لم تصل أذني، حملتها الرّيح بعيدًا وأغرقتها موجة ارتفعت فجأة بين البلم وجدار السّفينة.

أطلق الخفر علينا رصاصًا مطاطيًا، أعقبه رصاص حي أصاب إحدى شفرات المحرّك وكسرها، وبقيت ثلاث شفرات تعمل. في تلك اللحظة التي كنّا فيها على شفا الموت برصاص خفر السّواحل، غادرنا المياه الإقليمية التّركية، ودخلنا المياه الدّولية، وتوقفت البارجة عن ملاحقتنا وخرس الرصاص. صار المحرّك بطيئًا، غصّ مرّات عديدة ثمّ انطفأ!

اتّصل «حليم» بالمهرّب وسأله: ماذا نفعل؟ أخبره بأن يتصل بخفر السّواحل اليوناني، فلم يعودوا مسؤولين عمّا يحدث لنا. قال بأسف: «الوضع

سيئ، ليس معنا من البنزين ما يكفي لنصل إلى الشاطئ، أرجو أن تحافظوا على الهدوء، وانتبهوا للأطفال».

السّاعة الرّابعة صباحًا، أصبح الموج عاليًا قويًا، ولم يعد «حليم» يستطيع السّيطرة على البلم.. على يسارنا، كانت هناك جزيرة قريبة قيل لنا إنّها منطقة عسكرية، وأخرى على يميننا، ومقابلنا كانت جزيرة «متاليني»، لكنّ حركة البلم كانت تجنح مع الموج إلى اليمين، وكلّما حاول أن يبتعد عن اليمين يصبح بعكس الموج. تعالى الصّراخ خوفًا من انقلاب القارب إثر تلك المحاولات التي وصفوها بالغبية، وطلبوا منه أن يترك البلم لحركة الموج. المتتبع في الموبايل يشير إلى أنّنا ابتعدنا عن الجزيرة التي يجب أن نذهب إليها، صارت السّاعة السّادسة صباحًا ونحن نتأرجح بين زرقتين: البحر والسّماء!

أصبح البلم ثقيلًا، وارتفعت المياه ودخلت إليه، اضطررنا لرمي كثير من حقائبنا في البحر، وشقّ السّائق جالون البنزين البلاستيكي، أفرغه في البحر، وراح يجرف به الماء من البلم... النّاس الجالسون في الوسط غمرتهم المياه حتّى صدورهم، أمّا نحن الجالسون على الأطراف فلم يطل البلل سوى سيقاننا.

عندما اقتربنا من جانب الجبل، جاءنا بعض الصيادين بقوارب خشبية، وأخذوا الأولاد الصّغار وشخصًا واحدًا، وعادوا إلى الشاطئ وبقينا وسط البحر!

نادتني الزّرقة، وفتحت ذراعيها، احتفظت برائحة اليود في رئتي، وأغمضت عيني على صوت «أماليا»[1] الآتي من عمق ذاكرة البحر تغني أغنيته: «وحده شخص يرتجف أمام إغراء السّماء»..

---

(1) أماليا رودغيكيز مطربة ممثلة برتغالية لقبت بملكة الفادو، وذلك لشهرتها بهذا النوع من الغناء في العالم.

فجأة، انمحى اللون الأزرق، غطّت الأفق غيوم رمادية كثيفة، ولمع البرق في الجانب الآخر من الشّاطئ. ولم أعد أسمع سوى أصوات الرعد وغضب البحر!

للحظات، خلت أنّ البحر قذفني إلى جزيرة نائية... كنت وحيدة، صرخت بكلّ قوتي ولم يسمعني أحد. صدى صوتي كان يعود مشوشًا يدفعني للتوغل أكثر داخل الجزيرة.. وهناك، وجدت قلعة وسط أشجار كثيفة عالية، القلعة المهجورة لا منفذ إليها سوى بابٍ صغير أسفل البرج، دلفت خائفة وأنا أرتجف. العتمة أدخلتني متاهة، صعدتُ سلالمَ خشبية كاد خشبها يتفتت تحت قدميّ، وصلتُ إلى أعلى البرج.. وهناك، انغلق الباب خلفي، ووجدت نفسي في غرفةٍ مليئة بالصّوف، وعلى مقعد حجري صُفّت أدوات الغزل والنّسيج. لم يكن في الغرفة سوى سريرٍ ضيّق، ومرآة على الحائط، وجرة ماء!

انتبهت فجأة من غيبوبتي. كان رأسي قد ارتطم بشيءٍ صلب لم أعرف ما هو. كلّ ما أذكره شروق الشّمس، وابتعادنا عن الجزيرتين وخيال الجبال التي توجهنا إليها...

****

قبل أن أفتح عينيّ، وأصحو من الغيبوبة بشكل كامل، سمعت صوت تحطم المرآة، وتلاشت ملامح القلعة، وهوت إلى قعر هاوية تلك الغرفة المليئة بالصّوف وأدوات الحياكة وجرة الماء الفارغة. وظهر لي قاربٌ صغير يبحر عبر نهر أحمر، تدفعه الرّيح مصدرة صوت قيثارة حزين، تستلقي فيه فتاة شاحبة بساقين طويلتين تقبض أصابعها على فرشاةٍ مغموسة بألوان قوس قزح.

عرفت أنّك رحلت، هذه المرّة لن تستطيع العودة، وأيقنت أنّك لم تكن قرب النّافذة تراقب جسدي الغارق في الغيبوبة! لقد كانت هلوسات حمى

سكنت جسدي وأنا أرى مياه البحر تبتلعك، وأتخيّل جسدك وقد أصبح وجبة للأسماك.

«بدر»... تصدّعت جدران قلبي...

صوت العرّافة كان يدق رأسي بقوة: «أمامك طريق سفر متعرج ورخو... قبل نهايته، سيبتلع شيئًا عزيزًا عليكِ... لكنّك تستمرين في السّير إلى النّهاية.. نهايته وسط جبال تغطيها أشجار الزيتون.. هناك سترتاح روحك من عذاباتها».

في أثناء الغيبوبة، عشت معك عمرًا كاملًا، رائحتك ملأت الفضاء الهش بأفواجٍ من العبير. تشبه تلك الرّائحة التي يخلّفها انحسار الثّلج في بداية الرّبيع عن أشجار الدّلب والصّنوبر... لعلّها رائحة فلفل معتق بالقرنفل! حواسي تفتقد إمكانية تحديد الرّائحة!

ما زالت يدي تقبض على كتاب شيلر، وما زلتَ هناك عند النّافذة تطلّ على أزقة إسطنبول الضيقة. لم يتقدم بي الزّمن نحو الغياب، ولم يتراجع بي إلى ما قبل اللقاء. كنت أعوم في زمنٍ افتراضي عميق اللجة، التبست فيه مشاعري بأحداث صرت أشكّ في أنّي عشتها حقًّا! حتّى ملامحك لم تكن لك، وملامحي كانت لسيدة أخرى خرجت من إحدى لوحاتي الممزقة. ربّما تكون سيدة قلعة شالوت... هذا ما تنبئ به أدوات الغزل والنّسيج وكميات الصّوف الضّخمة في المكان حولي.

****

اليونان:
الأحد، 14/ 9/ 2014، جزيرة كيوس.

لم أعرف ما حدث بالضبط في أثناء ارتطام البلم بالصخور... كلّ ما علمته حين صحوت من الغيبوبة أنّي لم أجدكَ بجانبي... كان بقربي «حليم» وشاب في العشرينات! أخبراني أنّ الناجين من الموت غادروا جزيرة كيوس، بعد وصولنا إليها في الساعة العاشرة و55 دقيقة.

لم أشك لحظة بعد صحوي أنّك ما زلت هناك تجلس قرب النّافذة في مصح يقع في جبال يخيّل إليّ أنّي أعرفها، تقرأ في كتاب وتنظر إلى المدى الأبيض تنتظر مجيئي وسط الثّلوج!

كان الرجلان محرجين من إخباري بالحقيقة، ولم أجرؤ على سؤالهما. تمنّيت أن تكون قد غادرت مع باقي الركاب وتركتني وحيدة! ليست المرّة الأولى التي تتركني وحيدة، فكم من مرّة جرّعتني المرارة، وكدت أفقد الأمل في لقائك، لولا بضع رسائل وصلت إليّ في فترات متباعدة أعادت إليّ اليقين بأنّ ما بيننا لا يمكن أن ينتهي حتّى بالموت! الموت الذي جرّبته مرارًا وأنا على قيد الحياة! وسُلَّمك الأحمر ما زال مستندًا إلى جدار القلب، كما في طفولتنا البعيدة...

خطفك الموت مني أكثر من مرة، في هذيان الحمى ابتلعتكَ أسماكُ البحر، وفي الغيبوبة قضى عليك مرضٌ غريب واحتفظتُ برمادك في جرة، وفي كلّ مرّة يخطفك الغياب مني أشعر بأنّ الموت أهون بمئات المرّات... ويسيطر عليّ هاجسٌ غريب: «هل حقًّا متَّ وحضورك مجرد هذيان، أم أنّك حيّ وغيابك مسألة وقت يخذلني دائمًا؟».

لم يكن حولنا سوى جبالٍ عالية وبحر وبضعة أمتار من الرمال! وعلى الرغم من أنّي فقدت الرغبة في متابعة الرحلة، فإنّه لم يعد بإمكاني العودة من حيث أتيت!

وقفنا عند حافة الجبل، حيث وصلت دفعة جديدة من اللاجئين، ارتمى من تبقّى منهم إعياءً على المساحة الرّملية الضّيقة.. كان هناك صيادون في الانتظار، قلوبنا المتعبة خفقت لرؤياهم، في ملامحهم طوق نجاة رُمي إلينا وسط العاصفة. كانت وجوههم مستبشرة جعلتنا نشعر بالأمان.. لم نجد صعوبة في التّفاهم معهم، فقد كانوا يرطنون بكلّ اللغات: اليونانية، والتّركية، والعربية.. اللغات التي يحتاج إليها الهاربون من الموت عبر البحر ليتفاهموا مع سكّان الجزر. كان التّرحيب حارًّا تمامًا كخيبتنا حين علمنا أنّهم موجودون هنا لانتشال بقايا الأمتعة التي يلفظها الشّاطئ بعد غرق أصحابها. وكانت أجرة ترحيبهم بنا «البلم» الذي حملنا إلى الشّاطئ؛ أخذوه ومضوا في طريقهم!

العطش! تلك التّجربة الأكثر قسوة على الجسد المنهك وهو يصعد جبلًا قاسيًا دربه ترابيٌّ ضيّق فُتح على عجل بوسائل بدائية. الصّخور تحيط به، شاهدٌ صامت على عجز البشر وعزلتهم في مكان غريب. كنتُ أسمع صوتي الأخرس يلهج على أفواه الآخرين المتذمرين والمستجدين والطّالبين الرّحمة من إله يخصّهم... لكنّ أصواتهم تذهب هباء وتختنق في الدّرب الضّيق، فلا يرجع صداها ولا يسمعها أحد.

الشّاب الذي أستندُ إلى ذراعه كان صامتًا متجلدًا، حمل عني حقيبتي الصّغيرة؛ كلّ ما تبقّى لي. همس ونحن نلهث من صعود الجبل: «لقد وصلنا بخطية الأولاد». أنا أيضًا كنت على يقين أنّنا نجونا من الموت بسبب الأطفال؛ اكتشفت مؤخرًا أنّ التّقدم في العمر يمنح الإنسان تلك الرّوحانية التي تجعله يؤمن بالغيبيات، وما عده خرافات وأفكارًا تافهة في شبابه. لقد وصلت إلى

اليقين بأنّ الأطفال والمجاذيب يمكنهم نشر بركتهم في الجوّ المحيط بهم، فتتحوّل إلى هالة من الحماية للبشر الغارقين في آثامهم.

بعد أن مشينا حوالي كيلومترين صعودًا، صرنا في أرضٍ مستقيمة يقطعها أوتوستراد التزمنا يمينه وسرنا قاصدين المخفر الذي يبعد عن النّقطة التي نحن فيها خمسين كيلومترًا. الطّريق كان مجلّلًا بالأشجار التي اتّخذت شكل مظلّة، لم تكن الحرارة مرتفعة، لكنّ التّعب وحده كافٍ ليقعدنا عن المسير. توقفت امرأة وحدّثتنا بالإنكليزية، ودلّتنا على طريق مختصر، وكان علينا أن نسلك الطّريق الجبلي مرّة أخرى!

لم تكن المسافة الوعرة طويلة، قصدنا بعدها طريقًا داخل البساتين، كان المنظر قطعة من الجنة، بساتين العنب الممتدة إلى ما لا نهاية تخفي داخلها بيوتًا، أمام كلّ بيت حنفية ماء، ماء يا إله البشر ماء! البيوت تتألف من طابقين فقط، ولا أثر لحركة بشر في الجوار! ونحن نلف وندور حول أنفسنا كالدّراويش في حضرة الماء الذي نرجو وصوله إلى عروقنا.

أخيرًا، لمحنا امرأة تُنظّف الخيول أمام بيتها، فتحت لنا حنفية الماء، وأحضرت لنا «بسكويت»، وسمحت لنا بقطف ما نشاء من العرائش. دخلت البيت، وعادت ومعها أطفالها، لا أعرف بالضبط ماذا قالت لهم عنا؛ من الواضح أنّها كانت تشرح لهم من نحن، فقد رحبوا بنا بتهذيبٍ مصحوب بابتسامة. سألناها أن تدلنا على الطريق، فتبرعت باصطحابنا سيرًا على الأقدام لأنّه غير مسموح لها بأن تحمل أحدًا من اللاجئين في سيارتها -كما قالت- حسب القانون المحلي لبلادها!

كلّما قطعنا مسافة، يتبرّع أحد السّكان بجلب الماء والعصير والبسكويت لنا بكميات كبيرة. التّرحيب كان مؤثرًا جدًا؛ الشّعب اليوناني الذي مررنا بأراضيه مضياف بسيط كريم.

بعد بساتين العنب، فاجأتنا بساتين التّوت البري تمتدّ على يميننا والبحر على اليسار. لم يكن ينقص هذه اللوحة العجيبة سوى أن أكون في المسافة الآمنة، بعيدًا عن الاكتئاب والتّعب والموت، كي أغمس أصابعي بماء البحر، وأنثر الألوان على صفحة السّماء. إنّها لوحةٌ غارقة في أناقتها وتمردها وخصوصيتها كلوحات فان كوخ.

حين وصلنا إلى مركز الجزيرة، تبرّع أصحاب المحلات بإحضار الملابس والطّعام والدّخان، كانوا يأتون ركضًا وكأنّهم يتسابقون فيما بينهم، اللافت للنظر أنّ النّاس وقفوا بشرفات بيوتهم يتفرّجون علينا، شعرتُ وكأنّي في سيرك متجوّل. ترى ماذا يرى هؤلاء من الغرابة فينا حتّى يقفوا يحدّقون بنا كلّ هذه المدّة؟ ربّما يكون ألمًا تاريخيًا مشتركًا عاد بهم إلى ذاكرة أجدادهم حين ذهبوا في رحلات لجوء مشابهة!

لم يكن في المخفر سوى ثلاثة عساكر أمامهم كمبيوتر، وضعوا في معصم كلّ منا سوارًا يحمل رقمًا، وطلبوا من كلّ واحد أن يكتب على لوح اسمه ورقمه. مرافقي الشاب «غالي» حمل رقم 5130، «حليم» حمل الرقم 5131، وحملت الرقم 5132.. التقطوا لنا صورًا بجانب أرقامنا وأسمائنا تشبه تلك التي تُلتقط للمشبوهين والمجرمين!

أيّ قدر جمعني بهذا الرّجل الغريب؟ أيّ قدر جعل أرقامنا متسلسلة وصورنا متشابهة؟ كدت أتخلّى عن تحفظي وأسأله: هل اسمه «حليم» حقًّا، ومن أين جاء، وما قصّته! لكنّي تراجعت في آخر لحظة. كنت أخشى تلك النّظرة المريبة التي يختلسها في غفلة مني، وكثيرًا ما فوجئت بها، فأربكتني وأخافتني.

يقع المخفر قرب الميناء، وعلى الرغم من وصولنا في التّوقيت المناسب، لم نستطع الحصول على حجز في كلّ مكاتب السّفر!

بحثنا في الجزيرة عن فندق نبيت فيه ليلتنا ريثما تأتي الباخرة لتنقلنا إلى أثينا، لكنّ الفنادق كانت ممتلئة حتّى آخرها! معظم أصحابها أبدوا أسفًا حقيقيًا لعدم وجود غرفٍ فارغة، وأخبرونا أنّه يسعدهم استضافتنا من دون أجر لو كانت لديهم غرفٌ خالية.

معظم الفنادق التي دخلناها ذات ديكورٍ قديم، الغرف تبدو وكأنها محفورة في الصّخر، لكنّها مجهزة على الطّريقة الحديثة. الجزيرة جميلة صغيرة، تصلح لإقامة هادئة مريحة، لكنّ اليونان لا تستقبل لاجئين، ويجب علينا أن نغادر إلى أوروبا.

بعد أن أغلقت المرأة السّتينية أبواب «السوبر ماركت» الذي استقبلتنا فيه بيدين حنونتين، رافضة أخذ ثمن الطّعام منّا لأنّنا ضيوفها، وإكرام الضيف واجب! خرجنا للبحث عن مكان ننام فيه.

انقسمنا إلى قسمين: قسم عاد إلى المخفر الذي أخلاه رجال الشّرطة وأصبح مهجعًا، وقسم قضى الليل متسكعًا بانتظار شروق الشّمس. كنتُ مع هؤلاء العاشقين للحريّة الذين قضمت الشّوارع أصابع أقدامهم، وألصقت الرّيح الغبار بأجسادهم حتّى ألبستهم غلالة من القهر لا يمكن للماء أن يغسل آثارها.

قبل مغادرتنا ساحة الميناء، بعد أن قصدنا الكشك الصّغير، وحجزنا مكانًا في الباخرة ليوم الغد، تحرّكت بارجة خفر السّواحل، وعادت بعد ساعة وعلى متنها سبع نساء وأربعة أطفال وخمسة عشر شابًا.

جاءت سيارة الإسعاف، وفحصهم الكادر الطبي، وعرفنا أنّ البلم[1] الذي كانوا فيه غرق في البحر.. «الحدث اليومي العادي الطبيعي في هذه الجزيرة الهادئة!».

---

(1) قارب مطاطي.

بحثنا في الجزيرة عن فندق نبيت فيه ليلتنا ريثما تأتي الباخرة لتنقلنا إلى أثينا، لكنّ الفنادق كانت ممتلئة حتّى آخرها! معظم أصحابها أبدوا أسفًا حقيقيًا لعدم وجود غرفٍ فارغة، وأخبرونا أنّه يسعدهم استضافتنا من دون أجر لو كانت لديهم غرفٌ خالية.

معظم الفنادق التي دخلناها ذات ديكورٍ قديم، الغرف تبدو وكأنها محفورة في الصّخر، لكنّها مجهزة على الطّريقة الحديثة. الجزيرة جميلة صغيرة، تصلح لإقامة هادئة مريحة، لكنّ اليونان لا تستقبل لاجئين، ويجب علينا أن نغادر إلى أوروبا.

بعد أن أغلقت المرأة السّتينية أبواب «السوبر ماركت» الذي استقبلتنا فيه بيدين حنونتين، رافضة أخذ ثمن الطّعام منّا لأنّنا ضيوفها، وإكرام الضيف واجب! خرجنا للبحث عن مكان ننام فيه.

انقسمنا إلى قسمين: قسم عاد إلى المخفر الذي أخلاه رجال الشّرطة وأصبح مهجعًا، وقسم قضى الليل متسكعًا بانتظار شروق الشّمس. كنتُ مع هؤلاء العاشقين للحريّة الذين قضمت الشّوارع أصابع أقدامهم، وألصقت الرّيح الغبار بأجسادهم حتّى ألبستهم غلالة من القهر لا يمكن للماء أن يغسل آثارها.

قبل مغادرتنا ساحة الميناء، بعد أن قصدنا الكشك الصّغير، وحجزنا مكانًا في الباخرة ليوم الغد، تحرّكت بارجة خفر السّواحل، وعادت بعد ساعة وعلى متنها سبع نساء وأربعة أطفال وخمسة عشر شابًا.

جاءت سيارة الإسعاف، وفحصهم الكادر الطبي، وعرفنا أنّ البلم[1] الذي كانوا فيه غرق في البحر.. «الحدث اليومي العادي الطبيعي في هذه الجزيرة الهادئة!».

---

(1) قارب مطاطي.

أخذوا الأطفال وامرأة حاملًا إلى المستشفى، وانضم الشّباب وبقية النّساء إلينا. دقائق وصرخت النّساء صرخة واحدة توقف لها قلبي. إحداهن وقفت تنظر إلى البحر بذهول، ثمّ تخلصت من أيدي النّساء، دفعت أقربهن إليها صوب الرصيف، فوقعت وارتطم رأسها بسورٍ حجري، ركضت المرأة مبتعدة وهي تنادي بصوت مشروخ: «سارة.. أيمن».. لم أكن بحاجة لأن تشرح النّساء الموقف.. حين رأيتها ترمي بنفسها في المياه، فهمتُ كلّ شيء!

القصة روتها إحدى النّساء ونحن نتحايل على الجوع بوجبة بيتزا في مطعمٍ صغير لم يتجاوز ثمنها 7 يوروات، مع أنّها كبيرة جدًا، قُدّمت إلينا مع صحنٍ بطاطا وقنينة بيبسي.

لم تكن اليونان وجهتنا، بل إيطاليا، فقد خرجنا من الإسكندرية بقصد أن نصل إلى روما... وصلنا إلى الشّاطئ بصحبة شباب من المهربين، بعد أن دفعت كلّ واحدة ألفي دولار للرأس الكبير الملقّب بـ«الدكتور». ركبنا قاربًا صغيرًا يتسع لعشرة أشخاص، وبعد أن ابتعد عن الشّاطئ حوالي كيلومتر، نُقلنا إلى مركب صيد طوله ستة عشر مترًا تقريباً، حُشر فيه ثلاثمئة شخص.

أم أيمن كانت برفقة زوجها وولديها.. «سارة» التي لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها كانت مصابة بداء السكري، وقد اختطف أحد المهربين جهاز قياس السكر الذي تلبسه كسوار في معصمها، كما سرق موبايل والدتها ومحفظتها.

بعد أربع وعشرين ساعة، غادر المركب المياه الإقليمية المصرية، وهناك كان بانتظارنا مركبٌ من الحديد يطلق عليه اسم «بابور»، ألقى المهربون إليه 400 شخص من عدة مراكب.

كان الموت يترصد الرّكاب وسط العتمة... البحر يطلق أشباحه عبر الموج لتدخل الرّعب في قلوب الأطفال والكبار على حدّ سواء. حين طلعت

شمس اليوم الأوّل، فارقت «سارة» الحياة، وأصرّ المهربون على رميها في البحر، وحلت العتمة ثانية، لم يكن هناك سوى الماء وأصوات جنياته تنده البشر الخائفين وهم يكتمون صراخهم تحت التّهديد.

خمسة أيام مضت حتى وصلنا إلى الطّريق البحرية التّجارية شمال البحر الأبيض المتوسط. هناك، نقل المهربون الرّكاب إلى المركب الخشبي المتهالك الذي جرّه الببور خلفه خلال تلك الأيام..

في اللحظات الأولى لتوقف المركب، وبدء المهربين برمي الرّكاب إليه، لم نستوعب بالضبط ما يجري.. ولم يكن لدى المهربين الوقت لشرح شيء، أو الانتظار لينتقل الرّكاب على مهل، كانوا مستعجلين، وانتبهنا فجأة على صرخة ارتجفت لها قلوبنا، لقد ابتلع الماء «أيمن» في أثناء رميه إلى المركب.. كان الموج هائجًا، والمركب الخشبي لا يستقرّ على حال، والرّكاب يُدفعون بهمجية إلى داخله، ويتساقطون مثل الأمتعة بعضهم فوق بعض.. ابتعد القارب مسافة كافية ليسقط أيمن في الماء، ثمّ التحم بالببور بسرعة جعلت جسد الطفل بين فكي رحى، أفلته القاربان خلال دقيقة من الزمن بدت دهرًا من الذعر، واختفى بعدها.

عاد المهربون إلى مصر بالبابور، وتركونا لمصيرنا.

انتظرنا مرور سفينةٍ تجارية أو بارجة لتنقذنا...

بعد ثلاثة أيام، نفد الوقود من المركب، واكتشفنا تسرب الماء إليه. مات ثلاثة من الأفارقة اختناقًا، فقد أجبرهم المهربون على البقاء داخل غرفة المحرك لأنّ الإيطاليين لا يكترثون بأصحاب البشرة السّوداء -حسب ادّعائهم- ووجودهم سيؤثر على عملية إنقاذنا!

علا الموج... دفع المركب بقوة، وصرنا نتأرجح كأوراقٍ جافة في خريف كئيب. تساقط معظمنا إعياءً وجوعًا وعطشًا، لقد نفد كلّ ما معنا من ماء وطعام. ومع قدوم الليلة الثالثة، شعرنا بأنّ نهايتنا قد أتت...

عن طريق متتبع الخرائط على الموبايل، عرفنا أنّنا نبعد عن الشّواطئ الإيطالية كثيرًا، وأنّنا أصبحنا أقرب إلى اليونان. وصلنا إلى حال صرنا نتمنّى فيه الوصول إلى اليابسة، حتّى ولو على الشّواطئ السّورية.

فجأة، رأينا بارجة تقترب منا... وفق العرف المعمول به في البحر، فإنّ أيّ سفينة تجارية أو بارجة تمرّ بنا، ونحن في طريقنا للموت غرقًا وقد نفد وقود المركب، ستنقلنا إلى وجهتنا.

أخيرًا، جاء من ينقذنا!

في الرابعة والنّصف صباحًا، مشينا صوب الميناء، وجدنا كراسي مطوية، فتحناها ونمنا جلوسًا حتّى السّابعة صباحًا، حيث أيقظتنا الشّمس وأصوات شباب وصبايا كانوا يوزعون الطّعام والملابس على اللاجئين المنتشرين على طول الرصيف. ذهبنا برفقتهم إلى محلات الألبسة، اشتروا لنا ملابس جديدة وأحذية. كان موعد الباخرة في السّاعة الثّانية ظهرًا.

تسكّعنا حتّى ذلك الوقت، ومرّة أخرى، وجدنا يدين حنونتين لصيّاد يوناني أبدى حزنه لأنّ بلاده لا تقبل لاجئين، وقدّم لنا الطّعام برفقة عائلته.

في كلِّ مكان نتحرّك فيه، نجد عربًا ينتظرون أن نطلب منهم خدمة أو مساعدة، تعرّفنا على أربعة شباب أخبرونا أنّه يجب علينا حجز بطاقة للحافلة التي سنجدها في انتظارنا حين نصل إلى أثينا، أخذوا منا ثمن البطاقات، وتركونا ننتظر عودتهم.. حين وصلت الباخرة، لم نجد لهم أثرًا!

صعدنا إلى الباخرة المؤلفة من أربعة طوابق، السّيارات ووسائل النّقل في الأسفل والنّاس في الأعلى. على سطحها يوجد مطاعم وكراسي ومظلّات. كان منظر الجزر من حولنا مبهجًا يدخل الرّاحة في النّفس. شعرت لدقائق، وربّما أقل، بأنّي وصلت إلى نهاية الرّحلة... وأنّي سأبقى عائمة بين زرقتين.

في التّاسعة ليلًا، ارتفع الموج، وبدأ الماء يجلد وجوهنا، فنزلنا إلى

الطّابق الثّالث.. لكنّ الموج صار عنيفًا، ولم يكتفِ بسطح السّفينة، فأنزلونا إلى الأسفل، حيث قوارب وستر النّجاة والسّيارات والازدحام على أشده، لن يشفع لنا لون البشرة، كلّنا سواسية في مواجهة الموت، هل نجونا من الغرق بالبلم لنغرق داخل عنبر سفينة؟ صخب الموج يختلط بدقات القلوب العنيفة وصراخ الرّكاب الذين تعرضوا لأهوال البحر قبل هذه الرحلة، ولم تفلح النّكات المرحة التي ألقاها بعض الشباب -عن ملازمة عزرائيل للسوريين أينما حلوا- بكسر حاجز الخوف والقلق، حتّى وصلنا إلى أثينا في السّاعة الثّانية عشرة والنّصف، متأخرين ساعة خوف ورعب إضافية.

على رصيف الميناء، هاجمنا ذلك المزيج اللغوي من اللهجات العربية والتّركية واللغات الأجنبية، ينادي بها شباب من جنسيات مختلفة ليصطادوا ركابًا غافلين متعبين يائسين. حجز لنا شاب سوري من مكتب قريب مقعدًا بستين يورو للشخص.

الساعة الثانية ليلًا، ركبنا الحافلة المغادرة إلى مقدونيا. وسرقني النّوم فور انطلاقها، ولم أنتبه من إغفاءتي إلا حين توقفت في الاستراحة السّاعة السّادسة صباحًا...

الاستراحة كانت جميلة... شلالات مياه وأشجارٌ كثيفة وبرودةٌ لطيفة.. أتذكر يا «بدر»؟ كنت أحلم دائمًا ببيت يضمّنا وسط غابة، أو وسط حقلٍ قريب من سكّة قطار، يمرّ به العابرون، ويتركون نتفًا من حكاياتهم في لوحاتي... كم كان جميلًا لو تحقّق الحلم! أكنتُ أطلب المستحيل؟!

غادرنا الاستراحة في الثّامنة صباحًا. انتبهت وقتها إلى حالة الحافلة التعيسة، وحمدت الله أنّنا لم نبقَ فيها سوى ساعة، وصلنا بعدها إلى محطة قطار.. المحطة عبارة عن فسحةٍ كبيرة تمرُّ وسطها سكّة حديد، وبناء المحطة قديم يبدو وكأنّه مهجورا!

هنا، خفق قلبي... كأنّ المكان قطعة من حلمي. بحثت عيناي عنك، كنت أشعر بأنّك هنا في مكان ما، تقطع حطبًا للمدفأة، بل تقطف لي عنبًا من دالية... أو...

سحبتني يد «حليم» وهو يقول: «أسرعي، لقد سبقونا».

كان علينا أن نمشي بمحاذاة سكّة الحديد. التقينا ببوليس يوناني غيّر لنا الطريق كي لا يقبض علينا البوليس المقدوني. سار معنا رجال الشّرطة اليونانية في حقول الذّرة حتّى وصلنا إلى مكان فيه شبك دخلنا منه إلى الطّرف الآخر.

«صرنا في مقدونيا أخيرًا».. هتف «حليم» وكأنّه يتخفّف من حمل يثقل كتفيه.

في الأراضي المقدونية، دخلنا «الكمب»، ووزعونا على خيام.. لا تتجاوز مساحة الخيمة ثلاثة أمتار في مترين، تحوي كلّ واحدة خمسة عشر شخصًا إلى عشرين! وأمام كلّ خيمة عمود كهرباء تعلوه لمبة، والمسافة التي تفصلنا عن الغطاء / الخيمة/ مزروعة بالبق والأفذار والشّرطة الذين يقبضون أتاوة من كلّ شخص يريد أن يلتجئ إليها!

لم نستطع البقاء فيها سوى ساعات، وبحثنا عن حافلة تقلنا إلى الحدود الصربية، دفعنا خمسين يورو لكلّ شخص، وصعدنا إحدى الحافلات التي كانت بالنسبة لنا دفة الخلاص من مستنقع القذارة الحدودي.

تستغرق الحافلة خمس ساعات لتقطع المسافة، اتفقنا مع السائق ألا يتوقف في الاستراحتين الموجودتين على الطريق، وافق مقابل زيادة في الأجر وصلت إلى 75 يورو تسلّمها قبل تشغيل المحرّك!

لم يكن خيارًا جيدًا أن ندفع مالًا لاختصار زمن الرحلة، فقد أجبرنا دخان السّجائر الكثيف داخل الحافلة على طلب التّوقف من السائق لعدة دقائق في

مكان ما، بعد مضي أربع ساعات كاد بعض الركاب خلالها يموتون اختناقًا!

نزلنا من الحافلة، جانبا الطّريق مسيّجان بأشجارٍ كثيفة تمنع رؤية ما خلفها، لكنّها ليست أراضيَ زراعية على ما يبدو.. حاول البعض التوغل داخلها، لكنّ السّائق أبلغنا بأنّه لن ينتظر أحدًا.

تابعنا سيرنا حتّى وصلنا إلى آخر قرية مقدونية فيها عدّة بيوتٍ متناثرة ودكّانٌ صغير.. كان علينا أن نتابع مشيًا على الأقدام مسافة ستة كيلومترات، وأن نقطعها بأسرع وقت ممكن قبل أن تغرب الشّمس. مشينا في مجموعات يسيطر علينا الخوف من مهاجمة عصابات الطّرق التي تعتدي على اللاجئين، وتسرق ما يحملونه من نقود وهواتف وساعات.

الخوف من العصابات هاجسٌ يرافق كلّ لاجئ منذ خروجه من دياره حتّى دخول النمسا. وقتها، يشعر بأنّه آمنٌ حر!

حين كنّا مرميين في مكانٍ غامض مريب، يحيط بنا القلق والرعب بانتظار أن نركب البحر، كنتَ تخشى أن ننتهي على أيدي هؤلاء، حين رأيتَ وجوههم وأسلحتهم وطريقة تعاملهم معنا. وقلت لي: «إنّهم مافيات وتجار بشر؛ كيف يضع الإنسان روحه أمانة في أيدي هؤلاء المهرّبين؟! الموت غرقًا أقلّ وحشية!». أكنتَ وقتها تحدس طريقة موتك؟!

مشينا في دربٍ ترابي داخل أرضٍ خالية من الأشجار، من الواضح أنّها حُصدت منذ زمنٍ طويل، فالحشائش فيها يابسةٌ قصيرة، ولا شيء يدل على أنّ الحياة مرّت من هنا غير بقايا اليباس والحرائق وأنفاس الأرض.

حين وصلنا إلى الأراضي الصّربية، لم نشعر بأنّنا عبرنا من دولة إلى أخرى.. كان أمامنا عدد من البيوت، قصدناها بغرض السؤال، فعرفنا أنّنا في صربيا! الأراضي متداخلة ولا فاصل بينها.. سكّان البيوت أخبرونا أنّ علينا أن نستقل حافلة تنقلنا إلى داخل المدن الصّربية.

كان الزّحام شديدًا..

أنزلنا السّائق على حافة أرض لنكمل طريقنا سيرًا على الأقدام.. مشينا داخل حقول الذّرة والفليفلة الحمراء.. قال «غالي» وهو يقف مذهولًا من المنظر: «تعرفين؟ كأنّي في بلدة (سلقين)! في موسم الفليفلة، ترين مشاهد غريبة، بدءًا من الفليفلة المضمومة بخيطان والمعلّقة على الجدران والشّبابيك والشّرفات، انتهاءً بمنظر دبس الفليفلة المنشور في الصّواني على أسطح المنازل».. حينها فقط عرفت أنّ «غالي» من ريف إدلب، وأنّه كان يعمل نادلًا في أحد مطاعم أنطاكية، ثمّ شجّعه «حليم» على المغامرة بالذّهاب إلى أوروبا عبر قوارب الموت.. كان يدرك أنّه قد لا يصل، لكنّه غامر بكلّ شيء، ففي تركيا -كما قال لي- العمل أجره قليل، وساعاته طويلة، ولا يوجد تأمين لعامل، وقد يطرده صاحب المحل في أيّ لحظة ولا يعطيه أجره.. وقد حدث معه ذلك كثيرًا.

حين وصلنا، وجدنا أمامنا عددًا من سيارات الشّرطة والإسعاف، فتشونا وأخضعونا للفحص، وأرسلوا الأطفال وذويهم في سيارات إلى أوّل قرية في صربيا، والباقي ذهبوا سيرًا على الأقدام. نزلنا أمام جامع القرية، وكان بانتظارنا أفرادٌ من الجالية الإسلامية، برفقة سيارات للصّليب الأحمر. دخلنا المسجد لنرتاح، وهو من طابقين، مبنيٌ بالقرميد الأحمر، تحيط به حديقةٌ كبيرة مزروعة بالورد، وفيه بركة ماء صغيرة. نمنا فيه حتّى الصّباح.

وزّعوا علينا الطّعام.. وكان كثيرًا، مما اضطرنا إلى التخلّص من الأكياس حين وصلت الحافلات. دفعنا 20 يورو لكلّ شخص أجرة نقلنا إلى مكان يبدو منطقة عسكرية ازدحم أمامها اللاجئون، وأخبرنا بعضهم أنّهم هنا ينتظرون تسجيل الدّور وأخذ الرّقم منذ عدّة أيام!

بعد ساعة ونصف من الحوار بالإنكليزية مع أحد العساكر، استطعنا أن

نحصل على دور ورقم سجّلهم على الكمبيوتر، وأخذ من كلّ شخص 650 يورو، وسمحوا لنا بالعبور!

كانت الثّالثة ظهرًا حين انطلقت الحافلة بنا، ووصلنا إلى بلغراد حوالي الواحدة بعد منتصف الليل.

مرّة أخرى، علّق «غالي» على مشهد الحديقة المجاورة لمحطة الحافلات: «كأنّني في حلب! هل أنا هنا حقًّا؟ أشعر بأنّي ما زلت في سوريا! ربّما لم أغادرها أبدًا؛ إحساسٌ غريب يغمرني ينفي خروجي منها.. ربّما على بعد خطوات من هنا تنتظرني وراء شجرة ما على مقعد خشبي بني اللون يزهو بكتابات العشاق.. هل زرتِ الحديقة العامة بحلب؟ أنا هناك.. بل هنا!».

انتشر النّاس في الحديقة، نصبوا خيامًا صغيرة، وناموا فيها بانتظار الصّباح وورقة الطرد التي اصطلح اللاجئون على تسميتها «الخارطية»، والتي تقضي بمغادرة البلاد في مدّة أقصاها اثنتان وسبعون ساعة.

دخلنا المقهى الواقع بين الحديقة ومحطة الحافلات تحت إغراء العبارة المكتوبة على بابه: «لدينا واي فاي مجاني»، بعد أن شحنّا أجهزتنا من وصلة أمام «كشك» كتب عليه صاحبه باللغة العربية: «وصلة كهرباء لشحن الموبايلات بالمجان».

في أثينا، ومن ثمّ مقدونيا، تعرّضنا لعملية نصب حين اشترينا خطَ هاتفٍ دوليًا بخمسين يورو، ولم يعمل خارج الحدود!

تركنا حقائبنا عند صاحب المقهى، وتجولنا في المدينة، الأسعار رخيصةٌ جدًا ومغرية، على عكس مقدونيا التي كانت أسعارها ضعفي الأسعار في اليونان للمشروبات ورقائق البطاطا.

اتصل «غالي» بصديق له في ألمانيا، فأخبره ألا يذهب إلى حدود هنغاريا، لأنّ كرواتيا ستفتح حدودها خلال ساعات، وسيرسلون اللاجئين بالقطارات مباشرة إلى فيينا!

أهو الفرح ذلك الشّعور الذي جعلنا نتعانق للمرّة الأولى، ونحدّق في السّماء بابتسامةٍ واسعة؟ ربّما هو الارتياح، وربّما يكون اكتشافًا صغيرًا لمقدرتنا على الاستمرار في الحياة، بما تحتويه من متناقضات ومفاجآت. المفاجأة التي أربكتني كانت عناق «حليم» لي في لحظة غياب تامة عن الواقع، ذلك العناق الذي تخلقه حالة الانعتاق المفاجئ من الألم والزّمن والجغرافيا، اللحظة التي تنبت فيها أجنحة للبشر فينسون ماهيتهم. تراجعت بعد دقيقة وقد همد شيء في داخلي، وانطفأ الفرح، ومعه خرست أصوات الكون وتلاشت الصّور، وبقيتَ تنبض في القلب مصحوبًا بشعورٍ شفيف من الأسى، شعور نسفه إحساسٌ غريب بأنّ أصابعي، كفيّ، ذراعيّ، صدري، كلّ خلية في جسدي، لامست «حليم»، تنملت واندفعت موجة من الدّم إلى رأسي، قرعته بعنف.. هناك شيء تدركه حواسي ولا يستطيع عقلي فكّ طلاسمه... نعم، هناك شيء كلّما أردت البحث فيه بجدية تمنعني الظروف المحيطة بنا.

انتظرنا في المقهى حتّى الرابعة والنّصف صباحًا، غامرنا بركوب سيارة أجرة لنختصر المسافة كي نصل في السّادسة صباحًا، قبل ازدحام الحدود. الطّريق مزروعٌ بأشجار التّفاح والخوخ والمشمش وحقول الذرة.. توقف السّائق عند محطة بنزين، واشترى لنا قهوة! حين اقتربنا من الحدود حوالي السّاعة العاشرة، كانت تغصّ بالصّحفيين والإعلاميين واللاجئين، فقد انتشر الخبر قبل أربعة أيام، وتمترس اللاجئون على الحدود بانتظار دخول كرواتيا!

أحاط بنا رجال الشّرطة، وأدخلونا في الأراضي المزروعة بالذّرة، وأمرونا بالسّير.. في كلِّ مفرق حقل، كان هناك رجال شرطة يدلوننا على الطّريق الذي يجب أن نسلكه. فجأة، وجدنا أنفسنا على طريق أوتوستراد اجتزناه إلى الطّرف الآخر، حيث تقف الشّرطة بلباس مختلف وعلم مختلف؛ لقد أصبحنا في كرواتيا!

اختلف الجوّ والطّبيعة علينا، فقد شكّلت أشجار الجوز خيمة لا نهائية متشابكة الأغصان، حتّى انمحت الزرقة تمامًا. جلسنا بين الأشجار لنرتاح، فجاء رجال الشّرطة ومنعونا من الجلوس، وأمرونا بالمسير.. مشينا حوالي ستين كيلومترًا...

كنّا نأمل أن نصل إلى محطة القطار قبل وصوله في الواحدة ظهرًا، كما قالوا لنا.. في الواقع، لم تكن هناك محطة، بل سكة حديد تجمّعنا عند حافتها، ووُجِد هناك أفرادٌ من منظمة الـ«يو إن» والصّليب الأحمر وزّعوا علينا بطانيات خفيفة وماءً وطعامًا.. افترشنا الأرض لنرتاح.. وخلال دقائق، كبر التّجمع، وتضخم العدد مع الوقت، مما جعل الشّرطة تطلب تعزيزات لضبط النّاس.

تأخر القطار، وتدفق اللاجئون بأعدادٍ هائلة، تاركين حدود هنغاريا إلى حدود كرواتيا.

جاءت سيارات حفظ النّظام بالعتاد الكامل، قسّموا النّاس إلى مجموعات، أكبر مجموعة لم تتجاوز خمسين شخصًا، أحاطوا بنا من كلّ الجّهات، وأتوا بشباك نصبوها حولنا. أصبحنا كالطّيور في أقفاص!

خيّل لي أنّي لمحتك، بل هو يقين، كنتَ على مقربة مني وقد التقطت الأرنب من أذنيه، بعد أن خلّصته من الشّبك. رجوتكَ أن تطلقه، كان صغيرًا جدًا وردي اللون، وفي عينيه ظلّ دمعة.. ضحكت مني: «هل تبكي الأرانب؟ كم أنتِ سخيفة! ثمّ كيف أطلقه وقد انتظرته أسابيع ليقع في الشبك؟!». همستُ وأنا أرتجف: «أرجوك، فكّ الشّبك من حول عنقي». لامست يد حليم جبيني بلهفة، وقال: «حرارتك مرتفعة، أنت تغتسلين بالعرق! سأطلب منهم إحضار طبيب».

قلت برجاء: «لا، لستُ مريضة، لا أريد طبيبًا، يجب أن نرحل من هنا بأقصى سرعة».

امتلكتُ يقيني بأنّك تنتظرني في آخر محطة من رحلة اللجوء!

بعض الشباب في أبعد نقطة تحت شجرة جوز كبيرة كانوا يكسرون الأغصان، وتشاجروا مع الحرّاس.. وفجأة، بدأوا بالرّكض، ولحقت الشّرطة بهم.. استغلّ البعض الآخر الفرصة وهربوا.. حدثت فوضى كبيرة جعلت النّاس يتدافعون، فسقط طفلٌ صغير بين الأرجل ومات، ثمّ سقط رجلٌ مصاب بالربو، وضرب شرطي شابًا على رأسه بالهراوة فسقط ميتًا! في تلك اللحظة، عاد الشباب مسرعين ليتشاجروا مع الشّرطة، فابتعد رجال الشّرطة، وجاءت سيارات الإسعاف والشّرطة المدنية وطائرة هليكوبتر...

كفّت طائرة الهيلوكوبتر عن ملاحقتنا ونحن نركض في سباق مع الحظ والزّمن حين وصلنا إلى أوّل قرية في طريقنا...

ذهبنا إلى المحطة، وصعدنا إلى الحافلات من دون أن نعرف وجهتها.. بعد دقائق عشر، وصلت الشّرطة إلينا، طوقوا المحطة وأخذونا إلى المخفر، وبقينا ساعتين في زنازين متفرقة.

حملونا بعدها بالسّيارات إلى محطة قطار ريفية، رصيف واحد أمامه فسحة وسكة واحدة، وجدنا حوالي ألف شخص قد وصلوا قبلنا!

في الرابعة عصرًا، أخبرونا أنّ القطار سيأتي في السّاعة الثّامنة لنقلنا!

بعد ساعة، جاء سرب سيارات، اكتشفنا أنّهم من أهل القرية التي لا تبعد عنا كثيرًا، كانوا يحملون معهم الطّعام والحليب وحفاضات الأطفال.. وضعوا طاولة كبيرة، وراحوا يصنعون شطائر ويوزّعونها على النّاس.. ولم يكتفوا بذلك، بل لبوا طلبات اللاجئين وأحضروا لهم من القرية ما يحتاجون إليه.

لم يأتِ القطار في الموعد، وجاءت سيارة بث إحدى القنوات التّلفزيونية الكرواتية، ونقلوا ما يحدث على الحدود مباشرة!

بعد ربع ساعة، جاء القطار.. وعلى الرغم من ضخامته، فإنّه غصّ بالنّاس

الذين سدوا الممرات والعربات.. توقف القطار في محطتين، تركهما فارغتين للرّيح، وامتلأت أحشاؤه بالبشر حتّى كاد يختنق.

الموت اختناقًا هو ما كنت أخشاه في تلك اللحظة التي تراكمت فيها الأيدي والأعناق والصدور فوق رأسي، وأصبحتُ أراها أشلاء بشر رُكّب بطريقة عشوائية بعضها على بعض، يدٌ سمراء على جسدٍ أبيض، وشعرٌ أشقر على رأسٍ زنجية، وعيونٌ تحدّق بالفراغ بفزع.. العيون كبيرة بسعة القطار، وأنا غارقة في بركة من العرق وجسدي يشتعل بالحمى.

في آخر محطة، كانت السّاعة تشير إلى الحادية عشرة ليلًا.. غادرنا بعدها باتجاه هنغاريا. لم يسمحوا لنا بالدّخول، وبقينا في القطار حتّى الحادية عشرة من ليل اليوم الثاني! أربع وعشرون ساعة مرّت علينا ونحن محشورون في زنزانة متحرّكة، وراء قضبان من الخوف والتّعب والقلق والانهيار. أربع وعشرون ساعة كانت كافية للامتلاء بشعور الكراهية لكلّ شيء، والبحث عن الخلاص بأيّ وسيلة.

استمرّ القطار في سيره حتّى السّاعة الخامسة صباحًا، حيث توقف في محطةٍ مهجورة مهدّمة تحجبها أشجارٌ كثيفة، وطلب منّا المسؤولون أن ننزل من القطار، فقد وصل إلى آخر الخطّ!

لم يجرؤ أحدٌ على النزول، خاف النّاس من الخنازير البرية، وكانت العتمة شديدة.

جاءت سيارة أخذت طاقم القطار، وبقينا وحدنا حتّى ظهر ضوء النّهار.. نزلنا من القطار، الخلاء مفزع إلى درجة كبيرة، كنت أسمع وجيب أنفاسي وضربات قلبي تزداد، و«غالي» يهمس: «هل أنتِ بخير؟».

في الصّباح، جاء رجالٌ فتحوا غرفة في المحطة، وطلبوا منّا أن نقطع تذاكر ليرسلونا بالحافلات، ولم يخبرونا إلى أين!

بعض النّاس كانوا يغادرون أماكنهم في الصّف الطّويل من دون أن يحجزوا! فجأة، سمعنا أصوات شجار بين العرب والإريتريين، وظهرت الشّرطة بسرعة، لكنّهم لم يستطيعوا السّيطرة على الوضع، كسر اللاجئون كاميرات الإعلاميين، وكان الهجوم شرسًا من الطّرفين.. وصلت سياراتٌ مصفحة رشّت اللاجئين بالماء، وتمكّن رجال الشّرطة من فصل العرب عن الأفغان والإريتريين، ووضعوا كلّ فئة في دورٍ مستقل. الألبان كانوا متعصبين في التّعامل معنا، فلم يقبلوا منا اليورو ولا الدولار، ولا حتّى الليرة التّركية، وازدحم النّاس أمام الصّراف للحصول على العملة الكرواتية (الكينا).. صرّفنا بسعر أعلى من قيمة العملة المحلية، وعدنا للوقوف في الدّور لحجز التّذكرة. لم نكد نقف في الدّور حتّى جاء شابٌ أفغاني ووقف بين شابٍ عربي وشقيقته، طلب منه العربي المغادرة والابتعاد عن أخته، فلم يرد. وبدأ عراكٌ اشترك فيه الطّرفان؛ كان الاشتباك عنيفًا، قُتل فيه أربعة أفغان وشخص ألباني واثنان من الشّرطة الكرواتية التي تدخلت مباشرة لوقف الاقتتال، وشاركت بالضّرب والقتل! كان مشهدًا داميًا إلى درجة لم يحتملها عقلي.

كنتَ تقول لي: «أنتِ لم تري كيف يقتل الإنسان ببساطة، وكيف يجري الدم كما لو أنّه ماء، وكيف يُدفن البشر من دون أن يبكيهم أحد، أو يجدوا من يزرع وردة على قبرهم». حينها، قلت في نفسي: ماذا لو أنّي رأيتُ جسد أختي حين اخترقه الرّصاص؟ ماذا لو رأيت عينيها وهما تنغلقان على منظر قاتلها؟ ماذا لو رأيت دمها؟ هل كنتُ وقتها سأوافق على الحلول مكانها؟

في غمرة الفوضى التي حصلت، سرق شابٌ أفغاني محفظة «غالي»، فطعنه «غالي» في كتفه، وتجمّع حوله شباب لا يعرفونه، فقط ضربت الحمية رؤوسهم لأنّه عربي.. من أين جاء بالسكين؟ لا أعرف.. رافقني منذ بداية الرحلة، واهتم بي، ولم أنتبه إلى أنّه يميل إلى العنف.. ما الذي يجري

بالضبط؟ قادتهم الشّرطة إلى السّجن، وكان عليّ أن أنتظرهم هناك.. في السّجن، تشاجروا مرّة أخرى، ففرّقوا بينهم، ووضعوهم في زنازين منفردة. انتظرت أمام السّجن حتّى الصباح، حيث جاء محامٍ متطوع لا نعرفه وأخلى سبيلهم.

عدنا إلى محطة القطار، وركبنا من هناك إلى هنغاريا، بدّلنا القطار قبل وصولنا بكيلومتر واحد، وكان في انتظارنا جيش من الشّرطة يرابط على طول سكة الحديد.. فتحوا لنا بابًا واحدًا لننزل فرادى، وكلّ شخص ينزل من القطار يأخذون حقيبته ويفتشونها وتشمّها الكلاب! اكتشفنا أنّ كثيرين ممن كانوا معنا حملوا في حقائبهم مخدرات.. وعلى الرغم من أنّهم رموها حين رأوا الشّرطة، فإنّ الكلاب المدرّبة كشفتهم. وزّع رجال الشّرطة علينا قناني ماء، واحدة لكلّ شخص. وصعدنا في القطار الثّاني، وكانت السّاعة الثانية عشرة ليلًا...

وقف القطار في منطقة لا توجد فيها محطة. وجدنا أمامنا شرطة وسيارات. أنزلونا وقادونا داخل الأراضي الزّراعية، ثمّ ساقونا كقطيع داخل شوارع مدينة، خرجنا منها إلى أراضٍ زراعية مرّة ثانية، تجاوزناها إلى أوتوستراد نُظّم فيه السّير بحسب الآليات.

بعد أن مشينا ثلاثة كيلومترات، صرنا داخل طريق فيه شبك على اليمين واليسار، ووجدنا سيارات إسعاف وعساكر أوقفونا، وأمرونا بالسّير باتجاه رجال الشّرطة النّمساوية على الطرف الآخر. وزّع علينا رجّال الشّرطة أوراقًا مكتوبة بالعربية من أجل لقاحات الأمراض السّارية، وإبرة للإنفلونزا، وأدخلونا إلى هنغارات فيها طعامٌ وقهوة وشاي وملابس!

«إنّها الحرية... الآن تستطيع أن تشعر بأنّك إنسان».. هكذا صرخ «حليم»، وضحك «غالي» لأوّل مرة!

قسّمونا إلى مجموعات، كلّ مجموعة خمسة وثلاثون شخصًا. صعدنا إلى الحافلات بنظام، وقصدنا فيينا. عند وصولنا، وجدنا سيارة شرطة بانتظارنا، رافقتنا الشّرطة حتّى محطة القطار، وصعد معنا أحدهم. القطار صغير جدًا، أوصلنا إلى الحدود الألمانية. سلّمنا مرافقنا إلى شخصٍ آخر تولى إيصالنا إلى «مهجع» أسفل المحطة، فيه كلّ حاجتنا من طعام وملابس، وقاموا بفرزنا إلى أماكن حدّدوها بأنفسهم. «غالي» و«حليم» قالا لي: «لن نذهب إلى تلك المدن، نحن سنقصد هامبورغ.. هل ترافقيننا؟».

أخذنا إذنًا لنذهب لشراء خط للهاتف.. من شبابيك المهجع العالية، رمى الشباب بالحقائب إلى الخلاء المحيط بالمبنى. ثمّ خرجنا بشكلٍ طبيعي، أخذنا حقائبنا وغادرنا. اشترينا خطوط هاتف، واتصل «غالي» بصديقه ليحدد له المكان الذي نحن فيه، فقال له إنّنا بعيدون عن ألمانيا مسافة ثلاثة كيلومترات. وأخبرنا أن نستقل سيارة أجرة، وندفع أيّ مبلغ يريده السّائق.

لم يرضَ أيّ سائق أن ينقلنا مهما كان المبلغ، وأخبرونا أنّ هناك نقطة تفتيش نظامية على الجسر، وقد تصل مخالفة التّهريب إلى خمسة عشر عامًا في السّجن، مع غرامة تصل إلى 12 ألف يورو!

فقرّرنا أن نصعد القطار من دون حجز!

«أقرب موعد قطار سيذهب إلى شتوتغارت السّاعة التّاسعة مساءً».. هكذا قال لنا رجل تركي كان واقفًا أمام مكتب الحجز، وأخبرنا أن ننتظر القطار رقم خمسة، وأن ننزل منه بعد سبع محطات، ثمّ نمشي إلى الموقف الثاني، وننتظر الباص رقم 24، لينقلنا إلى أوّل قريّة ألمانية.

توقفت الحافلة فجأة أمام نقطة تفتيش، جاء السّائق بصحبة المفتش وأشار إلينا، طلبوا منا جوازات السّفر، فأخبرناهم أنّنا لا نحمل جوازات. أنزلونا من الحافلة، وعرضونا على ممرضة قبل أن تفحصنا سألتنا إن كنّا أخذنا لقاحًا أم لا.

بعد ساعة ونصف، جاءت سيارة وأخذتنا إلى المخفر.. في الطّابق الخامس، أخذوا بصماتنا بالإصبع الثاني (أي بصمة جنائية)! ألبسونا أساور في أيدينا.. شرح لنا «حليم» -وكان يعرف الألمانية، فقد تعلّمها في السّجن الذي قضى فيه وقتًا طويلًا في هنغاريا قبل سنوات، في رحلة هروب مشابهة- أنّهم سيفرزوننا إلى مناطق مختلفة...

بعد ساعات عشر، وصلنا إلى برلين.. وصباح الأحد، كنّا في «لياخ»، وهي قريةٌ صغيرة.. أقمنا في كامب مؤقت، فيه كلّ شيء منظم: مواعيد الطّعام والنّوم، وغير مسموح باستخدام غلاية كهربائية.

وعلى الرغم من حرصهم على النّظافة، فإنّ الأقذار كانت منتشرة في الحمّامات والمراحيض، ويبدو أنّ اللاجئين لم يمتلكوا ثقافة النّظافة التي هي أساس الحضارة، أو يفعلون ذلك بسبب الكسل كي لا يقوموا بفرز «الزبالة» ضمن أكياس متعددة لكلّ نوع، فيضعونها في كيس واحد ويرمونها في الحمّامات.

الأسرّة من الخشب الثقيل، والفراش ذو ضغطٍ عال، ملحقة بها خزانة، المكان مريحٌ نظيف في العموم، وقد وزّعوا علينا أدوات للتنظيف ومعجون أسنان وفرشاة ومعطرًا للجوّ. المطابخ مجهزةٌ بشكل جيد، والمطاعم فيها كلّ شيء... لكنّي لم أستسغ الطّعام الألماني!

في الكامب المؤقت، لا يوجد راتبٌ، ويدفع الصّليب الأحمر 80 يورو كلّ أسبوعين للشخص.

بعد فترة تجاوزت الأسبوعين، استطعنا الحجز إلى هامبورغ.. ورافقنا «حليم» لأنّه لم يستطع الحجز إلى «كييل»، فالحجز من الآلة لا يتم إلا داخل المقاطعة فقط.

ودّعني «حليم»، وبقي على تواصل معي على «فيسبوك»، ورحل «غالي» إلى بلد لا أعرفه، ولم يرسل لي رسالة، على الرغم من وجود رقم هاتفي معه. وتركني وسط فوضى من مشاعر القلق والعتب والعزلة.

بعد مرحلة الكامب المؤقت، فرزونا إلى «هايم»، وأصبحنا تابعين لمنظمة «سوسيال آنت»، وهي ترعى الأجانب الذين لا يعملون بشكلٍ عام، وليس اللاجئين فقط.

سجلت عنواني في البلدية، بانتظار موعد المحاكمة للحصول على اللجوء، وتسلّمت ورقة فيها معلومات، بالإضافة إلى موعد المحاكمة.

الغرفة فيها سريران وخزانتان وكرسي وطاولة، الحمّامات مشتركةٌ كالعادة. لم أرَ وجه شريكتي في الغرفة، فقد كنت أقضي معظم وقتي خارجها.

في أقلّ من ستة أشهر، وهي المدّة المفروضة لتعلم اللغة، أنهيت الكورس المخصص بكلّ المستويات.

أفقت صباح اليوم الأوّل من آذار وأنا متعبة، لم أستطع النّهوض من السّرير، عيناي تريان الأشياء بشكل مشوّه، كلّ شيء حولي يتحرّك ويبدّل مكانه بسرعة. أغمضتهما وحاولت أن أسترخي. مرّت ساعات قبل أن أسمع صوت شريكتي في السكن تناديني وتهز يدي. لم أستطع الرد. وعيت من غيبوبتي على منظرٍ ساحر...

لم أكن في غرفتي في الهايم... أنا في المستشفى، لا أعرف أين، لكنّ الجبال تحيط بالمبنى، يمكنني رؤية البياض الشاسع، الثلج لم يترك من الأشجار سوى ظلال باهتة.. بجانب سريري كتاب شيلر باللغة الألمانية، وبضع زهرات من البنفسج، وكأس ماء، وصحن صغير من الحلوى.

سألت الممرضة عن سبب وجودي في المستشفى، فقالت: «سيمرّ الطّبيب ويشرح لكِ.. في العموم، أنتِ بخير، تحتاجين للراحة والالتزام بخطوات العلاج».

كان الوقت عصرًا، ارتعش فنجان الشّاي في يدي وأنا أحاول ضبط أعصابي بوضعه على الطّاولة أمامي. كنت أعرف أنّك لا تؤمن بأبدية الحياة،

ولا بالحياة بعد الموت... قضينا زمنًا نحاول تقريب وجهات النّظر بيننا من خلال رسائلنا المتبادلة، لكنّنا لم نصل إلى حل. كلّما فكّرت أنّ المسافة قصرت بيننا، وأنّ الحبّ سيتغلّب على خلافاتنا، نختلف من جديد!

كم تمنّيت لو أمتلك اليقين بأنّ الحريّة تكون في حبّ شخص يحمل لي المشاعر نفسها، ولا ارتباط لها بالوجود والعدم، ولا علاقة لها بالفلسفة. ألا يمكن لي أنّ أومن بأنّ حريتي بين يديك فقط؟ تعتقد أنّ مفهوم الحريّة لا يمكن اختصاره بعلاقة شخصين، حتّى إن كنت أسعى للتخلّص من أفكاري المتشددة. كنتَ تملك حدسًا كافيًا لتفسير أيّ عبارة أنطقها على وجهها الحقيقي...

استوقفتني وسط أشجار الغابة، وقلت:

- لنعد إلى هناك، حيث يمكنني أن أتعبّد بهدوء على ضوء جسدك وهو ينير عتمة السّرير. هكذا يكون اتّصالي مع الله حقيقيًا.

كنت تقول لي إنّه لا يوجد انفصالٌ بين المادي والمعنوي، الجسد والروح، فتعلو ضربات قلبي وتصل إلى أذنيّ تاركة طنينًا مزعجًا فيهما... تراوحت مشاعري بين رفض لما سيحدث ورغبة في التلاشي بين يديك. لكنّي كنت آمل أن تصل العربة في الوقت المحدد، لأجد العذر في مغادرة المكان.

شعرت بلسعة برد تتسرّب إلى قلبي، قبل وصولنا إلى الممر المؤدي إلى حديقة المنزل على أطراف الدغل.. توقفتَ وضممتني إلى صدرك. حاولتُ التّملص بهدوء مدعية التّعب، لكنّك ضممت يديّ الباردتين، ووضعتهما داخل سترتك، وشددتني إليك ثانية. كانت بي رغبةٌ شديدة في النّوم واقفة هكذا، المطر يشتدّ والبلل يتسلّل إلى عظامي. سحبتني بقوة؛ تبعتك ركضًا إلى المنزل! لم أشعر بلسع البلاط البارد حين خلعت حذائي في المدخل

ومشيت حافية. ضحكت وأنت تتأمل هيئتي وتلفّني بمنشفة، قائلًا: «جفّفي شعرك جيدًا، ستصابين بنزلة برد».

أدركت والمطر يجلد النّوافذ والأبواب في الخارج أنّي سأبقى ليلتي حبيسة هذا البيت المرعب، بقاعاته الكبيرة الفارغة وغرفه الكثيرة المغلقة.. لم يكن أمامي بدّ من خلع ملابسي الخارجية، واستبدال غطاء أحضرته لي بها. لففت جسدي جيدًا، وتكورت على الأريكة قريبًا من النّار. لم آبه في تلك اللحظات لسخريتك من منظري، ولم تستفزني ضحكاتك المجلجلة. كنتُ على حافة نعاس يغمرني بوهج الدّفء الذي ترسله المدفأة وقلبي!

جسدي بقي ساكنًا على وضعه، حتّى أنفاسي كانت هادئة تمامًا، وكأنّ صدري لا حياة فيه! اقتربت بكرسيك نحو الأريكة، شممتُ رائحة دخانك.. وعطرك.. كنت قريبًا جدًا، استطعت تحديد المسافة التي تفصل أنفاسك عن وجهي! همستَ:

- ليس مناسبًا أن تنامي هنا.. هل آخذك إلى غرفة النّوم؟ انهضي «هيفين»، وإلا سأضطر إلى حملك.

كنت خائفة من إصدار أيّ حركة تنبئ عن صحوي. تردّدت كثيرًا بفتح عينيّ حين لامست شفتاك خدي، أحسست بالفزع فقد تشوشت الرؤية لديّ وجسدي يهتز بين يديك، والغطاء ينحسر، وأنفاسك الممزوجة بعطر دخانك تلهب وجهي.

غصت عميقًا في الصّوف الطّري للفراش، وسحبت الغطاء فوقي.. أغمضت عينيّ هربًا مما يحدث.. شعرت بشفتيك تمسّان جسدي برقةٍ متناهية من مفرق شعري حتّى قدمي.. أحسست بخفة جسدك وكأنّه لم يكن موجودًا.. ارتفعت عاليًا فوق غيمة بيضاء.. وخلال لحظات، اتّقد ذهني بالشّهوة إلى الطيران، لم أتيقن وجودك هناك فوق تخومي تمارس نشوتك

بذلك العنف والاشتعال حتّى هزّتني يدك.. وسمعت صوتك الملهوف يستجديني أن أصحو من غيبوبتي.. عندها فقط، لمست بحواسي حضورك، وانتبهتُ لمائك المنساب فوق جلدي.. هنيهة صحو قيّدتني بالرعب! نهضت مسرعة إلى الحمّام.. لسعتني برودة الماء، قبل أن أنتبه إلى جرن تتصاعد منه الأبخرة السّاخنة ممزوجة بروائح عطرية لنباتات شتى! غمست أصابعي لأقيس درجة الحرارة، فعلقت بها زهرات البابونج الصّغيرة.. أدهشني الأمر وكأنّني في حلم.. غطست بكامل جسدي داخل الماء... انفتح الباب ببطء، ورأيتك تقف أمامي بكامل رجولتك.. قلتَ برقة:

- أخفتِني حدّ الهلع... ما الذي حدث؟

سرت نحو الباب. كاد قلبي يتوقف عن الخفقان عندما لم تستجب أكرته لأصابعي. حاولت مرّة ثانية، وثالثة... نظرت إليكَ وجسدي يرتعش. أبعدتني عن الباب، وحاولت فتحه من دون جدوى! غامت الرؤية أمام عينيّ، وترنّح جسدي صوب الحوض. تركتَ الباب وتلقفتني بين يديك، أجلستني على كرسي صغير، وحاولت تهدئتي. تعرف أنّي أعيش بلا أبواب، وبلا مفاتيح، أهوى الجبال، وأفضّل أن تقتلعني الرّيح وتأخذني حيث تشاء! لم تشغلني قبل الآن فكرة البقاء وراء باب مغلق لأنّي لا أستطيع العيش إلا في بيوت مفتّحة الأبواب! ربّما لم تدرك كم تخنقني الأماكن المغلقة! وكم أخاف الأبواب التي لا تنفتح بسهولة!

ثقل رأسي بهذياني، وصرتُ أسمع صدى العجلات من عمق الغابة، أعقبها صوت أجراس خفيف. ثمّ بدا واضحًا أنّ أحدًا ما يتقدّم في الممر الطويل الخارجي للمنزل! همستُ منبهة إيّاك لما يحدث في الخارج. رددتَ بقلق:

- لا بدّ أنّكِ واهمة.. مَن سيأتي في هذا الوقت وفي هذا الجوّ العاصف؟ حاولي أن تهدئي فقط ريثما أستطيع فتح الباب.

رُسِمت بالأسلوب نفسه. شَطَر صاري السّفينة اللوحة إلى نصفين: الأوّل يظهر البحر الهائج وتلاميذ المسيح الاثني عشر في حالة رعب، والثاني بعد هدوء العاصفة.

أذكر أنّ هذه اللوحة سُرقت منذ سنوات، ولم يعرف أحدٌ مكانها!

استنفرت حواسي كلّها، واضطربت دقات قلبي وصوتٌ أنثوي يتسرّب إلى سمعي، يخرّش روحي بضحكةٍ مقتضبة مكتومة وكأنّها صدى فأس تحتطب أعصابي.. أيعقل أن تكون في حياتك امرأة غيري؟

أصواتٌ آتية من الغابة. هدوءٌ يخيّم بعد توقف المطر، ويبدو جليًا أنّ أحدًا يحتطب. لكنّ الصّوت قريبٌ كأنّه في الحديقة! يا إلهي، أكاد أشكّ لقوة الصّوت في أنّه وراء النّافذة. أرفع السّتارة بحذر وضربات قلبي تصمّ أذنيّ. ألمح شخصًا يبتعد في الممر يحمل على ظهره كيسًا يبدو من انحناءة ظهره أنّه ثقيلٌ جدًا. رماه فجأة قرب شجرة في أقصى الحديقة بجانب السّور، وراح يحفر بسرعة تنبئ عن توتر. ترك الفأس للحظات، تلفت حوله... انمحت المسافة بيننا، كان قريبًا حدّ أنّي شعرت بأنفاسه تلفح وجهي! تلك النظرة... ذلك اللون الأزرق لبحر ساعة الظهيرة!

توقف قلبي عن الخفقان، وتجمّدت أصابعي وأنا ألمح رأس القتيل. كان ضوء القمر ينسكب فوقه فضيًا رائقًا.. حدّقت جيدًا في الجثة التي بدأت تتحرّك محاولة الخروج من الكيس، كصاعقة نزلت نظرتها المستجدية في قلبي. «إنّها لينا» صرختُ بأعلى صوتي، حينها، اعتلى الشّبح السّور، وقفز إلى الخارج.. انتبهتُ إلى سجني الخانق وقضبان الحديد المحيطة بالنّافذة والهدوء المريب حولي.. تلاشت الأصوات، لا عربة في الخارج، لا أثر لوجود أحد داخل المنزل! بدا كلّ شيء ساكنًا سكون الموت.. ما يحدث لا يمكنه أن يكون حلمًا!

تراءى لي عبر النّافذة ظلّ شخص يعبر الممر مسرعًا، ويلتفّ حول المنزل إلى الجهة الشّرقية. لم أعد أستطيع الصّراخ، بحثت عيناي في أرجاء الغرفة عن شيءٍ أستطيع أن أدافع به عن نفسي ضدّ أيّ هجوم مفاجئ، فلم أعثر سوى على حامل لوحات محطم استند إلى الحائط تحت النّافذة وكأنّه سُلّم للنّجاة! لم يقاوم خشبه المتصدع كثيرًا، استطعت أن أكسره بسهولة، وتحصّنت فوق السّرير. راودني إحساسٌ بالطمأنينة جعلني أغفو وأنا على جلستي تلك للحظات فقط، قفزت بعدها من السّرير وأنا أرتجف، حتّى استوعبت أنّ الصّوت الذي هزّني لم يكن سوى صوت خطواتك في الممر، فقد انفتح الباب وسدت مكانه قامتك التي زادها هيبةً ضوءُ شمعةٍ ينوس في الزاوية. ركضت إليك واحتضنتك... كان جسدي يهتز بنشيجٍ عنيف. اكتفيتَ بمسح دموعي، وضممتني مربتًا ظهري: «كفى، أفهم لحظات الخوف التي عشتِها هنا، أرجوك كفى».

أشرتُ بإصبعي إلى الركن الذي تكومت فيه اللوحات، أردت أن أسألك: «من أين جاءت لوحة رامبرانت؟»، لكنّي فوجئت بأنّ المكان خالٍ من أيّ لوحة!

****

قلبي لم يعد يحتمل تلك الصورة المرسومة بمنتهى الدّقة لملامح وجهك وأنت تطبع على يدي قبلة الوداع. أمواج النّهر بدت مضطربة، والسّماء عكست مزاجها الرّمادي فوق صفحة الماء، فبدا مكتئبًا مشوشًا حدّ أنه تراءى لي أنّ الماء يسير بشكلٍ عشوائي، مع إدراكي الكامل لعدم وجود تيارات في هذه البقعة منه!

كان عليّ أن أتابع السّير بعيدًا عن النّهر لأقطع المسافة المتبقية في أقلّ من نصف ساعة، لأصل إلى موعدي معك في الوقت المناسب. كما توقعت... لم تكن هناك!

طيلة عامين من علاقتنا المجنونة لم تصل قبلي إلى موعد! فرشت شالي الصّوفي على المقعد، وجلست فوقه.. وضعت مظلتي وحقيبتي جانبًا، وأغمضت عينيّ.. كنت أنتظر وصولك وجفناي مغلقان.. خطواتك الحذرة الخفيفة لم تنجح في خداعي، التقطها سمعي المرهف، كما التقط أنفي رائحتك التي ملأت المكان.. جلستَ بجانبي، أمسكت يدي.. جفل القلب على الرغم من توقعاتي الدّقيقة. همستُ: «تأخرت!». قلت: «رغمًا عني». و...

لم تنظر خلفك وأنت تمضي عبر الممرات الضيقة للحديقة، وتختفي في الشّارع الخلفي، تابعتُ خطّ سيرك حتّى أضعتك في الشّارع الرئيس وسط ضجيج العربات والباعة.. عندها، فتحتُ عينيّ على أولى قطرات المطر التي داعبت أنفي، وخلّفت إحساسًا بالمرارة في روحي. فتحت مظلتي فوق حقيبتي، وتركت المطر يتسلّل إلى عنقي العاري ونظراتي تتفحّص موقع قدميّ!

مرّت سنوات قبل أن تصل إليّ أولى رسائلك.. كان الوقت عصرًا، وأنا أتأهب للخروج من المنزل لأزور مقبرة العائلة، بعد دفن ابني الصغير الذي مات في جائحة الكوليرا.

ما الذي ذكّرك بي؟ ارتعشت يدي وأنا أخبئ الرّسالة في جيب معطفي، وألتفّ بشالي جيدًا، وأتابع سيري إلى المقبرة.

على مقعدٍ بارد جلستُ قرب وحيدي... أزلتُ الأعشاب النابتة بشكلٍ عشوائي فوق القبر، وزيّنته بالورد، وتأملت غيابه في حضور الحجر الصّامت. لمست أصابعي رسالتك مرارًا؛ رغبةٌ عنيفة تدفعني لفتحها، وأخرى تجعلني أتريث... أخيرًا، غامرت بفض المظروف. تأملت خطّك الجميل المرتب في بداية الرسالة، ولاحظت اهتزاز الحروف في الأسفل وارتباكها!

«... صديقتي..

اسمحي لي أن أناديك هكذا، فقد كنتِ كذلك دائمًا. لا أشكّ في أنّ انفصالنا لم يترك أثرًا سلبيًا في القلب، أكاد أكون على يقين بأنّ كلًا منا ما زال يحمل للآخر مشاعر الودّ، وأنّ ما كان من اختلاف أدّى إلى فراقنا لن يستطيع أن يئد إحساسنا بالقرب، وإن بعدت المسافات.

صديقتي العزيزة..

أحتاج إلى شخصٍ أحدّثه، أناقشه، أختلف معه وأتشاجر. لم أجد غيرك! فأنت الوحيدة التي تحتويني بكلّ تناقضاتي. كم من زمن مرّ عليّ وأنا أحمل رغبة الحديث إليك في القلب، ولا أجد فرصة للقائك! ويبدو أنّ القدر لن يمنحنا هذه الفرصة. تذكرين آخر لقاء لنا؟ يومها، رفضتِ أن تستمعي إليّ، رفضت حتّى أن أودّعك كما يليق بأميرةٍ متوجة على عرش قلبي. ما زلتِ ملكة متوجة في القلب، وإن بدا لك هذا الأمر مضحكًا. عرفت خبر موت ابنك، وتألمت جدًا.. للحظات، عزيزتي، شعرتُ بأنّي فقدت قطعة مني؛ أكاد أكون على يقين بأنّه آثر الرحيل كي لا يتربّى يتيم الأب. تعلمين، هيفين، أنّي منذ صغري ضعت بين تيارين: والدي الضابط الذي أرادني عسكريًا قويًا مثله، وأمّي المتدينة التي زرعت في نفسي حبّ الدّين والأخلاق والمثل العليا، وأنّي تمردت عليها بعد أن أصبحت شابًا، ووجدت نفسي في مواجهة أسئلة الحياة الأكثر تعقيدًا عن الموت والعدم. لا حريّة، لا أمل، لا رغبة في الحبّ.. تدركين مقدار القسوة والفراغ والقحط الذي عشته بمشاعر مؤجلة دائمًا. كما تطبق المقصلة على عنق إنسانٍ بريء، أطبقت تلك السّنوات على روحي. ربّما يكون هذا ما دفعني لدراسة القانون بعد نهاية تلك السّنوات القاتلة.. لقد خلق فيّ ذلك السّجن الرّهيب المسمى (أكاديمية عسكرية) رغبة الانعتاق من أسر كلّ شيءٍ في الوجود...

عرفتُ أنّ الإنسان ماهيةٌ أخلاقية سامية، استهواني موضوع الحبّ والجمال وحبّ الإنسانية، فكتبت عن السّعادة من دون أن أصل إليها. وكأنّ

الإنسان محكومٌ بضياع السّعادة من يديه، يا عزيزتي. أتصوّر ابتسامتك، فيها من المرارة أضعاف ما فيها من السّخرية! معك حق، لن ألومك، فمثل هذا الكلام يظهرني أمامك بعد هذه السّنوات إنسانًا لم يكن يعرف ما يريد بالضبط، لكن أرجو ألا تنظري إليّ على أنّي إنسانٌ غير سوي. تدركين الظّروف التي جعلتني أنفصل عنك؛ لا أشكّ أنّك عرفتِ ما حدث تلك الليلة...

كنت أمام خيارين قاسيين لا ثالث لهما.. لا أدّعي أنّه كان زواج مصالح، ربّما بالنّسبة لأبي كان كذلك.. بالنّسبة لي، لا أنكر أنّها كانت تروق لي. أعرف أنّ الحديث عنها فيه من الفظاظة ما يجرح مشاعرك، لكنّي أدرك أيضًا أنّك تودين معرفة ما حصل بالضبط كي ترتاحي من الأسئلة المُرّة. مع هذا، عزيزتي، يكفيك أن تعرفي أنّ مكانك في القلب لا يمكن أن يحتله أحدٌ، وإن كان الأمر في الظاهر يوحي إلى عكس ذلك.

كلّ الأعمال أجدها مملة مقرفة بعيدة عمّا أفكّر به، ربّما لهذا رضيتُ أن أمتهن التّدريس في الجامعة، تعويضًا عمّا فاتني من الحياة في أعمال لم تكن تلامس روحي، فهذا العمل قد أتاح لي أخيرًا أن أمارس التّفكير بحريّة، وأن أنقل فكري للآخرين بالطريقة التي أراها مناسبة، وبالوسيلة التي أتقنها.

ربّما عرفتِ أنّهم منعوا عرض مسرحيتي الأولى، بحجة أنّها تحرّض على مقاومة الاستبداد ومحاربة التّسلط، وتدعو إلى الحريّة.. الحريّة فكرة يخاف منها الطغاة، ويخاف منها أصحابها!

أنا هنا، حيث كنّا آخر مرّة.. كم من أشياء تشهد على ثبات ذاك الحبّ في وجه الزمن! فراشٌ ضمّنا، أريكةٌ غفوتِ عليها، حمّامٌ انسكب ماؤه السّاخن فوق جلدك المشع بياضًا ودفئًا، غرفةٌ حُبستِ فيها بقية الليل، ولا تستغربي... حذاءٌ ما زال في الركن بجانب المدفأة... حذاءٌ صغير من القماش عانق قدميك الباردتين، قبل أن ألمسهما بأصابعي، وأدلّك جلدهما الشّفاف كي

الإنسان محكومٌ بضياع السّعادة من يديه، يا عزيزتي. أتصوّر ابتسامتك، فيها من المرارة أضعاف ما فيها من السّخرية! معك حق، لن ألومك، فمثل هذا الكلام يظهرني أمامك بعد هذه السّنوات إنسانًا لم يكن يعرف ما يريد بالضبط، لكن أرجو ألا تنظري إليّ على أنّي إنسانٌ غير سوي. تدركين الظّروف التي جعلتني أنفصل عنك؛ لا أشكّ أنّك عرفتِ ما حدث تلك الليلة...

كنت أمام خيارين قاسيين لا ثالث لهما.. لا أدّعي أنّه كان زواج مصالح، ربّما بالنّسبة لأبي كان كذلك.. بالنّسبة لي، لا أنكر أنّها كانت تروق لي. أعرف أنّ الحديث عنها فيه من الفظاظة ما يجرح مشاعرك، لكنّي أدرك أيضًا أنّك تودين معرفة ما حصل بالضبط كي ترتاحي من الأسئلة المُرّة. مع هذا، عزيزتي، يكفيك أن تعرفي أنّ مكانك في القلب لا يمكن أن يحتله أحدٌ، وإن كان الأمر في الظاهر يوحي إلى عكس ذلك.

كلّ الأعمال أجدها مملة مقرفة بعيدة عمّا أفكّر به، ربّما لهذا رضيتُ أن أمتهن التّدريس في الجامعة، تعويضًا عمّا فاتني من الحياة في أعمال لم تكن تلامس روحي، فهذا العمل قد أتاح لي أخيرًا أن أمارس التّفكير بحريّة، وأن أنقل فكري للآخرين بالطريقة التي أراها مناسبة، وبالوسيلة التي أتقنها.

ربّما عرفتِ أنّهم منعوا عرض مسرحيتي الأولى، بحجة أنّها تحرّض على مقاومة الاستبداد ومحاربة التّسلط، وتدعو إلى الحريّة.. الحريّة فكرة يخاف منها الطغاة، ويخاف منها أصحابها!

أنا هنا، حيث كنّا آخر مرّة.. كم من أشياء تشهد على ثبات ذاك الحبّ في وجه الزمن! فراشٌ ضمّنا، أريكةٌ غفوتِ عليها، حمّامٌ انسكب ماؤه السّاخن فوق جلدك المشع بياضًا ودفئًا، غرفةٌ حُبستِ فيها بقية الليل، ولا تستغربي... حذاءٌ ما زال في الركن بجانب المدفأة... حذاءٌ صغير من القماش عانق قدميك الباردتين، قبل أن ألمسهما بأصابعي، وأدلّك جلدهما الشّفاف كي

يتدفأ قلبك المرتجف. يا لتلك الليلة! لا ماء يمكنه أن يطفئ ظمئي لشفتيك، ولا معنى للمساء من دون يدكِ المندسة في طيات معطفي بحثًا عن الأمان والدّفء في جوّ ماطر عاصف.

فكّرت أن أطلب منك السّماح، فرأيتك تمدين أصابع الفتنة إلى شفتي، وتطلبين مني ألا أفعل... يا لقلبكِ، كم اتّسع لألمي! ابقي بخير. ابقي صديقتي دائمًا».

نهضتُ من بردي وارتعاشي، نهضت من ألمي، ومشيت أتعثر بحقول الورد المزروعة بين القبور وأنا أمسح دموعي.

*****

لست أدري، نكاية بي أم بك حاولتُ أن أكون مبهجة للنظر هذه الليلة؟ عريت عنقي من طوقه الأسود، وارتديت ثوبًا بلون الرّمال الدّاكنة مموج بأطياف زرقاء.. ولأوّل مرّة منذ سنوات، فككت ربطة شعري، وتركته حرًا على كتفي، انتبهت إلى أنّه طال أكثر مما أحتمل.. فمنذ انفصلنا، عمدت إلى قصه بشكلٍ سنوي في التّاريخ نفسه الذي غادرت فيه الحديقة مبتعدًا، تاركًا وراءك ذبحة في القلب، ما زالت تؤلمني في التّوقيت نفسه من كلّ عام!

الأعراض المربكة التي ظهرت على جسدي حيّرت الأطباء، وتناقضت أقوالهم في تشخيص حالتي، حدّ أنّهم اخترعوا أمراضًا لم أسمع بها من قبل يمكنها أن تنخر العظام وتفتت الخلايا، وتجعلني أسير ببطء نحو الموت.

لم يكذبوا في هذا الشأن (السّير البطيء نحو الموت)، فقد كنتُ أشعر به بوضوح.. أدرك أنّ جسدي دائمًا يرفض الحياة، وأنّه يخترع أمراضًا لا وجود لها كي يبلى ببطء وينتهي!

تركز الألم في البداية في فقرات ظهري، وأقعدني عن الحركة، وصار لزامًا

عليّ أن أقضي ساعات طويلة فوق سريرٍ خشبي قاسٍ، أحدّق في السّقف، ولا أسمع ما يدور حولي. تدريجيًا، فَقَدَتْ حاسة السّمع لديّ رهافتها المعتادة، وصارت الأصوات تأتيني من مكانٍ بعيد على شكل صدى يشوشه ضجيجٌ كأنّه صوت شلال.. أدرك أنّ الماء كان يحيط بي من كلّ جانب، وأنّي أغوص في عمق النّهر، لكنّ جسدي لا يبتل، ولا أصل إلى القاع...

طعامي اقتصر على وجبة واحدة في اليوم لأنّي كنت أخشى الدّخول إلى الحمّام، كان تعذيبًا منقطع النّظير، وددت فقط لو أتخلّى عن وجبة الطعام تلك، وأتخلّص من الحقن الملينة لأمعائي، وتلك الرّائحة التي تلازمني طيلة الوقت. حرصت خادمتي على مسح جسدي يوميًا بماء الزّهر، حتّى صرتُ أكره تلك الرّائحة. لماذا عليّ القبول بوجبات التّعذيب تلك؟ وهل رائحتي الشّخصية أصبحت منفرة إلى الحدّ الذي يصرُّ معه من حولي على تهوية غرفتي يوميًا، ورشها بالعطور، وإحضار الزّهور إليّ بشكلٍ منتظم، حتّى أصبحت أضبط ساعتي البيولوجية على موعد حضور الزّهر فأشعر بالبهجة للحظات، وعلى موعد فتح النّوافذ فأحسّ بروحي تحلّق عاليًا في السّماء، وعلى موعد تنظيف جسدي فأحسّ بالاشمئزاز لأنّ عينيّ خادمتي تتلصص على أجزائه الحميمة وهي تمسحها بقطن مبلول بماء الزهر؟! لكنّ أحدًا لم يفطن إلى أنّي بحاجة لعود ريحان أو حبق أو كمشة ياسمين أخبّئها في صدري لتحضرني رائحتك، كما كانت منذ قرون! الرّوائح الأخرى تطغى وتبعدكَ إلى مكانٍ قصي، لكنّها لا تستطيع انتزاعك من القلب!

*****

أتى الرّبيع بعد شتاءٍ طويل وأنا على أهبة الحبّ، تنبعث الحياة في أطرافي كما تنبت أزهار الرّبيع الصّفراء وسط أكوام الثّلج.. أنا والأزهار

لا نهتم لمظاهر الشّتاء المصرّة على البقاء في جنبات الحقول! كلانا يخترق تربته بهدوء وقوة، ويعلن بثقة عن حضوره في الزّمن الأبدي! لكنّ الشّتاء هذه السّنة مصرٌّ على سحق الزّهور البنفسجية الصّغيرة التي تتحدّى الثّلج في البقع الدّافئة التي فرضها ظلُّ الشّجر مانعًا الثّلج من الوصول إلى غايته. أشعر بأنّ روحي قد تجمّدت في قالب من الصّقيع، واتّخذت شكل زهرة بنفسج. لكن على الرّغم من الرّائحة المسكرة للبنفسج، فقدت إحساسي بكلّ ما حولي، وبدأت أفقد يقيني باحتمالات الدّفء المقبل... عيناي تعودتا البياض حتّى عشيتا، وأصابعي باتت تفتقد حرارة الحياة. كلّ ما حولي ساكنٌ بشكلٍ رهيب. السّكون يجمّد الزّمن أيضًا! هنا حيث أقف، لا وجود للزمن، وكأنّي جثةٌ في برّاد. يا إلهي، كيف يمكن لميت أن يحتمل لسع الحياة من جديد؟!

مرّ شتاءٌ طويل، أعقبه ربيعٌ قصير الأجل، وصيفٌ لم أستطع أن أقرأ ملامحه جيدًا، ورجع الخريف خطفًا، وأنا ما أزال على حدود الثّلج السّاكن عمق الرّوح لا يبارحها، حدّ أنّي لا أدرك تمامًا أهو عامٌ واحد أم عقودٌ أم قرونٌ! حتّى فاجأتني هزةٌ عنيفة اعترتني حين عرفْت أنّك آتٍ لزيارتي!

لا أعرف شيئًا عن ملامحي منذ قلبت المرآة لتواجه الجدار في الصّالة الضّيقة، واستخدمت أوراقًا للنوافذ تمنع صورتي من الانعكاس بالصدفة. وصلت إليّ برقيتك: «أنا في الطريق»؛ انتزعتني من قيد المرض، ووجدتني أقفز من سريري صارخة بفرح: «أخيرًا.. نعم، سيأتي!»، ووجدت جسدي حرًّا خفيفًا.. أحمله أم يحملني؟ لم يكن في متناول أحاسيسي في تلك اللحظة سوى ارتعاشة يدي التي تصبُّ الماء في دلة القهوة، وترتّب الفناجين في الصّينية، وتبحث عن مفتاح الموقد، حين سمعت طرقًا خفيفًا على الباب!

كنت مرتبكة حدّ افتقادي لكلمات التّرحيب المناسبة. في لحظة، طارت

كلّ الجمل التي حضّرتها في ذهني، ولم أعد أعرف من اللغة سوى كلمة واحدة: «أهلًا».. لعلّها كانت باهتة مسرفة في التّعبير عن الحياد!

تبعتني إلى المطبخ، لم تكن النّار التي لسعت يدي أشدّ وقعًا من ارتباكي الذي أفقدني القدرة على محاورتك وجهًا لوجه.. أصررت على صنع القهوة بنفسك لأشربها كما تحبّها من يديك! وقفت بجانبك، نظرت إليك محاولة ضبط أحاسيسي... لحظتها، تمنّيت أن أسألك: «لماذا تركتني لهذا الموت البطيء؟».

عدنا إلى الغرفة، جلسنا أحدنا بمواجهة الآخر...

وطال حديث الذكريات، حتّى نهضت تريد الذهاب! وقفت وصافحتني، وانحنيت. قبّلت جبيني، ثمّ خدي الأيسر قبلتين... خدي الأيمن قبلتين. حاولتُ السّيطرة على خفقات قلبي وارتعاش يدي... مسّت شفتاك شفتيّ مرتين، كما تلامس قطرة ندى خدّ جورية فتغدو أكثر اشتعالًا ونعومة. لم تكن قبلة، فقد شعرتُ بملمس مخملي لم تمنحني إياه في زمن عشقنا الضّاعق وجنوننا! حينها همست: «لا بأس، وإن كانت مشاعرك ملتبسة!». قلتَ: «أيّ التباس بعد القبلة؟!». نظرتُ إليك برجاء: «خمس دقائق أخرى... ألا تستطيع؟». جلست من دون أن تنبس بكلمة. قلت: «أودّ التّحديق في عينيك فقط... لا شيء آخر.». كانت يدك اليمنى فوق يدي اليسرى، أحطتها بيدي اليمنى وأرحتها على فخذك. وضعت يدك اليسرى فوق كفي، رأيتك كما من قرون مضت تشدّني إلى حضنك، تمسح شعري بكفّك وتبعده عن وجهي، تضع أصابعك تحت ذقني وتلهب شفتي بقبلة تدوّخني! لكنّي لم أتحوّل إلى يرقةٍ صغيرة، ولم تتحرّك من مكانك! لم تحاول الجلوس بجانبي. لم تحاول إحاطة كتفي بذراعك لتترك لي فرصة الاتكاء على كتفك، كما من قرون مضت!

عشت صراعًا رهيبًا بين رغبتين متناقضتين، كنت أدرك أنّنا نملك مجموعتين من الغرائز: القوة الدافعة للحب، والحوافز التي تنفّرنا من اقتراف الحماقات.. هو صراع بين قوتي الحبّ والعفة، نتيجته الظاهرية انتصار العفة في الغالب. قلت لي: «أنتِ أخمدتِ جمرة الحبّ وغمرتها بالرّماد، لكنّ الحبّ الذي أخمدتِه لم يمت، إنّه حيّ يشتعلُ في أعماقك، وقد انبثق بشكلٍ متغيّر، تنكّر بهيئة مرضٍ أصاب جسدك... مرضكِ هو حبّ متحوّل!».

صمتَّ طويلًا.. واكتفيت بتقبيل ظاهر يدي قبلة توحي بالوداع.. ساعدتني على النّهوض.. ووجدتني أمامك تغريني عيناك باحتضانك! بقيت جامدًا أمام يدي التي أحاطت كتفك، ورأسي التي استراحت عليه للحظة.. ثمّ رحلت...!

استلقيتُ مجددًا، شعرت بثقل جسدي، بارتباكي، بنبضي المضطرب، بارتعاش يدي؛ كلّ ما حبسته خلال ساعة تفجّر صاخبًا صارخًا.. ووسط ذهولي، كانت رائحتك تملأ جسدي! أصابعي نبّهتني لعطرك، شممته بعمق، أغمضت عينيّ.. قضيت ساعات وأنا أحاول الاحتفاظ برائحتك.. كنتُ أخشى أن أشمّها كثيرًا كي لا تتلاشى بسرعة!

منذ سنوات، لم أكن أستطيع تخيّلك تقبّلني.. في أعماقي، أرفض الفكرة كما لو أنّي سأرتكب جريمة! لكنّي الآن سمحت لك بتقبيلي من دون أن أشعر بالذنب، بل أحسست أنّي لم أكن يومًا لغيرك، وأنّ الزمن يبدأ عند هذه اللحظة التي لامست فيها شفتاك شفتيّ.

«أنتِ لي، ولن تكوني لسواي».. هكذا كنتَ تهمس في أذني بحرارة على مدى الرؤيا التي أنهض منها لأشعر بأنّ الدّم يجري في عروقي من جديد، وأنّك تمتلكني بذلك القدر من العنف الذي أصبحتَ تخشاه وتعده متناقضًا مع التّحضر!

****

لم يغلبني النّوم منذ أن أجرى الطّبيب عملًا جراحيًا لاستئصال مرارتي.. لم تمضِ سوى بضع دقائق، وهو يتحدّث إليّ بينما يعقّم يديه ويرتدي القفازات ويضع الكمامة، حتّى شعرتُ بدوخة رمت جسدي على السّرير، ولم أعد أسمع شيئًا.. ما أعيه أنّ أمرًا غير طبيعي حدث في جسدي.. فقد أفرعت فيه شجرة كينا تطاولت حتّى لم أعد أستطيع أن أرى ذؤاباتها، كنت أحتضن جذعها الأقرب إلى لون القرفة وأشمّ رائحة مسكرة.. حاولت رفع يدي لأقطف من أوراقها فسقطتُ مغشيًا عليّ.. كنت أصرخ بصوتٍ أخرس، ولا أستطيع تحريك جسدي المشلول!

حين أفقتُ على وجه الطبيب وابتسامته الباهتة، كان العطش يقتلني.. همست: «ماء»، لكنّ يدًا لم تمتد إليّ بقطرة تبلّل شفاهي.. أحسست بذلك الثّقل الرّهيب لجسدي، فلم أكن أستطيع تحريكه بأيّ اتّجاه.. همست ثانية: «ماء».. ابتسم الطبيب، وقال بحزم: «ليس الآن»! كنت أشعر كما لو أنّي وسط الجحيم أعاني عقاب تانتالوس، ملك ليديا الأسطوري النمّام الذي باح بسر الآلهة للبشر، فها أنا وسط بحيرة من الماء الآسن أعوم، ولا شاطئ أستطيع الوصول إليه! أعاني من الجوع والأشجار فوقي مليئة بالثمار ويدي لا تصل إليها.. أعاني من العطش والماء حولي كريه الرائحة بغيض الشكل.. ولا أملك سوى أن أهمس: «ماء».

- لديك زائر.

عبارةٌ لم أستوعبها في البداية، حتّى لمحتُ وجهك وسط باقة القرنفل وابتسامتك تضيء ملامحك المتعبة! لمستَ أصابعي برقة، ووضعت الورد قريبًا من سريري، وجلست تتأملني.. قلتَ بعد برهة:

- بمَ تشعرين؟

- بخير، لقد نجوت، لديّ إحساس شجرة بلوط بلغت العشرين من عمرها، وكساها لحاءٌ من الفلين، أطفو فوق الماء، بل أطفو في الفضاء!

- أيؤلمك الجرح؟ أخبريني بمَ تشعرين؟
- العضوي دائمًا ثانوي، لا أهتم لألم الجسد، ولا يساوي عندي كلمة تطعن الرّوح!
- سلامة روحك من الطّعن، وسلامة جسدك من الجراح.

يروقني أن أتأمل ملامحك حين تنطق الكلمات الحميمة، فأقيس معها نبض قلبك الذي يخفق بين ضلوعي!

كانت طاولتي تحفل بأصص القرنفل البيضاء، قطفتُ لك واحدة وقدّمتها لك. أمسكتَ يدي بحنان، وقلت:

- أهديك نجمة، بدلًا منها، أضعها حيث تشائين.
- بل حيث تشاء.
- إذن، سأضعها فوق الجرح حتّى يشفى.
- حسب خارطة الجرح، أتظنّ أنّ بإمكانك وضعها هناك؟
- إذا سمحتِ لي.
- هل تستطيع أن تشرح لي ما يحدث بيننا؟
- أنت وأنا ممتلئان بمشاعر ملتبسة: إقدام وإحجام، رغبات عاصفة وقناعات متناقضة. أعتقد أنّ علاقتنا فيها من الخصوصية ما لا يمكن فهمه، حتّى لنا.
- عندما تنظر في عينيّ تكفّ الأرض عن الدوران! تلتبس مشاعري المرتبكة بصمت المكان وسكونه، لا ينقذني من أرقي بكَ سواك!
- أعرف ذلك، أدرك مشاعرك بروحي وجسدي وكلّي.. لا يخفى عليّ أيّ تفصيل مما حدث ومما تشعرين به.
- قد لا تعني العودة إلى تفاصيل حدثت بالنّسبة لي توضيحًا، أو تأكيد وجهة نظر، لكنّي رأيت أن أقول ما بقلبي لأنّي اعتدت ذلك حين

يتعلّق الأمر بك. ربّما يكون الاعتياد نوعًا من الإدمان السّيئ على طبعٍ مزعج، أتمنّى بكلّ صدق لو تخلّصت منه!

ابتسمت برقة وأنت تتناول يدي بين كفيك وتقرّبها من صدرك:

- أخيرًا! صار بإمكانك المشي.. ستنهضين بعد قليل لنغادر هذه الغرفة الكئيبة إلى المنزل.

****

كان الطّبيب يزورني كلّ يوم في ساعة تسبق فترة الغداء بوقت قصير.. زيارته كانت تثقل قلبي بالكآبة.. لم أحب يومًا زيارة الأطباء، أكره رائحة ملابسهم المعقمة ونظراتهم الفاحصة وأصابعهم الشمعية التي تجسُّ الجسد بلا مبالاة تشعرني بعدم إنسانية ما يفعلونه.. لماذا عليّ أن أحتمل تلك الزّيارات المربكة التي تخرجني من سكوني بقصد إدخالي في دوامة الحياة من جديد؟! الطبيب والممرضة التي تفرض وجودها عليّ بأنواع الأدوية والحقن والحكايات المملة يوميًا عن بلادها الدّافئة البعيدة؟! والخادمة التي تصرّ على أنّ طعامها الاستوائي لا يمكن لأحد أن يقاوم رائحته، فكيف بطعمه؟! وعلى الرغم من إبداء نفوري من رائحة طعامها النفّاذة لكثرة البهارات التي تستخدمها، فإنّها تبتسم برضا!

اليوم، أبدى الطّبيب دهشته وهو يقيس ضغطي.. نقر بأصابعه على صدري مرّات وهو يسمع دقات القلب، وهمس باستغراب: «ما الذي حدث، هيفين؟ يبدو لي أنّ معجزة هبطت على جسدك من السّماء! وضعك أربكني منذ البداية؛ ارتفاع الحرارة عندك مقلق، مع هذا لم يكن في جسدك شيء يدعو إليه! والآن، هذا التوازن يربكني!». أعاد السمّاعة إلى مكانها، وقال: «لا داعي للحقنة اليوم، لننظر في الغد ماذا يحدث!».

حين أغلق الباب وراءه، نهضتُ مسرعة إلى المرآة.. لففت شعري بشبكة ملونة، وغرست فيها زهرة قرنفل.. مسحت وجهي بماء الورد، وتأملت عينيّ المجهدتين وقد عاد إليهما بريقهما! فاجأتني تلك البقع البنية على ظاهر كفي حدّ الهلع.. ما الذي يحدث؟ أهي آثار الزّمن؟ كنت أعتقد أنّ الزّمن مرّ بي ونسيني على حافة السّكون راقدة في كهفٍ بعيد، تحميني من عينيك فكرةٌ سحريّة كتلك التي تستخدمها ربّات البيوت في حفظ الطّعام، حين يضعنه في زجاجات مغلقة ويرصفنه في أقبيةٍ مظلمة!

تنهّدتُ بعمق حتّى شعرت بوخزة في صدري أربكتني، فهي دليل حياة لم أعتدها منذ دخولي مرحلة السّبات الشّتوي! أدرت وجهي عن المرآة، ومسحت دمعة أثبتت لي هي الأخرى أنّ الحياة في عروقي تتبدّى بأطياف قوس قزح، وأنّني أخرج إلى حيث الحركة.. التجدّد.. التّعفن.. والانتهاء! مع هذا، أبديت استعدادًا لقبول الموت بقبولي دخول الحياة من جديد!

من النّافذة، لمحتك تقف في الطّريق الصّاعد إلى المصح مع الطّبيب، كانت إشارة يديك توحي بانفعال وعدم رضا، والطّبيب يرفع عصاه مشيرًا جهة الشّرق، لم أفهم شيئًا مما يدور، لكنّه أثار ريبتي وفضولي.. مع هذا، نسيتُ الأمر حين وصولك!

جلستَ قربي على الأريكة، وأشعلت تبغ الغليون، ودخّنت بصمت.. أحرجني صمتك، سدّ عليّ المنافذ للبدء بحوار، فنهضت لأحضر لك القهوة. مددتَ يدك بسرعة وأوقفتني: «اجلسي، لا أريد شيئًا.. ثمّ لماذا تصرفين الخادمة حين أزورك؟». همستُ بارتباك: «أكره أن يشاركني أحدٌ حضورك». استدركتُ بعد صمت: «عمّا كنتما تتكلّمان، أنت والطبيب؟». نفختَ الدّخان بهدوء وقلت: «لا شيء مهم؛ لا تشغلي بالك». جوابك جعلني أنشغل حقًّا!

من يعرفك أكثر مني؟ لا تريدني أن أعرف، لا تريد أن ترهقني بمشكلاتك، لا... يا إلهي، ماذا هناك؟ قلتَ لتقطع عليّ تساؤلاتي:

- لم تخبريني كيف تقضين وقتك هنا.

- أموري جيدةٌ.. الحياة هنا مريحةٌ تمامًا؛ لا أرى أحدًا، لا ضجيج، لا مشكلات.. سكونٌ تام نقي مريح. أن تعيش بروحك منتهى السّمو والبهجة.

- مع هذا، أشعر بأنّ الأشياء ليست كما تبدو عليه من طهارة وسمو! هل تعتقدين ذلك هيفين؟ يجب أن تعيشي حياتك إنسانة.. أحسُّ أنّ طريقة العيش هذه تنفي عن الإنسان إنسانيته؛ ليست الرّوح فقط من يعبّر عن إنسانية الإنسان.. صحيح هي تميّزه كمخلوق منفصل عن الطبيعة، ومعارض لها في الأساس، لكن يحتاج الإنسان لنصفه «الحيواني»، إن صح التّعبير، ليبدو إنسانًا مكتملًا.

- لديّ يقين بأنّ الإنسان يبدو أكثر إنسانية حين يكون أكثر مرضًا؛ يشفّ ويرقى بمشاعره وأحاسيسه.

- ليس كذلك، هيفين! لماذا لا يكون أكثر سأمًا واكتئابًا، بل أكثر شراسة وكراهية؟ كيف ستتغلّبين على الموت وأنت تحملين هذه القناعة؟!

- نعم، اقتنعت بأنّ المرض يسمو بالرّوح حتّى تطلب الموت المريح، وأنّ الحياة هناك في المدن لا تعدو كونها عيشًا فظًا لا معنى له.. لكنّي تغيّرت الآن، أشعر بأنّي شفيت تمامًا.

كنتُ أعرف منذ البداية أنّ روحي لن تشفى إلا بوجودك معي.. أدركت هذا منذ اللحظة التي تسلّل المرض فيها إلى جسدي، بعد أن عرفت خبر

زواجك.. استسلمت له وأنا راضية، ربّما لأنّك قلتَ لي يومًا: «إنّ الأرواح العظيمة تعاني بصمت».[1]

لأجل ذلك شعرتُ بالسّلام، على الرغم من الألم. أمّا الآن، فشعوري يختلف بالزمن وبك.. أحسّ أنّكَ لي بكلك.. في السّابق، لم يكن ضروريًا أن تعيش معي لتكون لي؛ منذ اللحظة التي اتفقنا فيها على أنّنا واحد، ولسنا شخصين منفصلين، صرنا بالضرورة ملكًا لنا.. الآن، أحسّ بحاجتي لأن ألمسك، أن أختبئ في حضنك كما في السّابق.. أن أزيل تلك القشور المرعبة عن أحاسيسي، وأنفض الجليد عن روحي..

****

نهضتُ من الأريكة، وضعت القماش والإبرة فوق الطاولة، قطفت قرنفلة وضعتها في شعري وأنت تتأملني! أعرف أنّك تشتهيني، وتودّ المحافظة على المسافة الآمنة بين جسدينا.. مشاعر ملتبسة لم أستطع حسمها، ويبدو أنّك لن تستطيع!

اقتربتُ منك، أخذت كفيك بين راحتيّ، همست:

- ملامحك لا تخفي الألم؛ هناك ما يعذبك.. ألن تخبرني به؟
- ثمّة أمورٌ كثيرة لا أدركها تتداخل وتتصارع في ذهني، وأحيانًا تبدو ضبابية، فلا أكاد أستبين ماهيتها.

كنت أملك من الحدس ما يجعلني أعي ما وراء الزّفرة التي أعقبت كلماتك، فقد نزلت في صدري وأحرقته! بدا واضحًا أنّها النّهاية، بات يقينًا أنّك لن تستطيع أن تخفي عني أنّ أيامك المعدودة في الحياة أوشكت على نهايتها.. وأنّك أردت أن تقضي ما تبقى لك معي وسط هذا الهدوء القاتل

---

(1) شيلر.

والسّكون الجليدي.. اقشعرّ جلدي للفكرة التي مرّت نفّاذة، وخلّفت وراءها انهيارًا كاملًا.. وجدت نفسي فجأة أتهالك على الأريكة بجانبك.. لم يكن في العالم ما يستحق في تلك اللحظة أن أصحو لأجله. مع هذا، لم تمضِ سوى ساعة حتى كان الطّبيب قد أنجز مهمة إنعاشي ونقلي إلى السّرير، وتصاعد لهب المدفأة.. وشممت رائحة عطرك من وسادتي!

كان عليّ أخيرًا أن أستسلم لفكرتك عن أنّ الحبّ لا يمكن إلا أن يكون جسديًا، حتّى في أقصى حالات قدسيته، لأستطيع قبول وجودك في سريري! عندما خبّأتُ رأسي في صدرك، شعرت أنّ الحدود تلاشت بين الشّهواني والعاطفي، بعد أن كانت ملتبسة مذبذبة؛ لم يعد هناك وجود لذلك الميزان الزئبقي الذي أمسكت به بإصرار لأقيس كلّ نبضة قلب، وأفسّر كلّ رعشة وكلّ كلمة وكلّ لمسة.. لكنّ وصيتك، بعد أن اشتعل البيت بحرارة جسدينا، بأن أطهّر جسدك بحرقه بعد الموت، وألا أتركه للتفسخ وحيدًا في عتمة القبر، جعلتني أتجمّد ثانية، وأندس في حضنك ساحبة الغطاء فوق رأسي.. لم أعد أحتمل فكرة ابتعادك عني، لكنّ الواقع جلدني بقسوة؛ أبناؤك وزوجتك هم من سيتسلمون جثمانك! أين سأكون في تلك اللحظة؟ همستُ وأنا أشرق بدموعي:

- لماذا تصرّ على سرقة الفرح مني؟ لماذا تغلق الباب بالموت بعد النّشوة؟ أحقًّا ستتركني؟ سنموت معًا هنا؛ لن أدعك تغادر هذه الغرفة!
- ليس بإمكاني، هيفين.. أقسم بكِ أنّي لو استطعت لانتهيت بين يديك.. أرجوك أن تفهميني؛ لا أريد أن تريني وأنا أغادر الحياة.. ربّما ذلك سيمنحك الأمل في لقائي ثانية.
- أنت في حلّ من أيّ شيء يلزمك بالبقاء قربي. ما أدركه أنّ انتظاري

لكَ لم يكن عقيمًا تمامًا، فها أنتَ هنا بجانبي مثلما تمنّيت.. ثمّة شيء أنتظر أن تقوله ولم تقله.. لكنّ ذلك لا يغيّر من الحقائق شيئًا، بل ربّما يُغني الواقع أكثر، ويترك فسحة للمخيلة لتغتني بحضورك، وبعدها ليتوقف الزّمن.

بالنسبة لي، الزّمن متوقف عند ماضيك مع زوجك؛ لا أستطيع أن أتخيّل أنّ السّنوات التي مرّت علينا ونحن في سكونٍ تام قد امتلكك فيها رجلٌ آخر!

كيف بكَ إذن وأنت تريدني أن أقبل فكرة إقدامك على الفعل ذاته؟ كثيرًا ما فكّرت بزواجك، وتساءلت عمّا شدّك إليها! كيف أحببتها؟ كيف ارتبطت بها برباط مقدس؟ دوّختني الأسئلة كثيرًا، وعلى مدى سنواتٍ كنت أرجو أن أشفى من إدماني بك.. قال لي الطّبيب: «يحتاج العاشق عادة إلى ستة أشهر لكي يسحب من جسده مادة الأندروفين المسببة لحالة الإدمان العشقي».. لكنّي -بعد سنوات- اكتشفت أنّي لم أشفَ، وأنّ الحبّ الذي رجوت الله أن أخرج منه بأقلّ قدرٍ ممكن من الخسائر قد تحوّل في جسدي إلى مرض لم يستطع الأطباء توصيفه أو معرفة أسبابه!

لا أدري، هيفين! قد لا يكون ذلك إنسانيًا على الإطلاق؛ أقصد حديثي عن حبي لها أمامك..

هل تحبّها؟

هل أسألك السّؤال نفسه؟

كنّا نحبّ المرأة نفسها...

يا إلهي، هل ترهنين حياتك له مقابل حبّه لشقيقتك؟! لكن ليس غريبًا؛ النّساء لا يمتلكن المبادرة، وهنّ دائمًا يتلقين الفعل كما لو

أنّه قدرهن، في العلاقة العاطفية خاصة، لأنّ الأنثى عمومًا تظنّ نفسها هدفًا، ويغريها أن تنقاد إلى الفخ المنصوب لها!

- وأنتَ، هل تحبّها؟

- أنتِ تصرين دائمًا على سماع ما يجرحك! دعينا من هذا الحديث.. ما رأيك لو نخرج بنزهة؟ الثّلج بدأ يتساقط!

اكتشفتُ، وبقليل من الدّهشة، أنّي تخلّصت نهائيًا من تلك الرّوائح الكريهة التي كان جسدي ينفثها في أثناء المرض. وبكثيرٍ من الاستغراب، فاجأني خاطرٌ ألحّ عليّ زمنًا حتّى بتّ أعتقد بصحته: لقد حدث ذلك حين سمعته يتكلّم عبر الهاتف بصوتٍ خافت في إحدى الليالي، لم أهتم كثيرًا، لكنّ عبارة استوقفتني وسمّرتني أمام الباب المغلق، وجعلتني أسترق السمع: «متى خرجتَ من السجن؟». من يكون ذلك السّجين الذي يتحدّث إليه؟ العبارة التّالية كانت أشدّ فتكًا بي: «أنتَ القاتل، وقد أثبت التحقيق ذلك.. بصماتك كانت على المسدس، وهي رأتك من النّافذة وأنت تطلق النّار على شقيقتها.»! مرّت دقيقة صمت قبل أن أسمعه يقول: «يدك وما تصل إليه». أذكر أنّي وقتها جررتُ جسدي إلى السّرير، ولم أنهض منه أبدًا.. من أين حصل قاتل شقيقتي على رقم هاتف زوجي؟ وما العلاقة بينهما؟

****

سُلَّم أحمر

هيفين...

الغابة من حولنا تذكّرني بسنوات الحرب. حين كنّا هناك، كثيرًا ما تساءلت: لأيّ هدف هذه المحنة؟ سيتحقق شيءٌ ما ربّما عندما لا أكون في الوجود! هل يعقل أنّي أحارب لأجل حياة لن أعيشها؟ كنت ذاهلًا عمّا حولي في أثناء الاشتباك، وذهني مستغرق في التّفكير بكِ.. سمعت صوت زميلي يهتف من خلال أزيز الرّصاص: «هيه.. أين ذهبت؟ اسمع.. تعالَ إلى هنا، ستصيبك الشّظايا العمياء».

إنّها الحرب العمياء! نظرتُ إلى الأفق البعيد.. كانوا يتقدّمون على الرغم من كلِّ شيء، أصواتهم تهزّ الفضاء، غناءٌ مبهم يأتي من جهتهم كأناشيد الكنائس؛ تراهم سينتصرون؟ هزّتني الفكرة: من لا يفكّر بحماية نفسه سينتصر! سينتصر من يؤمن بالقتال بصفته قضية أساسية في وجوده.. الموقع لا أهمية له في خسارة الحرب؛ ما بداخلي من يقين أو عدمه هو ما يحدد الربح والخسارة. منذ البداية، كان قائد الفصيل يقول لنا: «لا نريد أسرى، بل قتلى.. الحرب ليست لعبة أو نزهة؛ عليك أن تَقْتل قبل أن تُقتل». لماذا يعتقدون أنّ زيادة عدد القتلى ستجعلهم يربحون الحرب؟ هل حقًّا من يقتل أكثر سيبقى؟

إنّهم يتقدّمون بشجاعة فيها كثيرٌ من اللامبالاة والحماقة! لماذا عليهم أن يخوضوا الحرب؟ ألا يوجد خيارٌ آخر؟ إنّها أكثر الأعمال كراهية في الحياة! لكن ما يذهلني أنّ الرّب يستجيب لهم ويسمعهم، ويتغاضى عن جنودنا الذين

بدأوا بالتّراجع والفرار.. لماذا؟ أنا أيضًا أدعوه بإخلاص! المشكلة أنّنا ندعو الرّب نفسه؛ كلا الطرفين يعتقد أنّ الرّب يخصه وحده!

يمكن للحرب أن تحوّلني إلى آلة، إلى شخص آخر بلا مشاعر.. أن تنتزع مني عقلي وتفكيري، وتتركني في حالة هذيان وهلوسة. إلى حدٍّ ما كنت مرتبك التّفكير مشوش الرؤية، لكنّ الأمور ليست كذلك بالنسبة للجميع؛ البعض يمتلئون حقدًا، ويتبرمج دماغهم، ولا يفقدون السّيطرة على أهدافهم، لكنّهم بالتّأكيد يغدون بلا مشاعر. رأيت كيف يضحك أحد الجنود وهو يحشو مدفعه بالبارود! هل كان يعتقد أنّ منظرًا رهيبًا كهذا يدعو إلى الضحك؟ الجنود في لحظة ما يفقدون حواسهم، وتختلط أساليب التّعبير لديهم، فلا يفرّقون بين ضحك وبكاء! إنّهم يرفعون أصواتهم بالغناء! لمن ستكون الغلبة؟ أيّهما أقوى: صوت الموسيقا أم المدافع؟

نحن لا نعيش حربًا على جبهة.. فرق بين أن تخوض حربًا منظّمة على جبهة تدرك أنّ عدوك لن يأتيك من الخلف، وأن تقاتل عصابات يظهرون كالأشباح، حتّى من قمم الأشجار! أهو الرعب من صوّر لي هذا، أم أنّي حقًّا لم أعد أعرف من أين سيأتي العدو وأنا أنسحب صوب الغابة التماسًا لدرب كنت أعرفه يؤدي إلى إحدى القرى الآمنة؟

كان المطر يجلد الشّجر بعنف، والرّيح تصفر بقوة تجبر الطّيور المحتمية بقمم الأشجار على حبس أصواتها في حناجرها ودفن رؤوسها بين جناحيها.. لكن ثمّة بومة تنعب من وكرها الدّافئ في قلب شجرة سنديان ضخمة، يتردد صداها عبر الغابة، فترد عليها مجموعة غربان لا تكاد أماكنها ترى.. وتدوّم في الأرجاء نوبة نحيبٍ خافت، تعلو أحيانًا حتّى تثير الخوف في قلوب الجنود المنتشرين في الدّرب الضّيق.

كنتُ أسحب جسدي بصعوبة بالغة، ألهث وأتهالك من الجوع والتّعب،

أسند جسدي إلى شجرة، وأحمي كتفيّ بذراعيّ لدقائق، حلقي جاف تمامًا، تمنّيت للحظة لو أستطيع الحصول على بعض التبغ.. حاجة ملحة وشديدة، لكنّ التّعب أنساني تلك الحاجة وأقعدني أرضًا، لم أشعر برطوبة الأرض، ولا بطينها الذي التصق بملابسي، فقد وصل البلل إلى عظامي، ولم يعد يهمني المزيد.. أغمضت عينيّ، في محاولة للابتعاد عن المكان بمخيلتي، علّني أجد عزاءً باستحضار ملامحكِ.. هاجمتني صور الموت القريبة: القصف، احتراق الدّبابات، نفاد الذخيرة، هربهم وهم يجرّون الجرحى أو يحملونهم على ظهورهم.. لم يتبقَ معي سوى عشرات الجنود، كلٌّ منهم حمل ألم إصابته بصمت، وتوغل في الغابة بحثًا عن ملجأ آمن.

هل ستصلهم الإمدادات؟ كاد اليأس يصيبني بالجنون، لم أعد آمل بحصول شيء يعيد السّكينة إلى نفسي.. لن تنتهي هذه الحرب اللعينة، وسألقى حتفي قريبًا، وسيبقى جسدي في العراء متعفنًا، يخرج الدود منه ليأكل جسدي الذي تأملته يومًا في مرآتي، فوجدته مثيرًا للشفقة، بعد أن كان يضجّ حيوية وقوة، وينبض بالحبّ. تبسّمت لتلك العبارة التي فاجأني حضورها وسط هذا الكم من الدّمار حولي وداخلي. أيّ حبّ؟ لم أكن بحاجة للضحك بصوتٍ عال لأعبّر عن استيائي من الأفكار التي تنبت فجأة مثل عشبٍ ضار، فتلتفّ حول الرّوح لتخنق كلّ ما هو مبهج فيها. ضجّ جسدي كلّه بضحكٍ هستيري مكتوم. نظرت إلى الأعلى، كانت الغربان تحدّق فيّ باستفزاز، اقشعرّ جسدي؛ هل تنتظر موتي تلك الغربان المشؤومة؟ من سينقذني من هذه المجزرة؟ تخيّلت مناقيرها الحادّة تنهش جسدي، هل تصبح ذكراكِ نهبًا لتلك الغربان؟ هل ستحملها وتطير بها إلى أوكارها؟ ترى أين ستذهب وهي تحمل في أحشائها كلّ آلامي وذكرياتي ولذّتي وكلّ ما عشته معكِ؟ نفضت رأسي بقوة... كانت الفكرة الهمجية قد أوهنت قواي، حتّى أنّي لم

أستطع النّهوض من دون الاتكاء على جذع الشّجرة. ساقاي ارتجفتا بعنف، سرت بضع خطوات وأنا أتطوّح يمينًا ويسارًا. أهذا ما يسمونه سكرات الموت؟ شعرت بأنّي لن أسير أكثر من بضعة أمتار، فقواي خارت والجوع تمكّن مني. حذائي ارتطم بشيءٍ أفزعني، وبثّ في قلبي الرّعب.. رأيت يد أحدهم تغوص في الطين، لقد دست ذراع جثة لم أنتبه إلى أنّها في طريقي! انحنيت وسحبت الجثة، وأسندتها إلى جذع شجرة، تمتمت دعاءً لا أعرف متى حفظته، واستغربت أنّي أفعل أشياء لم أكن أومن بوجودها يومًا! ابتسمت بمرارة: «عندما نخسر الحرب، نتمسك بالآلهة لحمايتنا».

عندما استدرتُ لأتابع سيري، لمحت يد الضابط مطبقة على ساعته.. نظرت إليها برعب، كانت تشير إلى الثانية عشرة.. وحيث وضعها بالقرب من صدره، برزت من الجيب بضع أوراق وصورة ومنديلٍ مطرّز بحرفين!

كانت الصّورة لامرأة في العشرين من عمرها، تبدو بضحكتها مقبلة على الحياة، تمدّ يدها صوب الكاميرا بدلال وكأنّها تحدّث الشّخص الذي يلتقط الصّورة.. تجمّد قلبي للحظات.. تلك الفتاة في الصّورة.. تلك الـ.. ليس الأمر مجرد وهم أو حدس؛ إنّها صورة واضحة التقطتُها لزوجتي حين كانت في العشرين، حتّى أنّي أذكر هذا الثوب الذي ترتديه.. أذكره بوضوح.. حضرت تلك الليلة العاصفة وهي ترافق والدي إلى البيت الريفي، وأنتِ محبوسةٌ في الغرفة الجنوبية الموحشة.. يا لتلك الذّكرى، أيُّ شياطين أحضرتها الآن؟ هل الوقت مناسبٌ لمفاجآت من هذا النوع؟ فتحتُ عينيّ بدهشة وكأنّ أحدًا صفعني على وجهي.. ليست صفعة.. ليست.. نظرت إلى الضابط.. من يكون؟ غريمي! هل عشت كلّ هذا العمر معها مخدوعًا بحبّها الذي وصل إلى حدّ التّقديس؟ هل يعقل أن تكون على علاقة بهذا الضابط قبل زواجي بها؟ متى؟ وكيف؟ لمَ أخفت عني ذلك؟ هويت مرّة

أخرى بالقرب من الجثة.. كانت دموعي تنفر حارة تغسل خديّ، وتمتزج بالطين وماء المطر..

نظرتُ إلى فلول الجنود التي ابتعدت في الدّرب المتعرج وهي تظهر أعلى التلة ثمّ تختفي.. هل أبقى هنا وحيدًا برفقة جثةٍ مجهولة يربطني بها ماضٍ مشترك! لا شكّ أنّهما كانا على علاقةٍ مجنونة حتّى احتفظ بصورتها طيلة هذا الزمن، وحملها معه إلى الموت! ضحكت بصوت لم يكن لي.. صوتٍ شاذ وبعيد.. أيقنت أنّي لن أستطيع متابعة السّير، وأنّي سأشارك هذا الضّابط المجهول مصيره، كما شاركني حبّ زوجتي!

قلتُ بغصة: «لكنّك لم تشاركه المصير؛ أنت معي هنا، لقد انتهى كلّ ذلك».

همستَ بحرقة: «لم ينتهِ هيفين، ما أزال أشعر به يحفر في قلبي، أخشى أن يكون بداية النّهاية!».

أصابعي يبست وتحوّلت إلى شجرة تشقّق لحاؤها.. شاخت ذاكرتي، ولم يعد فيها سوى أشباح تتحرّك بآلية وتختفي... منذ زمنٍ طويل، أشعر بتلك الحالة المربكة من سيطرة الفراغ على مشاعري، حدّ اعتقادي أنّه سيتحوّل مع الوقت إلى مرضٍ يصعب علاجه! أشعر بالخواء من أيّ معنى، ويربكني إحساسي أنّي ملتاث بلا شيء.. حاولت مرارًا أن أخرج من تلك الحالة من دون جدوى. صرت أخرج للنزهة وحيدًا، أتوغل في الغابة حتّى أشعر بأنّ روحي امتلأت بتلك التّعقيدات الدّقيقة لتفاصيل الأغصان والأحراش، تدريجيًا تتسلّل العتمة ويلسعني البرد.. فتنتبه حواسي إلى ضرورة العودة. حين أندسُّ في فراشي البارد، تأخذني دوامة الفراغ بعيدًا، فيشتعل جسدي بما يشبه الحمى، أهذي طويلًا. ووسط الضّوء الضّعيف المتسرّب من شمعة في القاعة الكبيرة، أسطّر رسالة لكِ.. حين أستيقظ في الصّباح، وأستنشق

الهواء المفعم برائحة الزّهور من حديقتي الصّغيرة، تتحوّل الكلمات بين رشفة شاي وأخرى إلى نغم ينساب من أصابعي طريًّا ليّنًا، ثمّ يتدفق كنهر، فيجتاح مشاعري ويطغى على الكون من حولي.. يرفعني إلى سماء بعيدة.. وخلال ساعات، أهبط إلى الأرض مع صوت الأجراس التي تنبئ بقدوم أحد ما من طريق الغابة.

ما يخيفني أنّ الشّعر لا يأتيني بعد حالة الخواء تلك.. فأشعر بكراهية لنفسي وألومها لأنّها حينئذ لا تستطيع التأقلم مع المحيط من حولي، كما أنّي لا أجد قبولًا للآخرين بما يكونونه، فأسعى لعزلة ألجأ فيها لصمتٍ مطبق، أحاول من خلاله فهم ما يحدث لي!

في الماضي، كنتُ أشعر بأنّ هذه الحالة امتلاء بانتظار قصيدة أو امرأة قد تأتي فجأة.. هو حدس ينبئني باحتمالات حضور ما هو مبهج.. لكنّ المشكلة أنّها تأتيني أكثر مما يأتيني الشّعر، وأنّها تنسف توقعاتي، فتبدو النبوءة باهتة لا معنى لها؛ لا أستطيع أن أجعلها مادّة شعرية، ولا أستطيع إقصاءها عن روحي.. حينها، من دون تفكير، تأخذني لوثة الرقص، فأجد نفسي عاريًا مرميًا على الأرض، يوقظني من هذياني عرقٌ بارد يلسع خلايا جلدي.

نادرًا ما تهاجمني نوبة الرقص حتّى أنسى ما أنا فيه، وأخرج أثقال نفسي على شكل حبّات عرق وتعب يهزني، فأغفو طويلًا، وأصحو على قرصات الجوع! الجوع دائمًا مرتبطٌ لديّ بحضور امرأة تشاركني الحديث حول مائدة تتصاعد منها روائح شهية.. التّوابل تثير حواسي، لكنّي بعد دقائق لا أجد للطعام تلك المتعة التي أتصوّرها في حالة الجوع!

حين التقينا آخر مرة، قلت لكِ: «أشتهي رائحتك». وشعرت بأنّي تسرّعت، فقد حرصت طيلة حياتي على أن أكون حذرًا في المسائل العاطفية، وألا أقول أشياء لا أعنيها! كنت أنظر إلى التبدلات التي طرأت على جسدك على أنّها

حدثت في جسدي أيضًا، لم أهتم في البداية لعينيك الغائرتين، ولا لشحوب بشرتك.. كنت على يقين بأنّ حبّي لك يستطيع أن يحوّل ما رأته عيناي إلى جمالٍ خاص...

قلتُ لأقطع ذلك الحديث الشّجي:

- ألا تودّ سماع الموسيقى؟
- نعم، أشعر برغبةٍ عنيفة لأن أخرج من جلدي، وتهرب مني الكلمات.
- هناك طرقٌ أخرى للتعبير غير الكتابة.
- ثمّة طريقتان لتفريغ شحنة الرّوح الرّهيبة تلك: الرّقص والجنس.

هربتُ من عبارتك بتحويل دفة الحديث:

- أردت البارحة أن أقول لك أشياء كثيرة، ربّما نقلتها نبرات صوتي حيث عجزت الكلمات!
- لستِ بحاجة لأن تقوليها.. الإحساس بها يكفي لإيصالها!

بخطوات بطيئة، سرتُ صوب البيانو، جلست كأميرة من شمع.. تجمّدت أصابعي فوق المفاتيح للحظات.. استنشقت الهواء المتسلّل من النّافذة المواربة بعمق، وهمست مع حركة أصابعي:

- انتظرتك طيلة العقود الماضية.. كنت أتخيّل دائمًا قبلة وداعنا الأخير.. وأربّت على قلبي خشية أن يتصدّع!
- هذا هو العجب في علاقتنا.. ما كنت أتخيّل عودتها واقعيًا، ولكن أيضًا ما كنت أعتقد إطلاقًا أنّ بين شفتيك وشفتيّ حواجز!
- كيف تكون معجونًا بماء الرّوح، وأضع بين شفتيك وشفتيّ حاجزًا؟ ليتني أقبّلك الآن!
- يبدو أنّ القبلة في شفتينا ليست ابنة لحظتها فقط.. إنّها ذات تاريخ يمتدّ إلى جذور القلب!

تعلمين «هيفين»؟ ما أزال غير مصدق أنّك أنتِ تلك الفتاة الحمقاء المشاكسة المجنونة التي عشقتها يومًا بجنون.. مظهرك رزينٌ يتناسب مع وقار صوتك، وينسجم مع الشّبكة السّوداء التي تحيطين بها شعرك، على الرغم من الشّعيرات البيضاء.. لماذا تلمين شعرك هكذا ولا تتركينه حرًّا؟ ولماذا تصرين على ارتداء الملابس السّوداء؟ كم يليق بكِ الأخضر! أنا أحبّه عليكِ.

من المستحيل في مثل هذا الطّقس أن أحافظ على مزاجٍ معتدل، وأتقبل الحياة بتفاصيلها المملة.. هنا، لا بدّ أن أشعر بمزاجٍ صافٍ تمامًا أو سيئ تمامًا.. الوضوح حادّ كتلك المسافات البيضاء التي تلسع العين، فتجعلها ترفّ مرارًا قبل أن تستوعب المشهد الرّائع لشمس باهتة تنسكب مع قطرات الماء المتشكّلة من الذّوبان البطيء لذرات الثّلج.

****

سُلَّم أبيض:

صحوتُ من النّوم مفزوعة وقلبي يرتجف.. أهي الحمى من جديد؟ لم تكن كذلك.. فمنظر الغربان وهي تهاجم جسدك كان كافيًا لجعل قلبي يتوقف، ولأدرك أنّ الموت كان يحوم حولي هنا في فضاء الغرفة الضّيق.. نهضتُ من سريري مسرعة، فتحت النّافذة من دون وعي.. كانت الرّيح الثّلجية تدوّم في الخارج مصدرة صفيرًا مزعجًا.. وذرات الثّلج الجليدية تطرق بقسوة سطوح المنازل، قمم الأشجار، النّوافذ، وتضرب الأرض باحتجاجٍ همجي. لأوّل مرة، أرى الثّلج يتساقط بهذا الشّكل العنيف وكأنّه أصبح كائنًا غريبًا عني؛ لم يعد يحتفظ بهدوئه المريب وهو يحتضن البيوت والأشجار، ويتراكم على حافة النّافذة، ويدفن الزّهور البنفسجية الرّائعة، لم يعد يمتلك ذلك السّكون المحبب الذي يرغمني على البقاء في فسحة زمن لا يتغيّر. سمعت همسك عبر الرّيح: «أنتِ تعيشين حياة ثابتة لا تقدم فيها، وهذا هو الفرق بينها وبين الحياة التي أعيشها داخل زمن متحرك. أنتِ تقفين مكانك وأنا أتقدّم بسرعة».

وجدتني أصرخ: «إنّك تتقدّم نحو حتفك.. اللعنة على الزمن، وعلى الحياة التي عشتها من دون أن تعبأ بما بعدها».. ضحكت الرّيح ضحكة صفقت النّافذة في وجهي.. وأبعدتني إلى الدّاخل.. «أنتِ دائمًا تخلطين بين الفضيلة والتّنعم بالسّعادة الرّوحية.. ليتك تركتِ كلّ هذا خلفك لساعات، فالدّين لا علاقة له بالفضيلة والعقل لأنّ الحياة في الأصل تقوم على ظروف هي جزئيًا نتاج التّجربة، وتنتمي إلى الأخلاق بشكل جزئي أيضًا؛ نقيضها المطلق حياتك التي تتشبثين بأوهامها، حياتك التي ستنتهي وأنت متعلقة بقشة

لن تحميك من الغرق. انظري إليّ هيفين، كفاك عنادًا، لم يتبقَ سوى ساعات! هل ستقضينها في البكاء أم تودعينني كما يليق بعاشقين؟!».

لم أستسلم لحدسي يومًا كما يحصل لي في هذه اللحظة.. حدّ أنّي لم أفكّر طويلًا في اتّخاذ قراري، لم أُخضعه لنقاش، لم تصطرع رغباتي.. كنت مستسلمة لفكرة واحدة: أن أعيش السّاعات الأخيرة كما تريد!

المسافة بين البيت الذي أقيم فيه والمصح لا تتجاوز بضع مئات من الأمتار، أستطيع قطعها في الأحوال العادية للطقس في خمس دقائق، لكنّها تمتدّ أكثر، قد تصبح عشرًا، إن كان الثّلج في حالة الجليد أو الذوبان.

حين فتحتُ الباب الخارجي، بعد اجتيازي سور الحديقة الصّغيرة، أصبحت تحت رحمة الرّيح العنيفة.. منذ اللحظة الأولى، أدركت أنّه ليس بإمكاني السّير بشكل مستقيم لأنّ ذلك معناه أن أواجه الرّيح، وأن تجلد ذرات الثّلج الجليدية النّاعمة وجهي.. في البداية، غرست القبعة في رأسي، وأنزلتها قريبًا من عينيّ، في محاولة لحمايتهما كي أستطيع رؤية طريقي، لكنّ ذلك لم ينفع؛ لم أستطع السّير سوى خطوات، ثمّ أدرت ظهري للرّيح ورحت أسير إلى الخلف. كان منظرًا مضحكًا ومؤلمًا، فقد شعرت بالدّوار بعد عدّة دقائق، عندما اشتدت الرّيح واضطررت للسّير بشكلٍ متعرج.. صرت أختلس النّظر خلفي كلّما مشيت بضع خطوات لأتأكد أنّي في الاتجاه الصّحيح.. لا أدري كيف وصلت إلى حافة الوادي، ربّما لأنّي فكّرت أنّه من الأسلم ألا أسير في الطّريق العادي، بل ألتمس الأشجار لتحميني قليلًا من غضبة الرّيح. حاولت استعادة تفاصيل المكان قبل تراكم الثّلج: هنا، كان سياج صغير يحيط الدّرب الهابط إلى الوادي؛ عليّ أن أبتعد بمقدار متر عن الحافة! هنا، كان يرقد قبرٌ مجهول الهوية، لا أرى الآن حجارته، لكنّي أدرك أنّ قدميّ اللتين تغوصان في الثّلج عميقًا ستصطدمان به بلا شكّ.. هنا.. توقفت قليلًا.. لقد غابت

ملامح المكان تمامًا! أين أنا بالضّبط؟ حاولت استكشاف المكان، ابتعدت خطوتين إلى الخلف، بعيدًا عن شجرة الدّلب الضّخمة، تأملت الطّريق.. لكن... لم تعد هناك حدودٌ لطريق! كانت المساحات البيضاء الشاسعة لا تنبئ بفواصل أو حدود، حتّى الأسوار الصّغيرة التي تحيط بالأمكنة غمرها الثّلج، فلم يعد يظهر منها شيئًا... كانت العاصفة تدوّم بشكل عنيف، وكثافة الثّلج وبياضه يمنعان الرّؤية! التفت إلى الجهة المقابلة، لم يكن هناك شيءٌ يوحي بوجود بناءٍ قريب.. داهمني شعورٌ مرعب، لكنّي طمأنت نفسي، ولم أسمح للخوف بالتّغلب عليّ.. احتضنت جذع الشّجرة وأغمضت عينيّ للحظات، محاولة رسم المكان كما في الذاكرة، لكنّ الجهات التبست عليّ! سرت بضع خطوات وأنا أحاذر الاصطدام بأشياء أتوقع وجودها تحت الثّلج.. مع كلّ حذري، تعثرت قدمي بشيء لم أدرك ما هو، وانكفأت على وجهي.. وجدت جسدي مدفونًا وسط البياض، لم تظهر السّماء في الأفق مع أنّ حركة الرّيح بدأت تخف، وتساقطت ذرات الثّلج بقدر أقلّ شراسة وأقرب إلى الحميمية المعهودة.. حاولت النّهوض، لكنّ ألمًا حادًا في ركبتي منعني، بل أثار صرخة خرجت من حلقي جافة عالية على الرغم مني، منعها الجوّ الكتيم من الانتشار بعيدًا.. كنت على يقين بأنّ أحدًا لم يسمعها سواي.. لم يشغلني ألم ركبتي طويلًا عمّا خرجت من أجله. كانت أفكاري السّوداء تطحن روحي، وتثير حماسي لمتابعة السّير؛ يجب أن أجدك، سأتحمّل كلّ ما يصيبني من غضبة الطّبيعة مقابل لحظات بين ذراعيك. فاجأني خاطرٌ قاتل: «هل تبقّى من الوقت ما يسمح لي باحتضانك؟». لم أعرف كيف نهضت متكئة على ألمي الذي شدّ أعصاب جسدي كلّها وانتشر فيها، فأصبحتْ كتلة من نار يلفحني لهيبها في كلّ وتر.. مشيت هذه المرة إلى الأمام متحدية بقايا الرّيح التي نخرت عظام رقبتي من الخلف.. لم أهتم كثيرًا للوخز المؤلم فيها... تدريجيًا، كانت

السّماء البيضاء تنكشف من خلال الثّلج الخفيف الذي ما زال مصرًّا على تفوقه، هو بكلّ هشاشته ونعومته يجلد ويقتل ويدفن تلك الكائنات الضعيفة والقوية على حدّ سواء.. كان حاضرًا بجبروت لم أتصوره، على الرغم من اقتناعي بنسبية القوة والضعف في الكائنات الحية.

رأيتُ الطّبيب أمامي فجأة، قبل أن أصطدم به، أمسك ذراعي فوقفت. كان وجهه مربدًا. نظراته زائغة وعيناه دامعتان. كاد قلبي يتوقف، وغص حلقي بالسّؤال الذي لم أجرؤ على البوح به. كنت أنتظر أن يقول دفعة واحدة ما يريد! قال بهدوء:

- كنت ذاهبًا لإحضارك...

تأبّط ذراعي وشدّني إليه. عرفتُ أنّه يخشى أن أقع مجددًا، وعرفت أنّ ما سيخبرني به مؤلم حدّ خشيته عليّ منه. قال وهو ينتقي كلماته ببطء:

- لا شكّ أنّك حدست أنّه كان يستشفي من مرضٍ خطير.. كان يعرف جيدًا أنّ أيامه معدودة في الحياة. لم أكذب عليه بهذا الشأن، لكنّه فضّل عدم إخبارك... أراد أن تعيشي هذه الأيام معه في زمنٍ متحرّك يتقدّم بكِ نحو الحياة، ويساعد على شفائك، في الوقت الذي يسير فيه هو إلى نهايته. أعرف أنّني لا أقول لك جديدًا، فأنا على يقين بأنّك أدركتِ هذا. ربّما كان نوعًا من التّكفير عن هجرانه لكِ طيلة تلك العقود من حياتكما. لا أريد أن أحلّل موقفه، لكنّي أريد شيئًا آخر «هيفين».. هو مصرٌ على حرق جسده ووضعه في إناء لتحتفظي به. لقد قرّر ذلك ليلة البارحة، وطلب مني إخبار زوجته أنّنا دفنّاه هنا.. سنحفر قبرًا، ونضع عليه شاهدة، لتتمكن من زيارته؛ لن يخبرها أحد أنّه قبرٌ فارغ.. هي مشيئته، ولن أستطيع ردّها إلا إذا لم تقبلي أنتِ بها.

هل حقًّا سمعتُ كلّ هذا الهذيان وأنا صاحية تمامًا؟ قبل أن أخطو إلى الغرفة الباردة المشرعة النّوافذ، بقي الطّبيب متأبطًا ذراعي، حتّى أصبحت بمواجهة سريرٍ خشبي ضيق مُدّد عليه جسدك.. مددت يدي والتقطت كفّك، كانت باردة متيبسة، لم تنظر إليّ، لم تحدّق في عينيّ.. كانت نظرتك الزّجاجية الباردة تتطلّع صوب السّقف.. مدّ الطّبيب يده، أغلق عينيك وسحب الغطاء فوق رأسك، واحتضنني..

لماذا لم تنتظرني لساعات كما وعدتني؟ لماذا لم تبقَ في سريري ليلة البارحة؟ أكان ضروريًا أن تغادر وحيدًا؟ لمَ لمْ تُبقِ رأسك على كتفي ويدك خلف ظهري وعيناك تحدقان في عينيّ كما من قرون!

حين صحوتُ، كانت بجانب سريري على طاولةٍ صغيرة جرّةٌ فخّارية عنقها قصير، وفيه ثقبٌ صغير سُدّ بورقة انتزعت من كتاب! ببطء، استوعبت تفاصيل الغرفة، وعرفت أنّي ما أزال في المصح. بهدوء، جلس طبيبي على كرسي قرب النّافذة يقرأ في كتاب. التفت صوبي، وابتسم قائلًا: «كنتُ على يقين بأنّك ستتجاوزين الأزمة». أومأت برأسي صوب الجرّة متسائلة.. قال: «جسده.. كما طلب». أفزعتني الكلمات المختصرة.. احتضنتها.. ورأيتني أتعفّر بغبار غير موجود، وأبكي بحرقة وكأنّي أستردّ شيئًا غاليًا وأرجعه إلى رحمي! لم أفهم ما يحدث.. فقط كانت حواسي كلّها تتفتح كزهرة بنفسج وسط سكون الثّلج المريب.. وكنت أحاول التقاط ما تبقى من الحلم لأفهم منه ما آل إليه الواقع.

سمعتُ صوتك يهمس: «ألم أقل لكِ: لنا البداية ولنا النّهاية، وما بينهما مجرد تجارب؟».

****

لاكورونيا 2015

بعد انتهاء إجراءات اللجوء، وحصولي على إقامة في ألمانيا لمدّة ثلاث سنوات، قرّرت السّفر إلى إسبانيا لزيارة صديقة ألحّت عليّ لأسكن عندها.. كانت تعيش في لاكورونيا، منطقة جبلية قريبة من البحر، يمكنني أن أستعيد فيها نشاطي وصحتي. وربّما كانت إسكيفياس مدينة الخطايا هي السّبب في اتّخاذي القرار.

حتّى هذه اللحظة، لم أستطع تقبّل فكرة موتك.. ولأنّي في أعماقي مقتنعة بأنّ كلّ الكائنات في الوجود أفضل حالًا مني، فكّرت بالتحوّل إلى كائنٍ آخر لأتخلّص من وهم وجودي! الفكرة المستحيلة جعلتني أبحث عن البديل الذي يجعلني جزءًا من الطبيعة. سئمت بعد فترة قصيرة صحبة صديقتي، كان من الصّعب -بل من المستحيل- أن أخرج منك وأصاحب الآخرين.

فكرة العيش في منزلٍ منعزل في الجبال أغوتني حدّ منعي من النّوم. كلّ يوم أصعد الجبل بحثًا عن مكانٍ مناسب أقيم فيه، يشبه ذلك المكان الذي طالما حلمنا به معًا.. كانت صديقتي «ثريا» حريصة على اصطحابي إلى الأماكن الجميلة في البلد، البحر والمطاعم والجبال، ودعت أصدقاءها لسهرات طويلة كانت تضاعف شعوري بالعزلة والغربة وعدم المقدرة على التأقلم مع تفاصيل الحياة. في تلك السّهرات، تعرّفت على صديق ثريا الغجري، كان شخصًا دمثًا قليل الكلام، عميق العينين، زاد الكحل من عمقهما وغرابة نظراتهما، غالبًا يحدّق في نقطةٍ بعيدة عن وجه محدّثه، لكنّه يشارك الآخرين في نقاشاتهم بمنتهى الجدية، ولا يهتم كثيرًا بفرض وجهة

نظره، بل يترك الحديث أحيانًا وينتقل إلى آخر، إن وجد الطّرف الآخر غير مهتم بتفنيد حججه والاعتراض على معلوماته. عرض عليّ «أليخاندرو» أن يصحبني إلى كهف في الجبل فيه -كما ادّعى- رسومات تعود إلى العصر الحجري تؤكد أسلوب الحياة الذي لم يتغيّر عند البشر منذ ذلك الوقت، في الحروب خاصّة. فهو يعتقد أنّ البشر فطروا على القتل منذ قابيل وهابيل، ولا يستطيعون الاستمرار من دونه. أغوتني الدّعوة، وسألته إن كان بإمكاني أن أبقى هناك أيامًا ريثما أنقل بعض الرّسوم، فوعدني بتأمين إقامتي، وإحضار كلّ ما يلزمني بشكل يومي. امتلكت اليقين بأنّ كهف «أليخاندور» سيكون محطتي الأخيرة في رحلة اللجوء، وأنّي سألتقي بك هناك!

كانت هناك لوحات كثيرة تُركت مهملة في غرفةٍ مغلقة.

يا إلهي! لا أستطيع ضبط انفعالي وضربات قلبي... الكهف يحوي أكثر مما حلمت به، لقد صُمّم لإقامة طويلة، لكنّ الرّسوم على جدرانه لم تستطع خداعي؛ من الواضح أنّها حديثة جدًا، وأنّ من حفرها على الجدران هو نفسه من صمّم الكهف على شكل كوخٍ صالح لإقامة البشر في هذا العصر، فهو مزوّد بأسباب الرّاحة، لكنّه في الوقت ذاته يمنح المرء إحساسًا بالعودة إلى زمنٍ موغل في قدمه. منذ وطئت قدماي عتبته، صرتُ خارج الزّمن، ورميت كلّ علاقة لي بالخارج وراء ظهري.. امتلكت إحساسًا حميمًا بوجودك معي..

صار بإمكاني رؤيتك.. يدي تتحرّك صوبك، تلمسك.. أشمّ رائحة عطرك قريبًا من أنفي.. أحرّك شفتيّ، لا أسمع صوتي.. لكنّي أمتلك اليقين بأنّك تسمعني، تلتفت نحوي، تتقدّم، في عينيك لهفة.. في عينيك حقول أقحوان.. تضحك عيناك.. يا إلهي، كم هي رائقة رائعة تلك الضحكة! كم زلزلتني في الماضي.. مذ كنّا هناك على حافة النّهر نلهو بأراجيح الفرح!

اندسستُ في الفراش الصّوفي، وتدثرت جيدًا، وغرقت في النّوم!

وجدتني هناك في إسكيفياس!

المنزل الذي أقمتُ فيه يقع قريبًا من بيتٍ مبني على الطّريقة القشتالية من اللَّبِن والجص اللذين أكسباه مظهر بيتٍ عتيق تعرّض للإصلاح عبر أجيال بطليه بالكلس. من جهة البحر، تفصله عن السّاحة التي أقيمت عليها الكنيسة الرّعوية ساقيةٌ صغيرة، مدخله الرئيس ذو أبوابٍ ثقيلة ذات مصراعين يستطيع العبور من خلالها فارسٌ على جواده.. ومن الجانب الآخر، تطلّ جدرانه العالية على شارعٍ ضيّق محاط ببستان يبهج النّظر بأشجاره الكثيفة. داخل البيت، فرش صحن الدّار بالرّمل، وتناثرت فيه النباتات.. لفت انتباهي سُلَّمٌ درجاته منخفضة يؤدي إلى بيت المؤونة الذي يحتوي على معصرةٍ خشبية ضخمة، كما يؤدي إلى مستودع رصفت بمحاذاة جدرانه صفوفٌ من جرار الزيت الفخارية.. ومن الجهة الأخرى من البئر والمغسلة الحجرية أدراجٌ عريضة بأفاريز خشبية محفورة بشكلٍ جميل تؤدي إلى الطابق العلوي المحاط بشرفةٍ خشبية تلتفُّ حول المنزل، تسندها أعمدةٌ حجرية..

الأبواب والنّوافذ تنفتح على مفصلات من الحديد الدّقيق الصّنع، بالإضافة إلى شبك من الحديد يحمي النّوافذ المطلة على الخلاء الواسع. حقولٌ ممتدة حتّى الأفق، وسكونٌ لا يقطعه في الشّتاء سوى أصوات طيورٍ غريبة ضلّت طريقها! طيور صلعاء حافية صغيرة الحجم، لونها قريبٌ من لون الرّمل، حدّ أنّي أراها من شرفتي مندمجة في رمل الشّاطئ، لا يكاد يميّزها سوى الطوق الأسود المحيط بعنقها! من جهة البحر، شرفةٌ حجرية نافرة من البناء، تسوّرها أعمدةٌ منحوتة على شكل أزهار توليب ضخمة، تستند إليها صحافٌ حجرية صُمّمت كمناضد وضع وراء كلّ واحدة منها كرسيٌّ خشبي.

على شرفة البيت القشتالي، يجلس معظم الوقت سيدٌ غامض نحيل الجسد، يرتدي معطفًا طويلًا، ويعتمر قبعة من الصّوف تخفي شعره الأشيب، وتغطي معظم جبهته، وتكاد تلتصق بنظّارته الصّغيرة المرتكزة على أنفٍ حاد يضفي على وجهه تعبيرًا من القسوة يتلاشى حين يبتسم لسيدةٍ عابرة رافعًا يده بتحيةٍ سريعة.

لم أكن أسمع صوته، فقد كان يمضي وقتًا طويلًا في تأمل الحقول الفسيحة جهة الشّرق، ثمّ يغيّر موقع كرسيه حين تفاجئه شمس الظّهيرة، فيصبح أكثر قربًا من شرفتي، حينها فقط ألمحه وهو يتناول شرابًا ساخنًا وأمامه أوراقٌ بيضاء، يستغرق ساعة بالضبط في تدوين أشياء عليها، ثمّ ينهض متجهًا إلى الدّاخل، لا يغيب سوى دقائق معدودة، ثمّ يفتح الباب الرّئيس ويمشي ببطء صوب السّاقية. تركض إحدى النسوة لتحضر له كرسيًا صغيرًا من الخشب، تضع فوقه حشية ناعمة وهي تبتسم، وتهمس له بكلمات لا أسمعها. فاجأني أنّه يقضي وقتًا أطول في محادثة النّساء، مما أثار فضولي! فقرّرت أن أجلو ذلك الغموض. ارتديت ملابسي بسرعة، ومررت بجانبه متمهلة الخطى.. كنتُ أرتعش خشية أن ينظرن إليّ نظرتهن لمتطفلة، لكنّ شيئًا غامضًا كان يدفعني صوب السّاقية، ويمنعني من التّريث أو التّفكير بمغبة ما أنا مقدمة عليه.

كان أوّل من نظر إليّ، ابتسم بعناء وأومأ بتحيةٍ مختصرة، لم يتسع له الوقت لرفع يده بما يكفي، فقد أوقفت إحدى النّسوة حركته تلك بقولها:

- منذ زمن، نودّ التّعرف عليكِ، لكنّنا لم نجرؤ.. لا نريد إزعاج الغرباء.. تفضلي اجلسي معنا.

لا شكّ أنّها اختصرت عليّ الحرج والمسافة، لكنّه لم يبدِ ترحيبًا بحضوري، استمع قليلًا لثرثرة النّسوة، ونهض مغادرًا من دون وداع!

تصرفه زاد حرجي، لكنّ أجملهن «ماجدولينا» قالت بدلال: «ما يزال يرتبك في حضور السّيدات».. كدت أسألها: «وأنتن؟»، فسبقتني: «نحن لا نُعدّ من السّيدات».. قالتها بلهجةٍ مائعة جعلت البقية يضحكن بقهقهة منسجمة وكأنّهن جوقةٌ غنائية. حدّقت فيهنّ بذهول.. قلتُ لأتجاوز الحرج:

- لا أرى اختلافًا.. أنتن أيضًا خلقكن الرّب.
- نعم، هذا ما يقوله لنا.. يقول إنّنا نلهمه كثيرًا من القصائد، وإنّنا نمتلك معرفة لا تملكها سيدات القصور، فهو على يقين بأنّنا نعرف كم تبعد أطراف الأرض عن مركزها، ما دمنا نستطيع أن نحدد المسافة بين إسكيفياس ومدريد، وإن كان ذلك بحساب الزمن لا المسافة، لذا يفضّل صحبتنا على صحبتهن. أنا شخصيًا أستطيع القول إنّه منحني الثّقة بإنسانيتي، بعيدًا عن الظّروف الطّبقية التي نعيشها.

ظروفٌ طبقية! ما هذا؟ امرأةٌ بائسة بسيطة تغسل الملابس في مياه ساقية مكشوفة للمطر والرّيح والبرد يجلدها بعنف، وتتحدّث على طريقة سيدات القصور! قلتُ:

- يبدو أنّ لديك معلومات حول المجتمع تؤهلك للحكم على النّاس.
- لا أدّعي المعرفة...

نهضت تجمع غسيلها في سلة، وسط جلبة بقية النّسوة اللواتي فعلن الشّيء ذاته، وكان عليّ أن أنهض أيضًا لأتابع سيري صوب البحر.

هناك، كانت طيور اليمام الصّلعاء تستجم فوق الرّمال غير مبالية بوجودي.. استوقفني مشهدٌ حميم: كانت الأنثى الحافية تلتصق بالذّكر الوردي اللون الذي يحمل طوقًا أسود من الزّغب النّاعم حول عنقه! صوته المميز استوقفني، فجمدت في مكاني وأنا أكاد ألمح الدّموع في عيني الأنثى! أكان موقف وداع؟ هكذا شعرت.. الذّكر الغريب عن بقية الطّيور كان من

اليمام الضاحك، بعد أن أغوى أنثاه بجمال صوته وعذب غنائه، حلّ موعد رحيله إلى بلاده الدّافئة، وهي تتشبث به لا تريده أن يرحل، على الرّغم من حلول الشّتاء!

جاءت «ماجدولينا»، كانت ترتدي ثوبًا خشنًا بسيطًا يشبه أثواب راهبات الفرنسيسكان العلمانيات، ويبدو أنّها كانت في زمنٍ مضى تملك قسطًا وافرًا من الجمال ذي المسحة الكنسية، يكسبها جلالًا على الرغم من كونها امرأة عادية من طبقةٍ مسحوقة تعمل في غسيل الملابس! وقد أذهلتني الطّريقة المنمقة التي تتحدّث بها، والتّحليلات التي تفسر بها جوهر الحياة، بالإضافة إلى المسحة الرّومانسية التي تضفيها على الأشياء من حولها.. قالت بجدية:

- هو أسلوب حياة، أعتمده كي لا أصطدم بالواقع البائس، أشعر بأنّ حياتي كلّها لم تكن لتصبح على هذه الشّاكلة أبدًا لولا خطأ طبيعي حدث جعلني أعيشها.. لهذا تريننني أعيش فيزيولوجيًا فقط؛ لقد تخليت عن كلّ ما من شأنه أن يمنح الحياة بهجة ومعنى.. قد لا تصدّقين ذلك بحكم اختلافنا، لكنّي فعلت وأنا مقتنعة بأنّ الحياة لن تقدّم لي ظرفًا أفضل للعيش.

بقدر ما كان حديث «ماجدولينا» ممتعًا مدهشًا بقدر ما يترك وراءه كثيرًا من الشّكّ والأسئلة المربكة.. لكنّي كنت مشغولة الذهن! كانت روحك تحضرني في تلك اللحظة حدّ انفصالي عن الشّاطئ والبحر والرّمل واليمام، وعودتي حيث تركت جسدك هناك في جرةٍ قرب سريرٍ أبيض، وسط سكون الثّلج في الجبل البعيد.

هبّت ريحٌ قوية مفاجئة، وأرغى البحر وأزبد.. دفع زبده إلى قدمي، وعاد إلى الانحسار ثانية.. جلست فوق الرّمال وتركته يقتحمني مع كلّ اندفاعة لموجه صوب الشّاطئ.. مسحتُ الزبد بأصابعي، وشممت رائحته بعمق..

رائحة حوريات تغني في مداه البعيد.. أغمضت عينيّ، صار صوته قريبًا، وشوشني تاركًا في أذني سرًّا خاصًا.. أحببت أن أقتنع بأنّه حقيقة، وأردت الاحتفاظ بصوته ورائحته.. الصّوت كان يسكن محارة أحتفظ بها قرب سريري، وأضعها على أذني قبل النّوم لتشعرني بأنّي أنام في أحضان الموج، وأنّها تحملني إلى مملكة الحوريات. أناملي تتشنج وتأخذ شكل فرشاة تخطُّ على الرّمل أشكالًا ما تلبث الأمواج أن تسرقها مني.. كانت فكرة الاحتفاظ برائحة الزّبد تسيطر على حواسي.. ابتسمت لنفسي: «يبدو أنّي سأتحوّل إلى مشعوذة كي أقبض على سر رائحة البحر، وأحتفظ بها في زجاجة عطر أستطيع سكبها على ورق الرّسم، قبل أن أنثر فوقه اللون الأزرق! كيف سأنقل رائحة جسد البحر إلى زجاجة؟ وهل يوجد جهاز تقطير في العالم يمكنه الاحتفاظ بهذه الرائحة المريبة؟!».

أرّقني هذا الخاطر عدّة أيام حتّى التقيت «ألفيرا»!

****

حين رأيتُ «ألفيرا» تذكّرت خادمتي، لم تكن العرّافة تشبهها لكنّ شيئًا غريبًا يربطهما.. طريقة النّطق، النّظرة الحادّة، القامة العجفاء، عروق اليد البارزة واللون الذي اختلط فيه السّمار الفاتح بلون القرفة فغدا أعجوبة للنّظر.. خادمتي حدّثتني يومًا عن القوة الخفية لعرّافات بلادها، وأنّهن يجترحن المعجزات، فلا يكاد يخفى عليهن من الغيب شيئًا!

و«ألفيرا» هذه لا تمت بصلة قرابة لألفيرا غارسيا التي اكتشفها سرفانتس، والتي قيل إنّها حوّلت شخصًا يدعى «ألونسو» إلى حصان عام ألف للميلاد. ولكنّها تبدو «كاماشا» حقيقية تملك نظرة دهرية لا يستطيع النّاظر إليها أن يحدد عمرها بالضبط، فالخطوط الرّقيقة حول الشفتين تمنحها وقارًا،

ونظراتها الثّابتة في نقطةٍ غير مرئية تمنحها خلود تمثال من تماثيل الآلهة.. لكنّ حركتها السّريعة توحي لأنّها ما زالت تحتفظ بنشاط صبية لم تتجاوز الثلاثين من عمرها. لم يشغلني الأمر طويلًا لأنّ صوت «ألفيرا» حين تتحدّث يحمل سامعها إلى عالم آخر له طعمٌ لاذع كفلفلٍ حار تكاد تراه أيضا، فهو يسيطر على حواسك كلّها، فتستطيع أن تلمح لونه ورائحته، وتتذوق طعمه اللاذع. ليس ذلك من فعل مخيلتي، بل من الجوّ الذي تدخلك فيه «ألفيرا» قبل أن تنطق بكلمة.. لم أكتشف مباشرة سرّ روائح النباتات التي تحرقها في غرفتها، والضّباب ذي اللون الأزرق الذي يلف الغرفة، والأشياء الموجودة فيها لتشكّل في جملتها عاملًا ضاغطًا على نفسية زائريها.. الأغرب هو صوت ربابةٍ عربية كان يأتي من داخل الجدران المكسوة بجلود حيوانات لا أعرف أسماءها.. يرافق الرّبابة صوت فتاة مبحوح تغني أغاني الرّعاة تلك التي سمعت نتفًا منها على لسان النّسوة عند السّاقية! حين أرهفتُ السّمع جيدًا، وانفصلت عن صوت «ألفيرا» وتمتماتها الغريبة، أيقنت أنّ الصّوت لم يكن غريبًا على سمعي، بل هو بالتّأكيد صوت «ماجدولينا»!

كنّا نمشي معًا على المنحدر الخفيف وخلفنا غابة السّنديان الجميلة.. أتأمل حبّات البلوط بقبعاتها الرائعة ويخزني قلبي! أرى شيخًا بملامح محببة يضع في كفي حبتين من البلوط، ويهمس: «لقد بلغت ذروة أنوثتها، وحان موسم قطافها!». أذكر حين أصبحت في العشرين من عمري، صرتُ أشعر بملمس لحاء شجرة البلوط النّاعم فوق جلدي حين أدخل الحمّام، أتعرى من أغصاني فينسكب ظلّ اللون العاجي في ماء الحوض.

كنتُ أسمع مع وشيش الماء صوتًا مرتعشًا يهمس لي: «أصبحتِ ناضجة كحبة بلوط تكاد قشرتها الناعمة تتشقّق من هشاشتها».. يرتعش جسد الشّجرة تحت وطء الماء وتنتشي، وأنسى أنّي كنت في يوم ما على صورة امرأة!

قبل وصولنا إلى الصّومعة المهداة إلى القديسة بربارة، برزت القرية أمامنا نائمة بهدوء. قالت لي: «أتعلمين أنّ الطّريق هنا يأخذ شكل سرج الفرس؟ هذه البلدة تثير مخيلتي، أحبّ بيوتها وغابتها وبحرها وشكلها المميز.. هل أقول لك سرًا؟ المدن بأهلها، وقد يختصر أهلها أحيانًا شخصٌ واحد تعشقينه، فتعشقين لأجله الأماكن التي يعيش فيها.. بصراحة، أنا لا أستطيع العيش خارج إسكيفياس لأنّي سأكون وقتها كسمكة يخرجونها من الماء سرعان ما أموت؛ لا أستطيع تنفس هواء لم تزفره أنفاسه يومًا!».

أدهشني تعبيرها، وأدهشني أكثر اكتشافي للرّجل الذي تعشقه.. وتساءلت في سري: «أيحبّها كما تحبّه؟». فجأة، رأيتها تركض وكأنّما امتلكت أجنحة، وتدور حول نفسها وتغني.. صوتها رائق ببحة تشبه بحة ناي حزين... ما الذي تفعله «ماجدولينا» عند العرّافة «ألفيرا»؟ ما الذي يربطها بها؟ ولماذا كلُّ هذا الحزن في صوتها؟

لم يبقَ من حديث «ألفيرا» شيئًا في ذاكرتي سوى أنّها قادرة على أن تجعل الشّخص الذي أشير إليه عاشقًا لي إلى الأبد.. قالت: «لا تهتمي كثيرًا، الموت ليس نهاية الأشياء، هو معك، يمكن لروحه أن تتجسد في شخصٍ آخر أكاد ألمسه بيدي.. هل تريدين أن تتأكدي بنفسك؟».

لقد أوصلت لي «ألفيرا» رسالة واضحة جعلت جسدي ينتفض... نبشت أحاسيسَ رفضتُ أن أفسح لها مكانًا لتظهر في أحلام يقظتي أو نومي.

****

كما قالت «ألفيرا».. كان الوقت أصيلًا خضّب البحر بحمرةٍ شفافة اندمجت في اللون الرّمادي للماء، وصُبِغَ الأفق اللانهائي بجمر اشتعل لدقائق ثمّ انطفأ، مخلّفًا وراءه سكونًا مريبًا تقطعه مشاكساتٌ صغيرة من أمواج تصرُّ على أن

تضرب الصّخور القريبة من الشّاطئ، كتسلية وحيدة في وحدتها الأبدية. رأيته يتقدّم بخطوات وئيدة، رأسه منكّس صوب الأرض، يرفعه قليلًا كلّما توقف للحظات، ويرسل نظراته عبر البحر. دقيقة فقط تقف بيننا، دقيقة وبضع خطوات على أحدنا أن يسيرها صوب الآخر. لكن يبدو أنّه لن يفعل، فقد جلس على صخرة قرب الماء وغرق في تأمله. سرت نحوه وذهني خالٍ من أيّ تصور عن طبيعة اللقاء، وصلت إلى حيث يجلس ووقفت. لحظات وأنا أتأمل النقطة ذاتها التي أرسل نظراته إليها. سمعته يقول باهتمام، ومن دون أن يلتفت نحوي:

- سيتعبك الوقوف سيدتي، ثمّ إنّ الأفكار لن تكون مرتاحة في هذه الوضعية، تحتاجين للاسترخاء كي لا يسجد الحلم طويلًا ويغوص في الرّمل.

أدهشني قوله، وإن لم أفهم جيدًا ما يعنيه.. التمست مكانًا أجلس فيه بهدوء.. وتدريجيًا، شعرت بالاسترخاء، ثمّ انهمرت تلك الأفكار المحبطة التي كثيرًا ما تجعلني أشغل نفسي بأيّ شيء حولي كي لا تتمكن من إيقاعي في فخ اليأس.. سمعته يقول:

- كي تتخلّصي من أفكارك البائسة تلك عليك أن تحضني العالم في راحتيك، اتركي أصابعك مفتوحة، لا تعتقلي روحك في هذا الجسد، أطلقيها بعيدًا، دعيها تلامس صفحة الماء لتتمكني من الحصول على السّلام الرّوحي، ما لم تنظري إلى الأشياء على أنّها انعكاس لأفعال البشر في هذا الكون، لن تلمسي سلامك الرّوحي بأصابعك.

بعد حديثٍ قصير عن الشّعر والرّعاة، قلتُ:

- أعتقد أنّ هؤلاء الشّعراء أرادوا التّعبير عن مشكلة حقيقية قد لا تبدو كذلك للآخرين، وهي التّوفيق بين الواقع القبيح والقيم الجمالية في الفن.

- أرى، يا سيدتي، أنّك من هؤلاء النّسوة اللواتي يحتشدن بالأفكار، ويحسنّ التّعبير عنها، غير آبهات بطبيعة كون الأنثى مخلوقة لتُشعر الآخرين بقيمة الجمال وأهميته في دفع الحياة نحو الأفضل.

قلتُ بدهشة ممزوجة بغضب:

- الآخرون؟! من هؤلاء؟ تقصد الذكور الذين لا يرون في المرأة سوى قشرة يمتعهم النّظر إليها، ويتّخذونها متعة في فراشهم بحجة الحفاظ على النّسل، أو بحجة أكثر أهمية وخطورة، وهي الحفاظ على هذا الكائن الفظ من الانقراض؟!

لأوّل مرّة، استدار وتأمل وجهي، حدّق طويلًا في عينيّ، لا أنكر أنّ نظرته هزّت جسدي وزعزعت لهجتي الواثقة وأربكت أصابعي وأنا أقول:

- قد لا يبدو لائقًا أن أتحدّث إليكَ بهذه الطّريقة ونحن لم نتعارف بعد.
- من قال ذلك؟ كلانا يعرف الآخر منذ زمنٍ بعيد.. ربّما نسيتِ أنّنا التقينا يومًا في مدينة بعيدة! بعض النّاس لا يذكرون من أحداث حياتهم سوى صورٍ مشوشة لسعادة لم يعيشوها أصلًا.. وربّما لا يعنيهم ذلك الماضي في حاضرهم، لذا يستبعدونه تمامًا. السّؤال المهم الآن: هل تغيّرتُ إلى الدّرجة التي لم تعودي فيها تذكرين ملامحي؟

كم يبدو لي ذلك الزّمن بعيدًا! اليوم الذي حمل فيه مظلتي وحقيبتي ودثّرني بمعطفه، اليوم الذي التجأت فيه إلى ذراعيه وبكيت على صدره طويلًا.. هل بَعُد الزّمن بتلك الذكريات حدّ نسياني لتفاصيلها وملامحه؟ كدتُ أهمس باسمه وأقترب من مجلسه لألمس أصابعه، وأستحضر تلك الدّقائق التي سبقت رحيله النّهائي.. ذلك الرّحيل الذي أوجع قلبي، على

الرغم من أنّي لم أفكّر يومًا بالارتباط به.. كان حبّه لي يريحني ويشعرني بالحماية والسّلام، لكنّه أبدًا لم يكن قادرًا على إشعالي بالرّغبة أو دفعي نحوه بالجنون الذي عشته مع بدر.. كنتُ واعية تمامًا بأنّ كلّ رجل سيمرّ في حياتي سيكون مجرد وهم أعيش معه ولا أحياه لأنّي سأفتش دائمًا عن أوجه الشّبه والاختلاف بينه وبين بدر. سمعت صوت «بدر» يهمس: «كم من أشياء تشهد على ثبات حبنا في وجه الزمن: فراشٌ ضمّنا، أريكةٌ غفوتِ عليها، حمّامٌ انسكب ماؤه السّاخن فوق جلدك المشع بياضًا ودفئًا، غرفةٌ حُبستِ فيها بقية الليل، و... حذاءٌ ما زال في الركن بجانب المدفأة.. حذاءٌ صغير من القماش عانق قدميك الباردتين، قبل أن ألمسهما بأصابعي وأدلّك جلدهما الشّفاف كي يتدفأ قلبك المرتجف.. يا لتلك الليلة! لا ماء يمكنه أن يطفئ ظمئي لشفتيك، ولا معنى للمساء من دون يدك المندسة في طيات معطفي بحثًا عن الأمان والدّفء في جوّ ماطر عاصف».

هل كان قراري ألا أرتبط برجلٍ أرتاح له أو أحبّه خاطئًا؟ على أقلّ تقدير، حيادية مشاعري جنّبتني الشّعور بالألم حين الفراق. كانت فكرة الفراق تنهب ذهني وتسيطر على مخيلتي دائمًا.. صورٌ لا أملك لها ردًا، وأشعر بضعفٍ شديد حيالها.. فمنذ الأشهر الأولى لزواجي، صرتُ أحسّ ذلك النّفور العجيب من الحياة الرّوتينية المفروضة عليّ، واتّخذت قرار الانفصال أكثر من مرّة، لكنّي لم أجرؤ على تنفيذه.. كنت أخاف الوحدة، وأخاف أن يطعنني غيابه من جديد!

****

مسستَ جسدي بجمر مائك، فذاب الثّلج، واشتعل الحطب الكامن فيّ وأشعل الأشياء من حولي.. لم يستمر الأمر سوى ثوانٍ، نهضتْ روحي من

الحلم، ووعيت جسدي بقوة واللذّة تجتاح خلاياه... أبقيت عينيّ مغمضتين، واستدعيتك بقوة مخيلة تصرّ على لمس الأحلام وكأنّها حقائق. في لحظة لا تتعدّى طرفة عين، أحضرك جني سليمان، همستُ اسمك بحرقة زادت النّار اشتعالًا، وغدت أصابعك حقيقة.. كانت عشر شموع تلامس العتمة في أعماقي، فتنير الكون بألق لمساتك، حتّى فاضت الكأس، وارتاح رأسي على صدرك.

كانت تلك المرّة الأولى التي أعرف فيها متعة التّواصل معك وأنت بعيد! ارتبطت تلك المرّة بمشهد التحامنا في بيتك الرّيفي، حين هربتُ من إتمام طقوس الحبّ بدخولي غيبوبة قصيرة أفزعتك، وتبدّى أثرها في روحي قاسيًا عنيفًا بمقدار عنف تلك الليلة وقسوتها. بقيت عمرًا لا أستطيع تخيّل جسدي بين يدي رجل آخر.. حتّى بعد زواجي، لم أستطع منح جسدي اللذّة المفترضة من طقوس الحبّ، فكنت أخرج دائمًا بمتعةٍ ناقصة مشوهة لا معنى لها، تتركني أعاني آلامًا مبرّحة أحيانًا، حدّ أنّي أضطر لضرب رأسي بمسند السرير لأتخلّص من الصّداع الذي يشقّه نصفين! ربّما لهذا اخترع جسدي هذه الطّريقة العجيبة، فصرت أرى في أثناء نومي أنّك قادم.. لم تكن ملامحك واضحة، كنت تأتيني على شكل شبح، ريح، نسمة.. لا أعرف بالضبط، كلّ ما أعيه أنّي أشعر باستنفارٍ كامل لحواسي كلّها، وأنّ هناك قوة جبّارة تخرجني من النّوم لأعي بشكل واضح أنّ جسدي يتعرّض لتبدلات مصحوبة بلذّةٍ غريبة غير منقوصة، لأنّها تنتهي دائمًا بصحو أسمع خلاله أصواتًا مبهمة تهزّ جسدي، فأرتعش خوفًا! كان عليّ أخيرًا أن أستسلم لفكرتك عن أنّ الحبّ لا يمكن إلا أن يكون جسديًا، حتّى في أقصى حالات قدسيته، لأستطيع قبول وجودك في سريري!

لم تكن الجرّة قرب سريري تلفت انتباهي حتّى الليلة التي امتلكت فيها صحوًا استثنائيًا، وفتحتُ عينيّ للمرّة الأولى على جسدي ينهض من نومه

مستقبلًا لذّته الفريدة تلك.. لاحظت بما لا يدع مجالًا للشكّ أنّ نسمة خفيفة لامست خدي، كان مصدرها ذلك الثّقب في عنق الجرّة! ثمّ مسّت شفتيّ المنفرجتين، وتغلغلت عميقًا في خلايا جسدي.. حينها، لم أعد أشكّ بحضورك، بل عرفت أخيرًا مصدر ما يحدث لي.. وأيقنتُ أنّ المرّات القليلة التي أحصيتها، والتي غالبًا ما تكون في فصلي الرّبيع والخريف، كانت روحك تزورني فيها، تلامسني لثوانٍ، تبثني لوعة الفقد، وتترك لي بعضًا من متعة حرمني منها الفراق!

هذه المرّة كانت آخر أيام الخريف، والسّكون الثّلجي يتأهب ليُدخلني دورته، ويحوّلني إلى كومة ثلج تنتظر ربيعًا يمنحها دفء الحبّ، وحرارة الرغبة بالانعتاق من حالة السّكون.. الغريب أنّ هذه المرّة كانت طويلة، قاربت الدقيقتين، ومنحتني ما لم أشعر به طيلة حياتي.. كان حضورك طاغيًا لدرجة أنّي شعرت بحرارة شفتيك حقيقة لا تقبل شكًّا.. لم تكن نسمة ولا ريحًا اخترقتني، بل أصابعك وشفتاك، ملامحك واضحة.. ابتسامتك، ألق عينيك وهما تحدّقان فيّ.. كلّ شيء يثبت أنّي لم أكن أحلم، على الرّغم من أنّك لم تكن في فراشي حين أضأت الشّمعة قرب سريري!

****

مرّة أخرى، وجدتُ نفسي ألجأ إلى «ألفيرا». قالت إنّ ما حدث لي مرتبط بجني تلبّسني في الطفولة، ويحتاج إلى شيء أقوى منه ليخرج من جسدي! من قال إنّي أريد أن يخرج؟ قالت: «حتّى تستطيعي أن تعيشي حياة جنسية سليمة يجب أن تتخلّصي من التّابع الذي يسكنك، عليك التخلّص منه، المشكلة فيكِ؛ يجب أن تمتلكي الإرادة أولًا والرّغبة الصّادقة في الحياة المشتركة».

قلت بقلق:

- لأجل ذلك لجأتُ إليكِ؛ قيل لي إنّك تملكين شيئًا خاصًا يمكنه أن يستبدل العاشق في ثوانٍ!
- لم يخدعوك، لكن عليك أن تؤمني أولًا، وتستسلمي لي بكلّ حواسك.. تفهمين طبعًا ما أقصد.

رافقتُ «ألفيرا» إلى الغابة الواقعة أعلى المرتفع، لم أكن قبل الآن قد انتبهت إلى أنّ الغابة الوادعة تحوي أشجارًا غير السّنديان الذي اشتهرت به!

اقتربنا من شجرةٍ ضخمة قالت لي إنّ اسمها «الأوباس»، وإنّهم في «جاوة» يصنعون من نسغها سم السّهام. في تلك اللحظة، بدأتُ أفقد تركيزي، كانت كلماتها تصل إليّ كما لو أنّها آتية من آلاف الكيلومترات، تحمل مع الصدى ريحًا غريبة الرّائحة، تجعل الأشياء من حولي غارقة في الضّباب. الرّائحة النفّاذة للحاء الشّجرة وسكّين العرّافة يغوص فيه جعلتني أحكّ أنفي مرارًا، وأحسّ ببعض الخدر في أصابعي... لم يلبث أن امتدّ إلى بقية أعضائي، وبدأت وجوهٌ غريبة تتناسل من أغصان الشّجرة وتقفز كما القرود إلى الأرض، تُخرج لي ألسنتها بتحدٍّ سافر. حاولت إبعادها بيدي... صرخت وتمتمت بكلمات لم أفهمها! كنت أستغرب نبرة صوتي، وتذهلني تلك اللغة التي تنطق بها شفتاي! ثمّ غرقت في ضحكٍ طويل شرقت خلاله بريقي وأحسست بالاختناق، ولم يوقفني شيء عن الهزء بعرّافتي التي كانت تبتسم وهي تتابع طقوسًا عجيبة.. سحقتْ اللحاء ومزجته مع رقاقات جوز الهند، ووضعته على نار أشعلتها قريبًا من الشّجرة، حمّصته جيدًا ثمّ نثرته في وجهي.

لستُ على يقين بأنّي أنا من سار إلى البحر، واغتسل هناك من غير خجل.. لست على يقين بأنّي تزيّنت بكلّ الزّهور الغريبة التي أحضرتها «ألفيرا» لي،

وجمعتها في إكليل حول رأسي وعقد حول عنقي.. كنت أظنّ في تلك الأثناء أنّي أراقب امرأة أخرى تسير إلى البيت القشتالي الشّبيه بالقلعة، وقد فوجئت أنّ أحدًا ما قد نقل أمتعتي كلّها إلى هذا المكان الغريب!

ما الذي حدث بالضبط؟ هل خدعتني «ألفيرا» أم أنّ تمائمها والرّماد الذي نثرته في وجهي، فدوّخني وأرخى أعصابي لساعات طويلة، لم يكن سوى خدعةٍ بسيطة عليّ أن أومن بجدواها كي تصبح واقعًا؟

لم أمتلك إيماني بقدرة «ألفيرا» على توجيه بوصلة قلبي نحو سيد القلعة، لم أصدق أنّ أيّ ساحرة في الوجود تستطيع نزع حبّك من كريات دمي ما لم تنتزع روحي أولًا...

ابتسمت «ألفيرا» وهي تراني في الصّباح التّالي أجلس في شرفة بيته القشتالي، أتناول قهوة تركية كثيفة وأتحدّث إليه هامسة! ضحكت بخبث، وقالت بثقة:

- تمّ لي ما أردت.

لم أعرف ما الذي جعل «ألفيرا» تشعر بالنّصر، ولم أفهم السرّ إلا بعد أن رأيت «ماجدولينا» في اليوم التّالي.. همست لي وأنا أعبر السّاحة القريبة: «انتظريني مساء عند الشّاطئ، أرغب في الحديث معك إن سمحتِ لي، سيدتي»!

في المساء، كنت أنتظر «ماجدولينا» بقلق، لم يكن لديّ الوقت الكافي لحديثٍ طويل، لكنّ الفضول غلبني، فانتظرت دقائق أخرى وأنا أراقب الشّمس وهي تغطس ببطء في حضن البحر.. فتحت أصابعي -كما نصحني- لتتلقّى روحي السّلام، وشعرت في اللحظة ذاتها بأنفاسٍ لاهثة تقترب مني. كانت «ماجدولينا» متعبة من الرّكض.. جلست تلتقط أنفاسها وتعتذر بأنّها لم تستطع الإفلات من رقابة «ألفيرا» بسهولة!

لم يعد الأمر غامضًا، فهمتُ أنّ شكوكي السّابقة كانت حقيقة واقعة.. قالت «ماجدولينا» بأسى:

- عليّ أن أنصاع لأوامرها؛ لا أريد أن أصبح عاهرة كجدتي، ولا أطيق مغادرة هذا المكان.. إلى أين أفرّ وكلّ الجهات تملكها «ألفيرا»؟ لقد أخذتْ وعدًا من أمّي أن أكون في خدمتها لأنّها أنقذتها من التّشرد بعد أن طردها «فرناندو» عندما عرف بأمر حملها.. كانت بحاجة للمأوى والطّعام والدّواء، ولم تجد أحدًا يعطف عليها سوى «ألفيرا».. وكان عليّ وقد ولدت في بيت السّاحرة أن أخدمها، وأن أعمل وتأخذ نقودي.. اكتشفتْ في وقت مبكر أنّي أمتلك موهبة قلّما تمتلكها النّساء، فعملت على تعليمي العزف، واستغلت أنغامي في التّأثير على زبائنها؛ هي تدرك أنّ الموسيقى تستطيع أن تخلّص الجسد من التّوتر، وتجعل الإنسان في حالةٍ تقبل روحه فيها كلّ الغرائب التي تبثها في رأسه بطريقتها العجيبة تلك.

همستُ بذهول: «حقًّا، تملكين نايًا في صوتك صنعتْهُ آلهة القصب».

****

كان عند «ألفيرا» هذه المرّة شيءٌ خاص تخبرني به، أومأت لـ«ماجدولينا» لتغادر الغرفة، وقالت بجدية:

- لا تستمعي لهذه الفتاة المعتوهة، لقد أمضت وقتًا لا بأس به وهي تمتهن جسدها وتهين روحها بقبولها أن تكون عشيقة رجل لا يرى منها حتّى جسدها بعد أن ينتهي منه! لكنّها غبية تريد أن تعيش عمرها خادمة تحت قدميه، كما فعلت أمّها، يبدو لي أنّ التّعاسة تورث كما الفقر والغنى والجمال.. هذه الفتاة لا تعي أنّها تملك في أصابعها

كنزًا يمكنها أن تصبح من خلاله أميرة حقيقية، لا يعوزها الشّكل بل المال، بقليل من الاهتمام يمكن أن تصل.. فقط لو تقتنع بمغادرة هذه المدينة الملعونة.

التفتت إليّ، وحدّقت في عينيّ بثبات وهي تقول:

- لا أشكّ أنّك تعرفين عشيقها، لقد اخترتُه لكِ لتبتعد عن طريقه، أعرف أنّك تدركين دوافعي النّبيلة.. لهذا أتمنّى أن تساعديني في إبعادها عنه.
- لماذا فعلتِ ذلك؟ ليس إنسانيًا ما فعلته مهما كانت دوافعك.
- ولكنّك تحبينه.. تذكرين جيدًا أنّه عرض عليك الزواج، وكان يتمنّى من كلّ جوارحه كلمة واحدة تمنحه الأمل، لقد عشقك بصمتٍ سنوات طوال، وكنت تعشقين غيره.. وحين أخبرك برغبته، لم توافقي.

قلتُ بدهشة:

- أنا؟ ليس صحيحًا! طلبتُ منه أن يتريث، كنت أودّ أن آخذ قراري باقتناع كامل، وربّما أردت اختبار عواطفي تجاهه، لكنّه لم يعد!
- لم يعد لأنّ الحرب نشبت في تلك الفترة، ما لم تعلميه أنّه فقد يده اليسرى في أثناء المعركة، وبقي يعاني من الحمى طويلًا، وعاد إلى إسكيفياس في الوقت الذي تزوجتِ فيه.

استطاعت «ألفيرا» محاصرتي بكلامها الصّاعق، كنت أتابع حديثها والدّمع يكاد ينفر من عيني.

«دفن يده المبتورة في قبر شاء أن يكون في غابة السّنديان.. يوميًا، يرافق المعتوهة عشيقته لزيارة قبره! كان يبحث عن أصابعه في مخيلته، يراها تتحرّك، تلمسُ جلدك الناعم، تعزفُ على فقرات ظهرك ذلك اللحن الذي

برع في تنويع نغماته، فصار يبتكر كلّ مرّة مقامًا جديدًا يتناسب ومساحة اللذة التي تفرضها اللحظة.. لكنّه صحا فجأة على الحقيقة التي لا تني تذكّره بأنّه صار عاجزًا عن إدراك أوتاره، واللحاق بك وأنتِ تنفرين كغزالة وتتوارين وراء الجبال!

لم يستطع نسيان تلك اللحظات المُرّة لتاريخ الفقد، كما لم يستطع التّخلص من تلك الكوابيس التي ترافقه، فيجد نفسه تحت التّراب.. بدأ يشعر بالتّعفن، بتحلّل جسده، وبرغبة دائمة في التّقيؤ. يده الخشبية تثير شهيته للعنف، يضربها أحيانًا بلؤم يتوقع أن يشفي غلّه.. يا له من خيالٍ مخادع ذاك الذي صوّر له يومًا أنّه امتلك توازنه بعد أن حافظ شكليًا على اكتمال جسده!

لن تسأليه لماذا رحل ولم يفِ بالوعد.. لقد رأيتِ كلّ شيء، عرفت أنّه إنسانٌ مشوّه، لكن ما لم تعرفيه بعد أنّه لم يعشق غيرك، على الرغم من زواجه والنّساء الكثيرات اللواتي نمن في فراشه بعد ذلك».

لم أعد أنتبه لما تقوله «ألفيرا»، نهضت لألحق موعد جلوسه على الصّخرة، لنتأمل البحر معًا.. قلت وأنا أتكئ على كتفه، محاولة صرف نظره عن الماء:

- تذكر يوم التقينا في الحديقة، ودثرتني بمعطفك؟
- نعم، يوم انفصالك عن «بدر»، كنتِ مستسلمة للمطر يجلد عظامك، وكان قلبي ينخلع من جذوره، وكانت الحديقة خالية إلا منا ومقعدكما الحزين، ثمّ بيتك الدّافئ الذي لم يمنحني السّكينة، وفنجان الشّاي السّاخن، ومحاولتكِ البائسة لإظهار امتنانك لي باحتضاني لحظة خروجي! طبعًا أذكر، لا تغيب التّفاصيل عني أبدًا، لكن أنتِ كيف تذكرت؟!

قلتُ بلهجة عاتبة:

- لن تلومني على هذا الآن! أودّ لو تحدثني عن الحرب.

قال من دون أن يحوّل نظره عن صفحة الماء:

- وكأنّ طلبك أمر، يا سيدتي! لكنّي لا أستطيع ردّ طلباتك ولا أوامرك.. لا جديد في الحرب، فهي قتل وخراب ودمار جسدي ونفسي وخسائر فادحة. أظنّك تعرفين قصّة «ساريا».. شعبنا لا يفكّر أبدًا في ترك ثورته تنتهي قبل أن ينتهي هو تمامًا لأنّنا نرفض العيش كعبيد. «ساريا» في قشتالة الشّمالية بقيت طيلة عشرين عامًا تصدّ الهجوم وتقاوم الرّومان. والقصّة دائمًا تتكرر، دائمًا هناك معتدٍ يحاول اغتصاب خيرات البلاد، وهناك أبطالٌ يموتون في سبيل الوطن، لكنّي أكاد أكون على يقين بأنّ العدو ليس دائمًا ذاك الذي يأتي من البحر، بل يمكن للعدو أن يأتي من الدّاخل. عندها، تكون الأمور أشدّ تعقيدًا والخسائر أكثر فداحة! المشكلة لا تكمن فقط في حرب يخسر فيها المرء جزءًا من جسده، بل في حروب تُشن على إنسانيته، من خلال اعتقاله وحبسه في مكان لا يتمتع بشرطٍ إنساني واحد للحياة. أعتقد، يا عزيزتي، أنّي فقدت كثيرًا من صفاء روحي، حين فرض عليّ أن أقيم في السّجن بتهمة أنا بريء منها، ويا ليتني لم أكن؛ تمنّيت حقًّا لو كانت لي تلك المقدرة القيادية، وأن أكون أحد هؤلاء الذين حرّضوا ضدّ الملك، أو طالبوا بالتّغيير الجذري في سياسة البلاد. في النّهاية، ينتظرنا الفناء.. وموتٌ بطولي في سبيل قضية خيرٌ من الموت عجزًا بالهواء الأصفر! سيرة مملة لا أدري لمَ أحكيها لك الآن!

- بل سيرة أريد سماعها مرارًا كي لا تصبح المأساة اعتيادًا.. ويصبح وطني مجرد ذكرى أحملها أينما حللت.

- فلنذهب، لقد حلّت العتمة، لم يعد من المناسب الجلوس هنا، فلا شيء في الأفق يمكنه أن يثير مشاعري.

نهضنا معًا، تأبطت ذراعه، وقرّبت رأسي من كتفه، في محاولة لالتماس الدّفء... لم يكن الجوّ باردًا، ولم أشعر بحاجتي إلى ما يدفئ جسدي، لكنّ روحي كانت بحاجة إلى شيءٍ ملموس يؤكد أنّ الحبّ هو ما أشعر به حقًّا!

****

لمستُ يده الخشبية بحنان، شيءٌ ما هزّ أعماقي.. كان جدي سيصنع لي طاولة من خشب السّنديان ستساعدني أصابعها في الرّسم! حاولت إخفاء ارتعاش جسدي، وقلت:

- يومٌ شبيه بغيره.. لماذا لا تحاول تغيير هذا الرّوتين الذي تعيشه؟
- الأيام كلّها أشبه بيومٍ واحد طويل. لقد مرّت سنوات عمري رتيبة منتظمة إلى درجة شعرت معها أنّها لم تتجاوز السّنوات الخمس. نعم، انظري إلى أيامي، لا أكاد أجد فيها ما يُروى، أستطيع أن أختصرها لك بأحداث تُعدُّ على أصابع يدي، وأصف لكِ يومًا اعتياديًا واحدًا تكرّرينه حدّ الملل. اعتدت هذه الحياة المملة، ببساطتها وتفاصيلها التي لا تتغيّر، وإن كان الاعتياد سكونًا وإجهادًا لحاسة الزّمن. أدرك أنّ عليّ أن أغيّر من حياتي، لكنّي لا أملك الثّقة بأنّ التغيير سيمنحني حياة أطول.
- بل سيمنحكَ حياة أجمل. تجديد حياتنا ينعش إحساسنا بالزّمن، نستطيع أن نقويه، نؤخره، نعيد إليه الشباب، نتغلّب على عجزنا، وبذلك نجدّد إدراكنا الحسي للحياة نفسها.. هاتِ يدكَ.. ألا تشعر بنبضي؟ ألم يتحرّك قلبك ولو بضع دقات؟
- ألهذا تريدين مني تغيير المشهد والمكان؟
- والحبيب أيضًا.. لا تحدّثني عن الإخلاص... هل نسيت؟

- وهل بيدي أن أفعل؟ بالتّأكيد لا أستطيع نسيانك، لكن لماذا تريدين أن أجدّد حياتي الآن؟
- لأجلي..
- فقط؟
- لأنّني أحبّك..
- الآن؟
- بل كلّ عمري.. ربّما لن تستطيع أن تتخيّل إلى أيّ مدى كنتَ موجودًا في حياتي، على الرغم من أنّي تصالحت مع زمني وعشته بكلّ تفاصيله؛ أنجبت وسافرت، ورحل الجميع وتركوني وحيدة.. لكن ليس بسبب الوحدة أتيت إليك.. أنا أعرف جيدًا كيف أعيش الزّمن وأحافظ على نضارته في وجهي..
- أرى ذلك بوضوح.. ماذا تفعلين؟
- حين نحبّ في مثل هذه السّن، نأخذ من الموت لنمنح الحياة زمنًا إضافيًا، نكثفه، ونجدّده بالمعنى الحقيقي للحظة المعيشة.. لروحي مقدرة على التّأقلم مع الحياة بطريقة تذهلني أحيانًا، لقد عشت هكذا زمنًا لم أبالِ بشؤون الحياة وجريانها من حولي.. وصلت لمرحلة اقتنعت فيها بأنّ الإنسان يمكنه العيش بروحه فقط، من دون أن يعنيه شأن الجسد الفاني.
- إنّ روحًا بلا جسد هي روح غير آدمية، لا تحدّثيني عن معاناة الجسد وعذاباته للوصول إلى الانعتاق من ملذات الحياة والتّغلب عليها.. العيش بالروح فقط؟ من أين تأتين بهذه النّظريات؟ الجسد يورق بالمعنى، بالروح، يمتص كلّ شيء حوله.. هذا لا يعني أنّي أضع الأولوية المطلقة للجسد فقط، فجسد بلا روح هو أرقى قليلًا

من جثة.. لعلّي لم أخطئ التّعبير، أظنّك تفهمينني وتدركين أنّي أعيش بهما معًا، على الرّغم من عزلتي التي اخترتها بكامل إرادتي.. أنا لا أستطيع قبول جسد الآخر من غير حبّ؛ يعني لا أستطيع ممارسة الجنس مع امرأة لا تربطني بها عاطفة.. ذلك يثير قرفي.

- هل تنظر إليّ كامرأة لا تربطك بها عاطفة؟
- مشاعري ملتبسةٌ تجاهك.
- ليست المرّة الأولى التي أسمع فيها هذه الجملة!
- نحن أصدقاء.
- هذا أمر واقع، ندركه منذ زمنٍ طويل.. لكن في هذه اللحظة، وبعد أن عشتَ الزّمن معي، وأدركته بأصابعك وشفتيك -إدراكًا محسوسًا- ألا ترى أنّي أرتبط بحياتك ارتباطًا وثيقًا لا يمكنك التّخلي عنه؟
- كأنّي أعي الحياة من خلالك؟
- وأنا معك لن أهتم بتوقف الزّمن أو جريانه، ولن يزعجني هروبه من بين أصابعي.. فأن أعيش معك لحظات تتكثف بمشاعري أفضل من أن أعيش زمنًا طويلًا تقتله الرّتابة والفراغ.
- كأنّي بكِ، وبعد هذا العمر، جئتِ لتقولي لي: «فما أطال النّوم عمرًا.. ولا قصّر في الأعمار طول السّهر»!
- لا، بل جئت لأقول لك: «إنّ السّاعات التي سنعيشها ونحن عاشقان توازي دهرًا مما عشناه في بُعدنا».
- لا أكاد أصدّق! هل جئتِ في التّوقيت الخطأ أم أنّي لم أعد صالحًا للحياة؟ إنّها «ألفيرا» السّاحرة، لقد أقنعتني بأنّ السّائل الأسود الذي ينتج عن احتراق نشارة الفلين سيربط أقدارنا، ولن نفترق ثانية!

فتحت فمي دهشة، وهتفت: «الصّبغ الأسود! عليها اللعنة!».

****

«الصّبغ الأسود» الذي لم أستطع يومًا استخدامه في الرّسم لأنّه يترك في نفسي إحساسًا يشبه انتزاع قطعة لحم من جسدي، استخدمته «ألفيرا» لتجمع بيننا! لكنّ جيناتي ترفض نشارة الفلين، وصبغها الأسود، لذا فشلنا في الاندماج كما أرادت لنا.

ليس وحده، بل أنا أيضًا لم أعد صالحة للحياة، أو أنّي عشت خديعة كبرى، استطاعت «ألفيرا» أن تقنعني خلالها بأنّ تمائمها وسحر شجرة الأوباس بإمكانهما أن يجعلاني عاشقة لشخص غيرك أراك فيه حيثما اتّجهت! كم بدا لي الأمر سخيفًا محبطًا بعد أسابيع من خداع مشاعري! لكنّ النّظر لا يمكن خداعه، لم أستطع قبول أن يجضنني بيد واحدة، حتّى طريقته في تقبيلي كانت محبطة.. تغاضيت عن طريقته في الحديث، عن طريقته في الأكل، في النّوم، ذوقه في اختيار ملابسه.. كلّ شيء.. لكن القبلة! هذا الشّيء الوحيد الذي لم أستطع احتماله، يبدو أنّ تاريخها لا يمتدُّ إلى جذور القلب!

****

حين عدتُ إلى بيت صديقتي، من دون أن ألتقي «أليخاندرو» وأسلمه مفاتيح كهفه، لم أكن على يقين بوجود «إسكيفياس»، على الرغم من أنّ «سرفانتس» قد تحدّث عنها في أحد كتبه، ولم أعلم إن كنتُ حقًّا قد قابلت هؤلاء النّاس الذين عشت معهم وعرفت أسرارهم! تأرجحتُ بين الشكّ واليقين طويلًا؛ كان من المستحيل أن أصل إلى قناعة تامة بأنّ ما كان مجرد وهم، حين أكّدت ليّ «ثريا» أنّ المدينة موجودة فعلًا، وأنّ هؤلاء كانوا في زمن ما يعيشون فيها، وقالت بلهجةٍ مازحة: «أخشى أنّك تعيشين في الكتب التي تقرئينها، فلا شكّ أنّك تعشقين كتابات سرفانتس كعشقك لأدب شيلر!».

الثّانوية، أصابها مرض انقطعت على أثره عن المدرسة، لم يجد الأطباء له توصيفًا ولا دواء.. وفي غفلة من أهلنا، همست لي: «أنا عاشقة!». فكّرت بسعيد الحظ الذي سيسرق مني شقيقة روحي ويبتعد بها، وكرهته في تلك اللحظة، فقد كان شكلًا ومضمونًا العدو الذي ظهر من الغيب ليحطم رتابة حياتي وأمنها. نسيت الاتفاق الطّفولي؛ لم أنسه فقط، بل كنت أظنّه مجرد لهو لا معنى له. ففي تلك الفترة، صار «بدر» كلّ حياتي، ولم أكن مستعدة لمشاركتها عواطفي! كنت أخفي عنها كلّ أسراري خشية أن تتدخل في حياتي.

لم أعرف كيف استطعتُ التّخلص من يده التي وضعها على فمي في زاوية شارعٍ فرعي، ولم أعرف أنّه دسّ في جيبي رسالة.. ركضت بأقصى قوتي من الذّعر. وحين وصلت إلى البيت، فهمت أنّ الرّسالة لم تكن لي! ناولتها إيّاها سرًّا.. حين قرأتها، جحظت عيناها، وقالت وهي ترتجف: «مجنون، النّجوم أقرب إليه». كنت أظنّه الشّاب الذي عشقته، لكنّها شرحت لي أنّ هذا شابٌ آخر يحاصرها منذ سنة، ولا يكف عن مضايقتها وإرسال الرسائل إليها، وتهديدها إن تزوجت غيره. ليلة سفرها كانت ليلة انفصالنا الجسدي، كنّا ننام في سريرٍ واحد، وجهها للسقف، ووجهي صوبها.. أتأمل امتلاء المكان بها، بأنفاسها وصوتها وعبيرها.. وأقبض على قلبي خشية اللحظة التي سيحل فيها الفراغ مكان الضّجيج والحياة، لم تتوقف عن سرد الحكايات عنه وكأنّه الكون بأسره، لم تشعر بوجودي، فقد كنت خارج دائرة المستقبل الذي بدأت تبنيه، وتختار له الأثاث والسّتائر ولون الجدران وطبيعة العلاقة، مع كلّ الأشياء المحيطة بها، حتّى غلبها النّوم. كلّ واحدة منا أدارت ظهرها للأخرى، متجاهلة ضوء القمر المتسلّل عبر السّتارة وحفيف أوراق الشّجر الذي يشبه خطوة متسلّلة في العتمة.. بل هي خطوة، وربّما عينان تختلسان النّظر إلى النّافذة.. كنت أشعر بهما جيدًا وكأنّهما تحاولان كتم أنفاسها!

وداعنا في الصّباح كان سريعًا باردًا مجتزأً من مشهدٍ خال من العواطف من أفلام الأسود والأبيض. هكذا تزوجت.. وسافرت مع عريسها إلى السّعودية. لم أرها خلال فترة دراستي الجامعية.. وحين جاءت لزيارتنا، كنت سأسافر في الصّباح التّالي إلى دمشق لأجلب وثيقة تخرجي، وألتقي بـ«بدر» اللقاء الذي لم يحدث، والسّفر الذي ألغته الجريمة!

كنت أرتدي ملابسي حين سمعتُ صوت الرّصاص، خفق قلبي بعنف، ركضت إلى النّافذة ورأيته، كان المسدس بيده وملامحه ذاهلة وكأنّه صُدم بما رآه!

امتلأ الفضاء بالصّراخ والنّحيب. لم أشأ أن أتحدّث إلى أحد، دخلتُ غرفتنا. حملت الصّغيرة التي لم يتجاوز عمرها أربعة أشهر، غنيت لها حتّى هدأت... غنيت حتّى نامت، غطيتها، ووضعتها بهدوء في السّرير، وهمست لها: «أنا أمّك الآن... لن أدعك تشعرين باليتم».

كنت على استعدادٍ كامل للحديث الذي سمعته بروحي، قبل أن تنطق به أمّي: «لا يمكن لابنتها أن تتربى على يد خالة زوجة أب... لا يمكن أن نرمي لحمنا! إنّها ابنة شقيقتك التي ذهبت غيلة!».

هل قتلها الحبّ أم البغض؟ أربع سنوات وهو ينتظرها حتّى عادت. أربع سنوات من الانتظار لم يستطع أن يضيف إليها سوى ليلةٍ واحدة. انتظرها في الصّباح حتّى خرجت من البيت، وأطلق عليها الرّصاص... ست رصاصات في القلب! أفرغ كلّ غضبه وجنونه فيها. لقد كان تهديده لها بالقتل إن تزوجت غيره حقيقيًا. ما الفائدة من السّؤال: «ماذا لو أخذته على محمل الجد؟».

انتفضتُ بعنف.. عيناه ماثلتان أمامي.. عينا «حليم»، لا يمكن أن أكون مخطئة، مهما تغيّر شكله!

****

كبرت «داليا» أمام عينيّ، وكأنّها نسخة من أمّها.. نسخة معدّلة بعينين ملونتين وشعر أسود، رفضت أن تفعل مثلي وتصبغه بالأشقر عندما أصبحت صبية.. فلم يكن أبوها يتعامل معها بذلك الصّلف والتّسلط الذي يعاملني بهما. كانت طفلته المدلّلة، الأثر الباقي من شقيقتي «لينا» التي عشقها وتزوجها. أمّا أنا، فلم أكن أكثر من امرأة للفراش وقت الحاجة، وخادمة ومربية لابنته. لم أكن بنظره أرقى لمستوى امرأة، فكيف سيرى أنّي إنسانة؟! كان يسخر دائمًا من التناقض العجيب في جسدي، طولٌ في الساقين وجذعٌ قصير، بياضٌ في البشرة وشعرٌ أسود، امتلاءٌ في الحوض وصدرٌ صغير! كنت أعي ذلك التنافر وعدم الانسجام في تفاصيل جسدي، لكنّي أحببته كما هو وتناغمت معه، خاصة أنّ «بدر» كان يرى سر جمالي في هذا التّنافر الغريب الذي جسّده أحد أصدقائي الفنانين في الكلية بعشر لوحات لفتت أنظار الجمهور في معرضه الأوّل، وبيعت كلّها!

لم يكن تعلّق «داليا» بي مَرَضِيًا، فقد استقلّت بعواطفها وآرائها منذ طفولتها، ولم تكن تتدخل حين نتشاجر أنا ووالدها، كانت تنسحب ببساطة وكأنّها لا ترى ولا تسمع شيئًا.. وحين يمرّ الأمر، لا تذكره ولا تناقشه معي، ولا حتّى بكلمة تواسيني بها بعد سماعها للإهانات التي أتلقّاها. المرّة الوحيدة التي ذكرت فيها علاقتي بوالدها كانت بعد سفرها لإكمال دراستها في أمريكا؛ كتبت لي: «أنتِ إنسانةٌ هشة ضعيفة، لم تستطيعي أن تكوني نفسك طيلة عشرين عامًا من علاقتك بأبي، فكيف ستصبحين حرّة؟!». عرفت حينها لماذا كانت حيادية تجاه مشكلاتنا، بالإضافة لمعرفتي السّابقة أنّ والدها قد أخبرها بأنّي لستُ أمّها، وكان يصف أمّها لها على أنّها امرأة لا يوجد مثلها بين النّساء، امرأة أسطورة بحضورها وجمالها وموهبتها في الرّسم. الشّيء الجيد الوحيد أنّ «داليا» لم ترث تلك الموهبة اللعنة عن أمّها وعني.

فترت علاقتنا في الإجازة الثّانية، انعزلتْ فجأة بحجة أنّها تدرس! كلّما دخلت غرفتها، أراها غارقة في صفحات كتاب لا تكلّف نفسها رفع رأسها عنه، تسألني ببرود: «هل تريدين شيئًا؟». أخرج بهدوء وأغلق الباب من دون أن أنبس بكلمة. خطر لي مرّة أن أتلصص عليها من ثقب الباب.. رأيتها ترمي الكتاب، وتخلع ملابسها، وترقص.. كانت تدور حول نفسها بطريقة الدّراويش المعروفة، ثمّ تنفلت لترقص بشكل أقرب للبدائية، شكل متوحش لا إيقاع فيه ولا انسجام ولا ليونة! لم يصدمني كذبها عليّ وانعزالها بمقدار ما صدمني اكتشافي أنّها تشبه أمّها، لقد منعها أبي من الرّقص في صغرها، وكانت معلمتها تختارها دائمًا لتمثل المدرسة في المناسبات برقص السّماح، وأخبرت أبي أنّها موهوبة، وعليه أن يدخلها مدرسة لتعليم رقص الباليه، لكنّ أبي غضب ولم يوافق، بل زاد رقابته عليها حد منعها من المشاركة باحتفالات المدرسة. وقتها، تغيّرت رسومها. صارت ترسم نساء يرقصن، نساء في وضعيات إغراء، نساء ينبتن من الأشجار، نساء يطرن بأجنحةٍ ملونة.. لكنّها لم تجرؤ على مخالفة أبي وتتعلّم الرّقص!

يومها، عرفت أنّ كلّ ما يربطني بـ«داليا» لا يتعدى كونها ابنة أختي القتيلة، وأنّ مهمتي انتهت. آلمني هذا الشّعور جدًا، لكنّه في الوقت نفسه ترك لي خيار المطالبة بحريتي، والعيش بالطّريقة التي أراها مناسبة لي.

****

سألتني «ثريا»، من دون رابط للسؤال بما نتحدث عنه: «هل اسمك هيفين أم هَيْفَان؟»[1]. سألتها باستغراب: «ما الفرق؟». قالت: «لأنّي أراكِ تملكين المعنى الدقيق للكلمة العربية أكثر من معنى الاسم بالألمانية». ضحكتُ قائلة:

(1) هَيْفان: شديد العطش. هيفين: كومة حطب، كومة ثلج.

«بل كلّ المعاني يا عزيزتي، فأنا أشعر أنّي خلقت من ضلع شجرة، وأنّي عطشى دائمًا للذّوبان والتّدفق داخل نهر.. لا أحبّ البحار، وهذا لا يدعم نظريتك عن العطش». لم تعلّق «ثريا» على كلامي، هزّت رأسها وهي ترسم ابتسامة غامضة على شفتيها توحي بأنّها لا تريد الاستمرار في الحديث!

رأيت نفسي في المنام أسير إلى نهر ريو تينتو، وأغرق في مائه الأحمر، ثمّ أطفو ويسحبني التيار كسمكةٍ ميتة! استيقظت مرعوبة.. صديقتي فسّرت لي المنام بأنّي سأموت مسمومة، فالمعروف عن هذا النّهر أنّه لا حياة فيه بسبب السّم الموجود فيه. وعلى الرغم من أنّها قالت ذلك بلهجة المزاح، فإنّ التّفسير أخافني حدّ الإسراع بمغادرة إسبانيا، ولم تكن لديّ خطة مسبقة عن الجهة التي سأذهب إليها سوى نتف من هتاف داخلي تظهر فيه «العذراء» وهي تناديني لأختبئ في حضنها. كنت مصممة هذه المرّة على ألا أترك لأحد، مهما عظمت قوته، أن يتدخل في حياتي.

لا البحر..

ولا الموت..

ولا الذكريات المرّة.

****

- منذ متى وأنت في اليونان؟ ولماذا لم تتابع رحلتك إلى ألمانيا أو النمسا؟
- أنتظر القادمين عبر البحر، ربّما أجد بينهم صديقي الذي فقدته في رحلتنا من ليبيا إلى اليونان؛ قد يكون نجا مثلما نجوت.
- ألا تتابع أسماء المفقودين لتعرف إن كان ما زال على قيد الحياة؟
- أتابع.. لا أريد أن أصدق أنّه صار طعامًا للأسماك، ولا أريد أن أقتنع بأنّ البحر لفظ جسده على شاطئ بعيد ولم يره أحد. رافقيني لو سمحتِ؛ سأريكِ شيئًا.

نهضت تاركة طعامي، وسرت وراءه.. دلف إلى المطبخ، ومنه فتح باب غرفةٍ داخلية، صعقت حين استوعبت محتوياتها: في الزاوية، سريرٌ ضيّق كأسرّة الجيش، عليه فراشٌ وغطاء بسيط ووسائد.. الجدران مليئة بالصّور، والطّاولة الصّغيرة رصفت فوقها حقائب متنوعة.

فتح الأدراج، وأخرج منها بطاقات هويةٍ وجوازات سفر وإكسسوارات ساعات وخواتم وألعاب!

- أنا هنا أبحث عن هؤلاء، أصحاب هذه الصّور والجوازات.. أنقذت أشياءهم، وكم أتمنّى لو استطعت أن أنقذ أرواحهم أيضًا! كلّ صباح، نراقب الأفق، أنا والصيّاد العجوز الذي لا يدفع لي مالًا مقابل العمل، أنام هنا في هذه الغرفة، وأقوم بكلّ ما يطلبه مني مقابل احتفاظي بوثائق الأشخاص الموجودة في الحقائب، هو طبعًا يفتشها قبل أن يتركها لي، ويأخذ الأشياء الثمينة: الهواتف والمال والذهب إن وجد. وأحتفظ أنا بالوثائق والثّياب وبعض الأشياء الشّخصية الرّخيصة.

رحت أنبش الحقائب بسرعة، حتّى رأيتها.. حقيبتك!

ارتجف جسدي وهوى نحو السّرير، أسرع الشّاب لمساعدتي ومواساتي. تشنج جسدي ولم أعد أستطيع السيطرة عليه، شهقت وأنا أشعر بالاختناق وتدفق الدّمع كنهر.

الحقيبة كانت تحوي ملابسك وكتاب شيلر وبضع صور عائلية. ضممتها إلى صدري، همس الشّاب:

- هي لكِ.

وناولني جواز السفر وبطاقة الهوية وصورة كانت على الجدار.

لم أستطع البقاء أكثر، لم أستطع إتمام طعامي، دفعت الثّمن وغادرت بصحبة الشّاب الذي أوصلني لمحطة بنزين، استأجر لي سيارة وأرشد السّائق إلى المكان الذي أقصده.

****

حريّة بنكهة الفقد

...

لم أكن قد سمعت قبل الثّورة بقرية الحولة، ربّما معظم السّوريين مثلي كانوا يفتحون أفواههم دهشة وهم يسمعون أسماء القرى والمدن الصّغيرة السّورية التي قامت قيامة الثّورة فيها. أسماء نسيها التّاريخ وهُمِّشت بفعل الاستبداد وتسيّد الرعاع.

«الحولة[1] قريةٌ صغيرة تنام كلّ ليلة منذ بدء الثّورة على أوجاعها ومخاوفها من حصار الجيش السّوري والشّبيحة والقرى المجاورة لها».

هكذا بدأت أم بدر رواية قصتها والبرد يجلد عظامنا وكلانا ترتجف.

لم يكن في بال أحد تلك الليلة أن يجتمع كلّ هؤلاء بحقدهم المدمّر لذبح أهلها... الدّبابات التي يملكها الجيش، مدافع الهاون، القصف، والمتسللون الحاقدون من القرى المجاورة؛ قرى الطائفة الكريمة الصّديقة!

عند العصر، كنتُ عائدة من حمص، حيث أدرس في جامعة البعث.. صديقتي ألحّت عليّ يومها أن أنام عندها فقد تأخر الوقت؛ لا أنكر أنّي رغبت في ذلك، وكان قلبي منقبضًا وأعصابي متوترة، فقد كنت حذرة من الاعتقال لوجودي في المظاهرات، ومساعدتي في نقل الأدوية إلى المشافي الميدانية.. مع هذا، سلّمت أمري لله وسافرت. طيلة الطريق، كنت أفكّر بأمّي وأبي وأخي

(1) تقع في ريف حمص، ارتكبت فيها مجزرة بشعة في 25 أيار 2012، راح ضحيتها 110 أشخاص، نصفهم أطفال.

حريّة بنكهة الفقد

...

لم أكن قد سمعت قبل الثّورة بقرية الحولة، ربّما معظم السّوريين مثلي كانوا يفتحون أفواههم دهشة وهم يسمعون أسماء القرى والمدن الصّغيرة السّورية التي قامت قيامة الثّورة فيها. أسماء نسيها التّاريخ وهُمِّشت بفعل الاستبداد وتسيّد الرعاع.

«الحولة[1] قريةٌ صغيرة تنام كلّ ليلة منذ بدء الثّورة على أوجاعها ومخاوفها من حصار الجيش السّوري والشّبيحة والقرى المجاورة لها».

هكذا بدأت أم بدر رواية قصتها والبرد يجلد عظامنا وكلانا ترتجف.

لم يكن في بال أحد تلك الليلة أن يجتمع كلّ هؤلاء بحقدهم المدمّر لذبح أهلها... الدّبابات التي يملكها الجيش، مدافع الهاون، القصف، والمتسللون الحاقدون من القرى المجاورة؛ قرى الطائفة الكريمة الصّديقة!

عند العصر، كنتُ عائدة من حمص، حيث أدرس في جامعة البعث.. صديقتي ألحّت عليّ يومها أن أنام عندها فقد تأخر الوقت؛ لا أنكر أنّي رغبت في ذلك، وكان قلبي منقبضًا وأعصابي متوترة، فقد كنت حذرة من الاعتقال لوجودي في المظاهرات، ومساعدتي في نقل الأدوية إلى المشافي الميدانية.. مع هذا، سلّمت أمري لله وسافرت. طيلة الطريق، كنت أفكّر بأمّي وأبي وأخي

(1) تقع في ريف حمص، ارتكبت فيها مجزرة بشعة في 25 أيار 2012، راح ضحيتها 110 أشخاص، نصفهم أطفال.

الصّغير.. كلّما أصبحت المسافة أقل، ينتابني شعور بأنّهم يبتعدون عني آلاف الأميال.. وأنّي لن أستطيع رؤيتهم بعد الآن.

لم أستطع دخول القرية، أوقف الجنود الحافلة في مدخلها. أنزلوا ركّابها، وفرزوا النّساء عن الرّجال.. بعد دقائق، وصلتنا أصوات الرّجال الذين اقتيدوا إلى مكان ما في البرية وقد اختلطت بأصوات الرّصاص.

كنت أسمع بأذنيّ كلّ ما يدور وأرى بعينيّ.. تركوني مقيّدة في غرفةٍ ضيّقة بنيت على عجل، وجعلت مركزًا لجنود الحاجز.

رأيت سكاكينهم تقطر دمًا حين عادوا والقصف على أشده، وسمعت ضحكاتهم المنتشية بالنّصر. رأيتهم يفتحون الباب بعنف... جرّوني إلى غرفة تفوح منها روائح الدّخان والعرق، عرفت أنّها غرفة قائدهم...

لم تستطع أم بدر أن تبلع ريقها حين وصلت في روايتها إلى هذه اللحظة. ولم أجرؤ على خدش صمتها بسؤال، لم يكن من الضروري أن أسأل، فالصّورة في مخيلتي أوضح من الكلمات التي يمكن أن تقال. نهضت أم بدر وابتعدت عن مكان جلوسنا مئة متر، ثمّ توقفت وتهاوت أرضًا.. ركضتُ إليها بشكل تلقائي.. كانت تنشج وجسدها يهتزّ بقوة. لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل أو أقول.. الكلمات التي اختصرت بها أم بدر مأساتها وقفت غصة في حلقي.. وجدتني أحتضنها وأبكي معها!

قالت وأنفاسها تلسع وجهي: «لقد قضت عائلتي ذبحًا بأيدي من كانوا يأكلون خبزنا يومًا».

****

تابعت أم بدر بعد أن زاد توترنا بانتظار الفرج:

عندما جئتُ إلى هنا، لم أكن بحاجة إلى وسيط أو رشوة، كان المعبر

مفتوحًا للهاربين من جحيم القصف. وكنت أرجو أن أدفن تلك الخطيئة بعيدًا عن عيون من يعرفوني.

لم أعد إلى قريتي.. ولم يكن ممكنًا بعد أن وجدت نفسي بين الحياة والموت ملقاة في البرية أن أصل إلى حمص.. مشيت يومًا كاملًا من دون أن أعرف إلى أين! لا أدري إن كان الرّعب قد منح جسدي قوة المقاومة أم التّشبث بأهداب الحياة. كلّ ما أذكره حين أفقت من غيبوبتي أنّي رأيت أشباحًا قادمة حجبت الشّمس المائلة للمغيب ملامحها، لم أعرف أهم رجال أم نساء أم مجرد أشباح صوّرها لي السّراب.

صحوت بعد أيام، ووجدت نفسي في مضارب النّوَر قرب سراقب.. قالوا إنّهم وجدوني مغشيًا عليّ في الطّريق العام وأنا أنزف، ضمّدوا جراحي واعتنوا بي قرابة شهرين.. حتّى ذلك الوقت، لم أكن أعرف من أنا، وكيف أتيت إلى هنا. تضاربت الروايات، النّساء النّوَريات أخبرنني أنّ سيارة عابرة رمتني قرب الطّريق العام، ولم يستطعن معرفة شيء عن صاحبها.. ابنة صاحبة البيت قالت لي إنّ أحد رعاتهم أحضرني في بيك آب كان ينقل فيه الغنم ورحل.. الصّبية كانوا يتهامسون حين يروننني «المدَنيّة العاهرة». حين صارت صحتي تساعدني على الحركة، قصدت المدينة مشيًا.. كان السّوق يغصّ باللاجئين القادمين من مدن أخرى، انضممت إليهم، واستطعت تأمين مبيت لي عند عائلة تسكن في الطّرف القبلي، لكنّي لم أستطع البقاء طويلًا، فقد اكتشفت أنّي حامل!

في أنطاكية، لم يكن الوضع أفضل..

حاولت إخفاء أمر الحمل مدة لم تتجاوز الأشهر الثّلاثة كي أستطيع تأمين عمل في أحد المطاعم، كنت أغسل الصّحون طيلة الليل، وحين أصل إلى البيت عند الصّباح أرتمي كالقتيلة في الفراش، حتى قبل أن أتناول فطوري.. مضت الشّهور الثّلاثة هكذا: عملٌ طيلة الليل، ونومٌ في النّهار. في

البداية، أراحني الوضع، إذ لم أكن مضطرة لرؤية وجوه النّاس ولا الشّارع ولا الجيران، ولم أتعرّف على أحد في تلك الفترة. كنت أقوم بعملي بصبر، ومن دون تذمر، مع أنّ راتبي لم يتجاوز خمسمئة ليرة تركية، لم تكن تكفي ثمن الطّعام وأجرة الغرفة البائسة التي استأجرتها في بيت قديم قرب سوق حلب.

طردني صاحب المطعم حين عرف أنّي حامل، بحجة أنّي لن أقوى على احتمال ضغط العمل الكبير طيلة الليل. ولم أستطع إيجاد عمل بعد ذلك. أحد الزبائن رآني أبكي وأنا خارجة من غرفة صاحب المطعم فلحق بي، حدّثني بأنّ جدته سورية من سلقين، وأنّه يحبّ السّوريين، وعلى استعداد لتقديم المساعدة لي. لم يكن أمامي خيار سوى القبول.

قطع المهرب حديثنا قائلًا: «السّيارة جاهزة». نهضنا بسرعة، الكلمة السّحرية كانت تعني الملجأ الدّافئ، كما تعني اقترابنا من الهدف.

بعد عشرة كيلومترات قطعتها السّيارة، لاحت لنا عدّة قرى تركية أخبرنا السّائق أنّ سكّانها من عشائر البدو الذين بنوا منازلهم هنا منذ زمن.. وبحكم عيشهم على الحدود مع محافظة إدلب، عملوا في التّهريب، إلى جانب الزّراعة وتربية المواشي. سكّان هذه القرى يتقنون اللغتين العربية والتّركية، وقد شكّلوا شبكة تهريب علنية تقوم بتهريب البشر من وإلى سوريا، بعد أن كان التّهريب يقتصر على المحروقات والمواد التّموينية.

بضع مئات من الأمتار فقط تفصلنا عن الأراضي السّورية، فقط نحتاج لمهرب بدوي يعرف المكان المناسب للعبور من الفتحات المحدثة في الأسلاك الشّائكة، أو يملك الجرأة على فتح منفذ في تلك الأسلاك.

السّائق أنزلنا في إحدى القرى، حيث افترشنا الأرض في الشّارع، بانتظار قدوم المهرب البدوي الذي سيرافقنا إلى الدّاخل السّوري.

البداية، أراحني الوضع، إذ لم أكن مضطرة لرؤية وجوه النّاس ولا الشّارع ولا الجيران، ولم أتعرّف على أحد في تلك الفترة. كنت أقوم بعملي بصبر، ومن دون تذمر، مع أنّ راتبي لم يتجاوز خمسمئة ليرة تركية، لم تكن تكفي ثمن الطّعام وأجرة الغرفة البائسة التي استأجرتها في بيت قديم قرب سوق حلب.

طردني صاحب المطعم حين عرف أنّي حامل، بحجة أنّي لن أقوى على احتمال ضغط العمل الكبير طيلة الليل. ولم أستطع إيجاد عمل بعد ذلك. أحد الزبائن رآني أبكي وأنا خارجة من غرفة صاحب المطعم فلحق بي، حدّثني بأنّ جدته سورية من سلقين، وأنّه يحبّ السّوريين، وعلى استعداد لتقديم المساعدة لي. لم يكن أمامي خيار سوى القبول.

قطع المهرب حديثنا قائلًا: «السّيارة جاهزة». نهضنا بسرعة، الكلمة السّحرية كانت تعني الملجأ الدّافئ، كما تعني اقترابنا من الهدف.

بعد عشرة كيلومترات قطعتها السّيارة، لاحت لنا عدّة قرى تركية أخبرنا السّائق أنّ سكّانها من عشائر البدو الذين بنوا منازلهم هنا منذ زمن.. وبحكم عيشهم على الحدود مع محافظة إدلب، عملوا في التّهريب، إلى جانب الزّراعة وتربية المواشي. سكّان هذه القرى يتقنون اللغتين العربية والتّركية، وقد شكّلوا شبكة تهريب علنية تقوم بتهريب البشر من وإلى سوريا، بعد أن كان التّهريب يقتصر على المحروقات والمواد التّموينية.

بضع مئات من الأمتار فقط تفصلنا عن الأراضي السّورية، فقط نحتاج لمهرب بدوي يعرف المكان المناسب للعبور من الفتحات المحدثة في الأسلاك الشّائكة، أو يملك الجرأة على فتح منفذ في تلك الأسلاك.

السّائق أنزلنا في إحدى القرى، حيث افترشنا الأرض في الشّارع، بانتظار قدوم المهرب البدوي الذي سيرافقنا إلى الدّاخل السّوري.

كان الوقت عصرًا.. لم نكن وحدنا.. هناك مئات من السّوريين يتجمّعون في شوارع القرية بانتظار العبور.

جاء بدوي ملتحفًا بعباءة سميكة من الصّوف وقد تلثم بكوفية، وقف قرب بقالية ونادى علينا، عبرنا الشّارع بصعوبة، فقد كان مزدحمًا بفوضى الأجساد والحقائب والسّيارات والضّجيج المرتفع على شكل صراخ وأحاديث وبكاء أطفال وزمامير. أشار إلى أم بدر لتدخل إلى البقالية لتحمي طفلها من المطر الذي انهمر فجأة فزاد حدة الفوضى. اتصل هاتفيًا بشخص قال إنّه ابن عم له يتعاون مع حرس الحدود ويرصد تحركاتهم، فأخبره أنّ الوقت ليس ملائمًا الآن!

لم تمضِ سوى دقائق حتّى سمعنا صوت صفارات الإنذار، كانت سيارات الجندرمة تدور في الشّوارع لتجبر المهربين على جمع زبائنهم.. النّاس يتراكضون خلف المهربين والسّيارات في حالة فوضى، والازدحام أربك اللاجئين وزاد من توترهم. المقاتلون كانوا أسرع النّاس في الاختفاء! أنا وأم بدر والصّغير بقينا في ضيافة صاحب البقالية.. على مدى نصف ساعة، لم يتوقف صوت الرّصاص الذي تردّد في القرية وفي الوديان والجبال التّركية.

بدأ الخوف يسيطر علينا، لكنّ المهرب كان في حال من الاطمئنان تبعث على الحسد!

بدأت الشّمس ترسل آخر أشعتها الباهتة، وسط سكون الرّيح وتوقف المطر. إنّه المغيب، التّوقيت الذي يتحرّك فيه المهربون عادة صوب الحدود.

قصدنا ناحية أخرى من الجبال بصحبة المهرب، وتوقفنا عند «بوابة الغنم».. هذه المنطقة كانت في الماضي معبرًا لتهريب الأغنام والثّروة الحيوانية من سوريا إلى تركيا.

بعد دقائق، انضم إلينا عشرون مجاهدًا مع مهربهم.. أذكر تمامًا وجوههم، لقد التقيتهم منذ يومين في مطار إسطنبول! ملامح أحدهم جعلتني أخرج ورقة

من حقيبتي، وأرسم بورتريه بقلم الفحم لم يستغرق سوى ساعة، أدركت حين انتهيت من الرّسم أنّ عينيه تملكان ذلك الغموض المريب المخيف في آن واحد.. إنّه لونهما الذي يشبه قرص عسل أو...

****

حاول المهربان التّفاهم مع الجندي الذي ظهر فجأة أمام البوابة. وفي أثناء ذلك، انضم إلينا أناس آخرون مع مهربيهم، حتّى أصبح العدد حوالي مئتي شخص.. كان الجميع متلهفين للعبور، وقد عمّت الفوضى وتدخل الجندرمة لإسكاتهم وضبط حركتهم..

أمرنا المهرب بالابتعاد، فشلت المحادثات مع الجندرمة عندما أصبح العدد ضخمًا، لكنّ المقاتلين كانوا مصرّين على العبور، وتردّدت أصوات طلقات نارية، أسرعت الحشود على أثرها في محاولات للدخول فشل معظمها.. بعضهم استطاع أن يمرّ، ووقع آخرون في قبضة الجندرمة الذين وضعوهم في السّيارات ليعيدوهم من حيث أتوا!

أخبرنا المهرب أنّ الجندرمة هنا تعرضوا لمحاولات اغتيال وإطلاق رصاص من الجهة السّورية، لذا غالبًا ما يتعاملون بخشونة وصلف مع اللاجئين.. وأنّ علينا أن ننتظر ريثما يتغيّر الحرس، ربّما تكون لدينا فرصة أفضل للعبور، وإذا كنّا مستعجلين فبإمكاننا أن نعبر من خلال فتحة في الأسلاك الشّائكة في الأراضي الزّراعية، والأفضل العبور عن طريق الجبال لسهولة التّخفي!

قرّرنا بعد دقائق أن نمشي باتجاه الحدود، مع مجموعة صغيرة من النّاس، كان المشهد مثيرًا للشفقة والقلق.. رأيته مرارًا في أفلام عن التّغريبة الفلسطينية! لكن شتان بين أن ترى المشهد وأن تعيشه..

حلّت العتمة.. وأعادنا الرّصاص إلى المعبر مرّة أخرى.

سمح لنا الجندي الحارس بالمرور، الطّريق السّهلي مليء بالوحل وروث الأبقار، قطعناه لندخل ممرًا جبليًا، كنت منهكة لم أعد أستطيع تثبيت قدميّ على الدّرب الصّاعد بحدة، كان من الصّعب التّسلق مع الحقائب، تقطّعت أنفاسي وأنا أحاول اللحاق بأمّ بدر التي فصلتني عنها مسافة لا تقل عن مئة متر، مع أنّها تحمل ابنها! من مكاني، رأيت أم بدر والمهرب يتوقفان، فقد ظهر جندي آخر تفاهم معه المهرب، ففتش الحقائب وسمح لنا بالعبور.

مرّ بنا المجاهدون ودخلوا من فتحة الأسلاك الشّائكة، وتبعتهم أم بدر مع ابنها.

كنت أقف في آخر الصّف الطّويل، فقد أنبتت العتمة أناسًا جددًا، تدفقوا بصمت ومن دون جلبة، وكأنّي أرى أشباحًا وليس بشرًا.. لا أدري المدّة التي وقفتها بانتظار دوري حين سمعت صوت الرّصاص، مصحوبًا بالصّراخ والفوضى... تفرّق النّاس، وابتلعتهم العتمة ثانية.

مرّت ساعة وأنا مستلقية وسط الوحل عاجزة عن النّهوض، لم أعد أشعر بجسدي بعد أن زحفت مئات الأمتار، وهمد كلّ شيء حولي.

****

البريّة الشّاسعة المليئة بالعشب اليابس تنبئ عن زهد البشر بهذا المكان الموحش. صخورٌ رمادية تميل إلى السّواد في بعض الأماكن، أشجارٌ قليلة متفرقة في مساحة واسعة.. غير بعيد من المكان الذي لجأت إليه محرس لإحدى الفصائل المسلحة.. على البعد في الطّرف الآخر، تلوح أشجار الزّيتون على قمم الجبال البعيدة.

لم أكن أحتاج، بعد أن وجدت الكهف المناسب، سوى زوادة صغيرة وفراش وبضعة أوانٍ.

مضى على إقامتي هنا أربعة أشهر، سبقتها أربعةٌ قضيتها متنقلة بين المخيمات ومدينة سرمدا.. أصبح التّنقل صعبًا بالنّسبة لي بعد أن فقدت كلّ ما يثبت هويتي. ما حصلت عليه من نقود وأمتعة من الشّباب العاملين بالإغاثة كان كافيًا لتأمين احتياجاتي الضّرورية.. تبرّع أحد الشّباب الذين يعملون في سوق السّيارات المستعملة الموجود بمدخل مدينة سرمدا منذ بداية الثّورة بالبحث معي عن مكان أقيم فيه في هذا الجبل..

لم يكن الجوّ قد بدأ يميل إلى البرودة، وإن أرسل الخريف أنفاسه اللطيفة بين حين وآخر على نحو مباغت خجول. لن أحتاج هنا إلى قماش للرّسم، ولا إلى ألوان، ولا زيوت عطرية.. يكفيني فأس وبذور لأجعل من الأرض لوحة تملك خصوصيتها وروائحها الطّبيعية وألوانها التي لا تبهت. أخلع عني جسدي وأهيم روحًا في الفضاء، أراني في كلّ الأشياء من حولي، الأشجار العارية في الصّقيع، الصّخور المختفية تحت طحالبَ تشبه قنافذ بريئة من أشواكها.. في الرّيح التي لا تشبه سوى جدتي!

على صخرة قرب القمة، كنتُ أراه يوميًا يأتي في مواعيد غير منتظمة. لم يحظَ باهتمامي في البداية إلا بمقدار الحذر من غريب يقتحم المكان الخالي من البشر، ليذكّرني أنّي لست وحيدة على وجه الأرض كما كنت أتمنّى. لكن مع الوقت، صرت التفت إليه، وأعدّ السّاعات التي يقضيها هناك، سميته «شيخ الجبل»؛ لحيته البيضاء الطّويلة، تغضن جبينه، نظراته الثّابتة العميقة، ملابسه، عصاه التي يتكئ عليها في أثناء النّهوض والمشي.. كلّ ما فيه ينبئ بدهريته! تذكّرت أنّي التقيت به في غابة السّنديان في مدينة الخطايا!

يقضي ساعات وهو جالس على الصّخرة ذاتها، لا يتحرّك، سابحًا في الملكوت من حوله.. تقترب منه الأشجار، تهمس في أذنه أغنية الرّيح، فلا

يكاد رأسه يميل تجاهها.. يسمع وشوشتها بسكون.. سكونٍ تام.. إلى أن شعرتُ بالملل من مراقبتي له...

دخلت الكهف للحظات، وحين عدت.. اختفى! في التّوقيت نفسه من عصر اليوم التّالي، رأيته يصعد من الدّرب التّرابي الضّيق، يجلس على الصّخرة، يجمع ظلّه بكفيه ويربت التّراب! هذه المرّة، قرّرت ألا أضيّع الفرصة، اقتربت منه، وسألته مباشرة: «ما الذي تتأمله ساعات طويلة كلّ يوم؟ ولماذا تبقى وحيدًا؟». قال: «هو العمر الذي يجعلنا أكثر انشغالًا بالطبيعة، وأكثر عزلة».

وأشار لي بيده لأصمت.

جلست قربه، ونظرت حيث ينظر.. للحظات خيّل إليّ أنّه الملك سليمان الذي يفهم لغة الطّبيعة والطّيور، وأنّ اليمامة على غصن الشّجرة كانت تتحدّث إليه، وأنّ الأشجار المتمايلة على إيقاع الهواء تعزف له ألحانها.. كان ينصت إلى موسيقاها وعيناه تنطقان بالخشوع!

لم أستطع أن أبقى صامتة، تساءلت: «هل أنت هنا أم هناك؟». ردّ هامسًا: «أنا هناك وهنا، قريب وبعيد، حين تشتاق إليّ أشجار السّهل أختبأ في ظلّها.. وحين يجلدها حرّ الصّيف أكون أنا الظّلّ وأنا الماء.. وحين تناديني شعاب التلّ وصخوره أنبت فيه كعشبٍ هارب من برد الشّتاء إلى دفء الرّبيع».

سألته:

- ماذا عن الظّلال؟
- الظّلال أيضًا تمتلك رائحتها.. عندما تتنفسين بعمق عند أبواب الكهوف، ستشمين عطرها، ولن يبرح ظلّك وأنت تعبرين في الليل دروب الجبال، ستتساقط أزهارًا عند المنحنيات ليتبع أثرك ظلّه القادم من الغيب.

- لمحتك تجمع ظلّك بكفيك حين جلست؟

تأملني طويلًا قبل أن يجيب:

- لا أريد لظلّي أن يمنح عطره للرّيح.
- يوم غبت، كتبت لكَ على ظلّ الرّيح..
- لم يصلني ولو بعض الظّل!
- الرّيح يومها طوت ظلّها تحت جنح المطر، ولم تنسَ تاريخ الجنون، لكنّها خجلت من وطء الذكريات ولو بأقدام النرجس!
- وهل يُنسى؟ ثمّة تجارب روحية خلقت لتتأبد.. مهما تغافلنا عنها، فهي باقية.

قلت: «أحيانًا أخاف هذا الخلاء، وأخاف من وحدتي». ردّ من دون أن يلتفت إليّ: «ذلك لأنّك لم تتعرّفي على الكائنات هنا.. حين تعرفينها، سيألفك المكان، وتصبحين جزءًا منه».

قلت باهتمام: «كأنّك من عمر هذه الأرض، يخيّل لي أنّك لا ترى شيئًا عدا الأشجار هنا!».

انتبه إليّ فجأة بعد غرقه بتأملٍ عميق زمنًا ليس قصيرًا، شُبّه لي أنّه ابتسم! أشار إلى زهرةٍ برية، وقال: «**من أثر قدم امرأةٍ حافية، نبتت تلك الزهرة**».[1]

أثارت غيرتي الزّهرة الصّفراء الوحيدة وسط الصّخور، خلتها روح نهر عبر من هنا في زمنٍ غابر.. تمنيتُ لو قال إنّ تلك الزّهرة نبتت من آثار قدميّ!

قبل أن أعود إلى هذه البلاد، كثيرًا ما ناداني لآتي إلى الجبال البعيدة عن أقفاص المدن وسجون الأسمنت المسمّاة بيوتًا.

التفت إليّ، تأملني مليًا، فخفق قلبي للمرّة الأولى تحت وقع نظراته...

---

(1) خالد الجبور.

نهض وغيّبته التّلال، وكأنّي لست موجودة على الصّخرة المقابلة لصخرته، وكأنّه لم يتحدّث إليّ مسقطًا أحمال روحه في حجري! خطواته على الدّرب كانت تطيّر الغبار حول قدميه، وأصابعه أطلقت صوبي أوراق الشّجر اليابس.

حدّقت داخل الصّرة التي صنعها ثوبي بين الفخذين، لم يعد للخبز رائحة، ولا للتّفاح الصّغير نكهة الصّيف.. جمعت أطراف ثوبي، كما كنت أفعل في طفولتي، ومضيت صوب كهفي.

استلقيت هناك، ثمّ جلست قليلًا، قضمت من الخبز اليابس قضمة واحدة، وأخرى من التّفاحة الحمراء الحامضة، ووضعتهما جانبًا..

من الحكايات الغريبة التي كانت ترويها لي جدتي في لحظات التّجلي، بعد أن ننتهي من جمع زهر الليمون، وندخل غرفة التّقطير، أنّها لم تأتِ إلى الدنيا من رحم أمّها، بل ولدتها شجرة خروب.. والأغرب أنّ جدي لم يستطع أن يتزوجها ليلة الدخلة لأنّ جني الشّجرة منعه من ذلك! فلجأ إلى عرّافة الحي التي أخبرته بأنّ جدتي يجب أن تنام ليلة في المقام الواقع على قمة الجبل قرب شجرة الخروب الضخمة.. لم تكن جدتي تذكر شيئًا مما روته العرّافة على أنّه حقيقة حصلت لها في طفولتها. فقد فرّت من البيت عندما كانت أمّها تلد، ولجأت إلى الجبل، ونامت هناك ليلتين! كانت تتلصص من الباب الموارب على أمّها والمرأة المتوحشة التي تصر عليها أن «تدفع، وألا تصرخ، وتوبخها وتعنفها» وهي تضع مولودها الثاني، فقد فوجئت بأنّ الأطفال لا يوجدون على الطّريق في سلال الخبز، ولا يأتي بهم بابا نويل في رأس السّنة هدية للأمهات، بل ينزلون من بين فخذي امرأة بمنظرٍ بشع مربوطين بحبل يندفع وراءه كيس، وتنزل دماءٌ غزيرة!

بحثوا عنها في الجوار وعند الأقارب، ولم يجدوها.. عندما غابت الشّمس، أصابهم اليأس وظنّوا أنّها خطفت أو سقطت في أحد الآبار

المهجورة في التّل القريب. في الليلة الثانية لغيابها، طرق أحد أصدقاء والدها الباب، وطلب منه أن يوافيه إلى الجبل، ليسهر معهم بمناسبة عيد الميلاد.. مع وصوله إلى المكان، اكتمل عدد المحتفلين تحت شجرة الخروب وقد تدثروا بعباءات الفرو الثّقيلة، وأشعلوا النّار، وتحلّقوا حولها! الشّواء الطّازج مع حساء الخروب السّاخن والنّبيذ المعتق في الجرار والغناء كانوا وقود الاحتفال.. فجأة، سقطت القيثارة من يد العازف المرتعشة.. كانت عيناه تحدّقان في الظّلام وراء دائرة النّار جهة باب المقام.. ساد صمتٌ ثقيل والرؤوس تلتفت إلى الجهة التي جعلت عيني العازف تجحظان. سمع الجميع خربشة خفيفة، وحركة تشبه ارتطام الرّيح بفروع الشّجر.. كانت هناك وسط الباب نقطتان مضيئتان، ظنّ الجميع أنّهما عينا ذئب يتربص بفريسة ما. والدها كان أوّل من نهض، وتبع أثر الخطوات الصّغيرة غير آبه بتحذير أصدقائه من خطر الضباع التي تخرج في مثل هذا الجوّ من أوجارها.. ضحك وهو يشير إلى الخطوات: «أيوجد ضبع بهذا الحجم؟!»... داخل المقام، كانت العتمة مخيفة، لكنّها لم تمنعه من التقدّم.. تنحنح بصوتٍ قوي حين سمع لهاثًا تهيّأ له أنّه آتٍ من الحجرة الدّاخلية التي تحوي تمثال العذراء! مدّ يده في العتمة ليتلمّس طريقه، فوقعت على جسد يرتعش.. همس: «جنٌ أم أنس؟».. لم يسمع ردًا.. كانت «نوران» في تلك اللحظة تأبى أن تصدر صوتًا خشية العقاب الذي سينزل بها. في اليومين الماضيين، كانت تشعر بسكينة مطلقة وهي تنام في حضن العذراء، وتلتحف بوشاح أمّها الصّوفي الذي أخذته في غفلة منها عندما هربت...

حين وصلت نوران العروس إلى مقام العذراء، شعرت بأنّ المكان غريب، المألوف فقط كان شجرة الخروب، لم تجرؤ على النّوم هناك كما نصحتها العرّافة، بقيت صاحية طيلة الليل والخوف يقرض قلبها.. كانت خشخشة الأوراق واندفاع الرّيح في تجويفٍ غريب داخل الخروبة يرعبانها،

بقيت ترتجف في الرّكن، وأحسّت أنّها الليلة الأخيرة في حياتها، حدّثت نفسها: «ماذا لو خرجتُ من المكان المخيف وانتظرت تحت الشّجرة؟». هذا ما فعلته في نوبة هلع لم تترك لها فرصة للاختيار. صعدت فوق الشّجرة، عانقت أحد أغصانها، وغفت للحظات شعرت بعدها بتدفق الدّم بين فخذيها، ارتعشت وصرخت من الرّعب.. روت للعرّافة، فيما بعد، أنّها أحسّت بريح قوية تندفع داخلها سببت لها خدرًا كاد يوقعها من الشّجرة، لولا أنّ أغصان الخروبة تلاقت وتعانقت وشكّلت ذراعين أحاطتا جسدها برفق.

لم يصدّق العريس ادّعاء العرّافة أنّ الجني الذي لبس جدتي أصرّ على إيذائها قبل أن يترك جسدها، لكنّه قبل الأمر على مضض، وعاش حياته يساوره الشّكّ في أبسط تصرف تقوم به، وبقي سنوات يبحث عن غريمه في وجوه كلّ الرّجال الذين يقابلهم، إلى أن أراحه الموت أخيرًا من ذلك العذاب.

ارتجف جسدي، لم تكن رعدة برد، ولم تكن قشعريرة خوف. كان هناك شيءٌ دافئ يسري فيه، يعتلي قمة رأسي، وينخفض بسرعةٍ عجيبة إلى أطراف أصابعي. ذهلت عنه وعن وجودي.. لا أعرف كم مرّ من الزمن وأنا على هذه الحالة من السّكون، أهذي بأسماء غريبة، وأتسلّق سُلَّمًا أبيض ينقطع فجأة قبل أن يصل إلى قوس قزح! ركضت صوب الكهف ودموعي تصنع حجابًا شفيفًا أمام عينيّ. جلست في الرّكن، احتضنت جسدي بذراعيّ لألملم عنه الارتعاش. غفوت خلال دقائق.. وحين صحوت، كان الكهف غارقًا في العتمة.. لا بصيص سوى ما تطلقه الرّوح حولي، لكنّه بصيصٌ من نور لا يشبهني! أهو أرواح من غابوا عني يحاصرونني لأعود؟ لكنّي لم أعد أستطيع السّير خطوة واحدة إلى الخلف.. كلُّ ما حولي يشدّني إلى الأمام.. تراني لم أعد تلك المرأة الهاربة من حاضر لا يقلُّ قسوة عن ماضيها؟

أنصت جيدًا، خطواتٌ واضحة آتية من عمق العتمة صوب الكهف، إيقاعها غير مألوف بالنّسبة لي. إنّها تتجه إلى الدّرب المؤدي إلى القمة.. توقفت للحظات! أهو غريبٌ ضائع أم...؟ لا شكّ أنّ مقصده الكهف.. خشخشةٌ قريبة أفزعتني.. هل سيصل إليّ؟ لا.. ستمنعه الأشجار من الاهتداء إلى المدخل. مددت رأسي من الباب، زحفت قليلًا محاولة ألا أصدر صوتًا، حاولت سبر العتمة بضوء القنديل.. كانت هناك أشباحٌ تتحرّك هاربة.. لم أعرف إن كانوا بشرًا أم ظلالًا.. حدّقت في خطّ الأفق، حيث أشجار السّدر، لم يكن هناك نورٌ، وحلّ الظّلام في قلبي!

لملمت بعض الأوراق وألواح الخشب الصّغيرة، سددت الشّقوق كي تكفّ الرّيح عن إخافتي. سمعته يقول: «لا تسدّيها، اتركي قيثارة الرّيح تعزف لحنها الحزين».

لا أدري أهي الحمى التي أحضرت لي أمّ بدر أم كان طيفها حقيقة؟ مدّت يدها ومسحت جبيني بحنان، همست في أذني: «لا تستسلمي للموت، إحدانا يجب أن تصل»... سمعت صوت الرّصاص، كان قريبًا لدرجة أنّي رأيت الرّصاصة الغادرة وهي تستقرّ في رأسها، رأيت جسدها يتهاوى، والدّماء تتناثر ملطخة التّراب والشّجر والنّاس من حولها.. لكنّ ذراعيها بقيتا تضمان جسد بدر إلى صدرها!

****

حين اخترت هذا المكان، شعرت بطمأنينةٍ عجيبة، الشّاب الذي رافقني قال لي إنّ الثّوار أيام الاحتلال الفرنسي كانوا يلجؤون إلى هذه الكهوف، وإنّ الكهف القريب من الشّارع الرّئيس كان مقرًّا لإبراهيم هنانو، فيه أقام محكمته الخاصة التي تنظر بشؤون الخونة من المقاتلين معه.. هناك مشنقة.. وكهف..

وروح زعيم تحيط الجبال بهالة من الأمان.. في البداية، عرّفني على أسر كاملة تعيش في تلك الكهوف، وأراني المشنقة، كنت راغبة في السّكن هناك عندها، لكنّي لم أحبذ فكرة بقائي قريبة من تجمعات بشرية، فاخترت أبعد مكان لا يصل إليه البشر.

قلت له ونحن نجلس على صخرتينا نراقب الغروب: «أحلم أن أكون امرأة فيها كلّ الفصول، أرسمني لوحة لا مثيل لها. أتخيّلني أحيانًا وقد خرجت من التّراب وعلى جسدي كلّ الأزهار، حلمت يومًا أنّي طبق قش بين يدي جدتي.. كانت تنسج أطباق القشّ وكفّاها يحملان ألوان قوس قزح من صبغ السّماق الأحمر، والزّعفران الأصفر، وأعشاب الرّبيع الخضراء، وبياض الحجارة الكلسية.. جدتي التي علمتني أحد أسرارها الخاصة في صباغة الشّعر، فلم تكن تستخدم حتّى وفاتها سوى زيت بزر الكتان الذي منع الشّيب من التّسلّل إلى رأسها، كما ادّعت، فلم تستعمل صبغة طيلة حياتها.».

همس بارتباك: «مثل امرأة أحببتها يومًا!».

خشيت أن أنطق بكلمة أخرى تزيد من ارتباكه، ربتّ كتفه وأنا أتمتم بكلمات غير مفهومة حتّى لي! حدّق في الأفق، اختصر لون الأصيل بعينيه، وأغمض جفنيه على ما تبقّى في روحه من عصف الذكريات، وتابع وكأنّه يحدّث نفسه: «كنّا نحلم بالأولاد.. كثير من الأولاد». التفت إليّ متسائلًا: «وأنتِ؟». قلتُ: «لم أنجب سوى في الأحلام! وأشعر بأنّ لديّ أولادًا في مكان ما!».

كنتُ أرتجف بشدّة وأنا أعبر فتحة الأسلاك الشّائكة، ساقاي ترتعشان، ويداي لا تكادان تقويان على جرّ الحقائب، وعيناي مليئتان بدمع أساله البرد والخوف.. ناديت أمّ بدر لتتوقف، فجأة شعرت برغبةٍ عميقة باحتضانه، لكنّ الرّصاص أخرس صوتي.. وحين وصلت إليها، كان «بدر» غارقًا بدمائه!

راقبته وهو يهبط الدّرب، كما في كلّ يوم، وسرت صوب الكهف.

****

يزحف الخريف ببطء نحو قمة الجبل، تترك خطواته العشب هشيمًا أصفر تخترقه نباتات شوكية وأخرى متسلقة، تنفث «النّشْيحَة» رائحتها الكريهة حين تمسّها قدمي بطريق الخطأ، وتتشبث «القُرّيطْبَة» بثوبي متخلية عن أسلحتها بالكامل.. أجلس ساعات لأزيل أشواكها المغروسة في النّسيج الرّقيق، تخز أناملي فتسيل قطرات دم مالحة.. بالحركة الطّفولية التّلقائية، تلقفت إصبعي بفمي، الطّعم لاذعٌ مرا! انتشر من إصبعي زغبٌ شوكي غير مرئي على شفتي فتورمت! بكيت من الغيظ، لماذا لا يسحب الصّيف أذياله بهدوء، ويمضي من دون أن يترك أثرًا مزعجًا في جسدي؟ لا أدري ما الذي أحضر صيف مدينة «جدة» إلى ذاكرتي، البحر، وليالي الصّيف الطّويلة، والتّكييف البارد في كلّ مكان، الأيام الملولة التي تمضي من دون أثر وكأنّها لم تكن.. تراه الحنين؟ سيكون أمرًا كارثيًا لو غافلني الحنين لبلادة تلك الأيام وآلامها. نهضت مصمّمة على احتمال ما تبقى من أشواك في ثوبي.. تجاهلتها على الرغم من احتكاكها بساقيّ في أثناء المشي، وإصرارها على تشطيب جلدي بإبرها الرّهيفة النّاعمة.

في الليل، يوقظني صرير الجنادب، لا شكّ أنّها تشعر بالخطر، فصوتها لا يشبه الغناء اللاهي الذي كنت أسمعه في طفولتي.

عبَر أيلول ملوّحًا بكفيه وغرق في الغياب، ومدّ تشرين رأسه ملوّحًا بأوراقه الصّفراء، ضاحكًا مزمجرًا صاخبًا، تمتدّ ظلال أشجاره في الأصيل، وتتطاول وتعانق ظلّي خلسة! يحلو لي أن أداعبها وألعب معها أحيانًا، فنشكّل فريقًا من الصّور المتحرّكة يشاكس الغروب الذي يصرعه في آخر لحظة، ونتلاشى معًا!

فأدخل كهفي حزينة لرحيل أصدقائي، لكنّهم يفاجئونني بحضورهم المبهج حين أشعل قنديلي! يغافلني النّعاس، ويُغمض جفنيّ. يهطل المطر، يغسل أشجار البطم أمام الباب.. أسمع صوت موسيقاه تهدهدني.. وأراني أركض في حقول القمح الشّاسعةِ أيّام الحصاد، القش يتطاير وينغرس في شعري..

حين أستيقظ وخيوط الفجر الفضية المحمّلة بالنّدى تنسحب من مدخل الكهف، تاركة للصباح فرصة عناق أشجاري الحارسة، يذهلني أنّ بعض أعواد القشّ المشاغب ما زالت عالقة في شعري! أسمعه يقول لي: «أجمل لوحة ترسمها الطبيعة على جسد امرأة، مذهلٌ شعرك المجبول بغبار القمح!». أخرج وباقي الكائنات لنستحم بأشعة الشّمس الخجولة. يشاكسني قنفذ يتدحرج أمام قدميّ بطريقةٍ بهلوانية، مخبئًا جسده داخل كرة الشّوك وكأنّه يختبر مقدرتي على تحديد شكل جسده! تمدُّ سلحفاة رأسها خارج بيتها العظمي في لحظة استكشاف نادرة لما يجري في الكون من حولها. كأنّي وسط كلّ هذا أعود طفلة من جديد، تذكّرني الجنادب بك، كثيرًا ما كنت تطاردها، وكنتَ مغرمًا بألوان أجنحتها الدّاخلية الحمراء التي لا تظهر إلا في أثناء طيرانها. يقتحمني خاطرٌ مفاجئ.. أيعقل أن أكون واهمة، ويكون شيخ الجبل مجرد شبح؟ كثيرًا ما أشعر أنّ ما يقوله هو تعبير عن خواطر مرّت في ذهني، ولم أعبّر عنها بكلمات في حينها! بل هي لحظات عشتها، أنا على يقين بذلك! إنّه يرى الأشياء كما أراها، ويحسّ بالكائنات والفصول كما أحسّ بها.. يداهمني الخريف وحيدة وهو بعيد، ترفض الأشجار أن تبوح بسر غيابه، والرّيح ترجع صدى كلماته بلا توقف.

تحتشد مقلتيّ بالدّمع، وتصفعني الرّيح الباردة دافعة جسدي للاحتماء بجذع شجرة الخروب، لا أريد أن أدخل الكهف، أستجدي الخريف، فأنا أشعر بجلاله وبرده وحلوله في روحي...

أوائل الشّتاء، كنت قد انتهيت من استصلاح الأرض ووضع البذور، أزلت الأغصان اليابسة، قطعتها إلى أجزاء صغيرة تصلح وقودًا. وقضيت باقي وقتي في تأمل أحوال الطّبيعة من حولي، والرّيح تدخل في شقوق الصّخور عازفة نغم الشّتاء الحزين. الأشجار يعرّيها الشّتاء فتستحم بمطره وثلجه، وأنا مثلها، عارية من الدّفء، أرتجف بانتظار أن تعود وتؤكد لي أنّي لم أكن أحلم، أريد أن ألمسك حقيقة، وأراك بعينيّ. لا أعرف إن كانت الحمى أم الخيال من أتى بك إلى الكهف، هذا ما اعتقدته، فلم أكن أجرؤ على تصور حضورك كواقع! مددت يدك، لمست جبيني، خيّل لي أنّك همست بكلمات لم أفهمها. السّكون التّام حولي جمّدني من الخوف، لم أسمع صوتي! كتبت لي على الجدار: «هل أنتِ من أرسل العصافير لإحضاري؟». ابتسمت بوهن، وقلت: «بل العاصفة!». همستَ ثانية، لم أسمعك، أشرتُ إلى أذنيّ، فكتبت: «ما بالك؟ أهي الحمى؟ يبدو أنّك لا تحتملين البرد!». قلت: «لا أحد يحتمله، وأنت؟». قلتَ شيئًا لم أفهمه، غصصتُ بالدّمع، لم أحاول هذه المرّة أن أنبّهك إلى أنّي لم أعد أسمع. خرجتَ من الكهف، وعدت بعد ساعة وقد أحضرت لي مغلي العوسج، ساعدتني على شربه، ومدّدتني في الفراش، ودثّرتني بأغطيةٍ ثقيلة، وجلست قريبًا مني على كرسي خشبي منخفض.. كنتُ أحدّق في الكرسي، وأتذكّر جدي النّجار الذي صنع بيديه بهجة طفولتي، كان يعشق الشّتاء، وله مع الكائنات الصّغيرة حكايات لا يملّ من روايتها، وفي كلّ مرّة يأتي بجديد في الحكاية ينسف ما سبق. ساعاته المفضلة كانت آخر الليل في الشّتاء الطّويل، فقد ولد في ليلة شتوية يصفها دائمًا بأنّها كانت «ليلة القدر». يتأمل عصافير الحبّ في الصّباح، ويسألني: «أتعلمين لمَ تنظر بدهشة إلى الحقول؟». كانت لديّ إجابات كثيرة للسؤال الغريب، لكنّ جدي كان يملك التّفسير الذي لا يعرفه أحد سوى «شيخ الجبل»!

حين تكاثفت أبخرة الدّفء في فضاء المغارة غفوت. لا أعرف المدّة التي مرّت عليّ وأنا أتأرجح بين أمواج هلوساتي، لكنّي استيقظت ذات صباح على أصوات الطّيور! وسمعته يهمس: «كنت متأكدًا أنّكِ ستصرعين الحمى، وستسمعين صوتي من جديد.. هذا ما يفعله (عنب الذيب)»[1].

...

أنا المرأة التي لم تغادرها الطّفولة، اكتشفت متأخرة أنّ الولد الذي أضاء لي النّجوم خَلَقَتْه مخيلتي منذ دهر، وما زال ولدًا! كان يثير فضولي بكم الأشياء التي يحكيها وأجهلها، فأبقى مندفعة نحوه برغبةٍ خالصة في المعرفة، لكنّ تلك الرّغبة التبست مع الوقت بمشاعر أخرى، فصرت أنتبه إلى وجهه المعفر بغبار الأرض، إلى خشونة يده وهو يلمس يدي، إلى نظرة عينيه العميقة وهو يشير إلى الأشجار ويقول: «الأشجار موطن البلابل».. جملته البسيطة العادية كانت تحوي -بالنسبة لي- شيئًا جديدًا مدهشًا، حتّى أنّي كنت أشعر بموسيقا مختلفة تصدر من الحروف.

ما جعل قلبي يخفق أوّل مرّة عبارة قالها، وبقيتُ شهورًا أردّدها وأفكّر فيها.. كنّا نخوض في مياه النّهر، وحين وصلنا إلى الشّاطئ مدّ يده ليساعدني في الصّعود إلى اليابسة، قال وهو ينظر مباشرة في عينيّ، ويده تمسح قطرات الماء عن يدي: «لماذا تبكي خلايا يديك؟ أهو الشّوق أم الوجد؟».. كانت تلك أوّل عبارة في الحبّ أسمعها وتفتنني، سلّمت وقتها بأنّ الحبّ لا يحتاج إلى اللغة الفجّة المباشرة، بل إلى الذّكاء الذي يجعل الكلمات تتناسل لتنجب ديوانًا من الشّعر.

قبل رحيله عن البلد، تساقطت أوراق شجرة الصّفصاف على حافة النّهر، وذبلت أغصانها الصّغيرة قبل الأوان، كنت أنظر إليها بحسرة وعجز وخوف

---

(1) من أسماء العوسج: الزعرور، عنب الذيب، قصر، الغرقد.

من صورة الفأس تحوّلها إلى حطب... كانت البومة التي بنت عشها أعلى الشّجرة تلتفت مذعورة مثلي كأنّها تخشى الفقد أيضًا، تذكرت أنّك كنت تحضّني على دخول الغابة وحدي لأعود محمّلة بالحكايات التي أكتشفها بنفسي.. مدعيًا أنّي إن تبعت البومة ستدّلني على الخرابات.. وكنت على يقين بأنّ جبالنا لا توجد فيها خرابات، لذا تقطن البومة الأشجار!

تساءلتُ عن إمكانية حلول ذلك الولد في جسد شيخ الجبل، فهو مثله يعبّر عن أفكاره بالشّعر، وكلماته تأخذ عمقها من روح الأرض.. حتّى أنّه لا يرى الكائنات بعينيه، بل بروحه، فلكلّ كائن في الوجود روح، حتّى الصّخر.

في كلّ حوار يدور بيننا، أحسّ أنّ الولد الشّقي الذي احتفظت به روحي يخرج من تحت جلدي ليجلس على الصّخرة المقابلة، ويحدّثني حديث الذّكريات الغابرة، ويدلّني على مواقع الفتنة والدّهشة في البرية من حولي، الغرام الحقيقي كان اكتشافه المتجدد لشكل الكون من حولنا في كلّ ساعة من ساعات النّهار والليل.. فالشّمس تلاعب الأشجار، فتمدّ ظلالها حينًا وتقزّمها حينًا، ثمّ تتركها بلا ظلال، ليهجم الليل فيحوّلها إلى تلال أو جدران تسمع من ورائها صمت الكون المخيف، تتخلّله همسات الجن التي تتحوّل إلى عويل بفعل العبث مع الرّيح اللاهية.

كنت أتتبع أثره في روحي، فاكتشفت شهوة طافحة لكتابة ما حدث معي في رواية. أدرك جيدًا أنّي لا أجيد التّعبير عن نفسي سوى بالرّسم، لكنّي على يقين أيضًا بأنّ المرأة العاشقة التي اكتشفت الزّراعة، وخربشت أجمل القصائد والحكايات بأعواد القمح على التّراب النّدي، هي من وضع أوّل حرف في القصيدة. امتلأت بيقين أنّه يمكنني البدء من حيث انتهى الآخرون.. حاولت أن أتخلّص من الكلمات المتزاحمة في رأسي بكتابتها، لكنّي فشلت.. صرت

أروي لنفسي ما أريد كتابته، فأنا على قناعة بأنّ الحكي عن الأفكار قبل كتابتها يساعد على وضوح الرّؤية. حكيت عن الكائنات التي أعيش معها، والأشياء التي أحلم بها، وأهملت كلّ ما عشته في الماضي.. تدريجيًا، اكتشفت روايتي عن العزلة! عزلة الصخور وشجارها اليومي مع الرّيح الطّائشة، عزلة الأشجار عن ظلّها حين تغلب الغيوم نور الشّمس وتحجبه.. غفلتي العميقة عن الوجود حدّ تعودي على المشي حافية.. مع ذلك، فشلت في إيجاد بداية للرّواية، فاستسلمت لإحساسٍ غريب يطلب مني أن أحكي عن اللحظة التي أدركت فيها مصير هذا الوجود.. وعن استسلامي لفكرة أنّي سأموت قريبًا، لكنّي لم أختر بعد شكل الموت!

****

لليوم الثّالث على التّوالي، لم يأتِ! كنّا سنزرع هنا بنفسجًا، وهنا حقل خزامى ملكي، وهنا شجرة برتقال، وهنا حول البئر سننثر بصلات الكلونيا والنّرجس.. وهناك في ظلّ السدّر الضّخم سنبدر سريرًا من المنثور والقرنفل.. وسنسيّج الدّرب بالجوري.. و... لماذا تموت الأحلام بهذه البساطة؟

نقشتُ على صخرته هذه الكلمات، قبل أن آوي لمغارتي: «أشعر بأنّي ريشةٌ في مهبّ الرّيح، تتلقفني بين كفيك بحنان، تعزف بي على أوتار الماء، فأنسى أنّي ريشةٌ وأكتمل امرأة من جديد».

في الصّباح، وجدتُ ما كتبته ممحيًا!

حين رأيته قادمًا، في أصيل اليوم الرّابع، رميت الفأس جانبًا، ركضت بكلّ قوتي ولهفتي.. مددت إليه كفين أرعشهما الشّوق، وحبحب العرق على جنباتهما.. تناولهما برفق، ضمّهما بعضهما إلى بعض، قرّبهما من صدره وابتسم.

دخلنا الكهف معًا، كنت في قمة الارتباك والحرج.. هل أقدّم له طعامًا؟ هل أحكي له عن دقائق الغياب؟ هل أحدّثه عن اشتياق المكان لخطواته وأنفاسه وصمته؟ هل... كنت أرتجف، لم أعلم ذلك حتّى أحاطت ذراعاه بجسدي، وضمّني إليه ليهدّئ من ارتعاشي.. همس: «يا لنارك المقدسة!».

قلتُ: «إنّه البرد!».

قال: «بل رعشة الحبّ!».

خرجنا من حمأة اللحظة، واغتسلنا بالضّوء والظّلال التي خلّفتها شجرة الخروب أمام الكهف، كلانا تشبث بأصابع الآخر علّ الزّمان يقف بنا عند اللحظة المنعمة، فيحفظ نبض قلبينا ورعشة أصابعنا ولهفة أضلعنا للعناق.

عليه أن يرحل! حقيقة لفظتها آخر أشعة للشمس وهي تغيب تاركة للعتمة طريقًا للعبور إلى الجبل.. حينها، بقينا على تلك الحال من الذّهول والتّأمل، كلانا غائصٌ في لجّة الوجد، كلانا موقنٌ أنّ الزّمن غافلٌ عنّا، حتّى صدمنا انسحاب النّجوم من السّماء، وتسلّل الفجر كلص من خلال العتمة... انتبهت من غفلتي على خطواته تبتعد، وغيّبه غبش الفجر.. فجأة، أحسست أنّ كلّ ما مضى مجرد حلم!

****

معلّق بأطراف صخرة ترتعش من صخب الموج، هكذا رأيتك قبل أن أهبّ من قيلولتي وقد غسلني العرق وجفّ حلقي وتشقّقت حنجرتي.

لا أريد أن أعرف، كرهت كلّ معرفة تقرّبني من الحقيقة التي أرفض وجودها.. لا أريد أن أراك إلا كما رسمتك مخيلتي، وكما زيّنك لي قلبي، وعلى الصّورة التي فُتنت بها روحي. لا أريد أن أسمعك وأنت تتحدّث عنها!

أريدك لي.. لي فقط.. البارحة حدّثتني طويلًا عن الفناء والعدم.. حدّثتني عن أشياء انقبض لها قلبي.

صار الجوّ من حولي يرشح صديدًا، وغفت النّجوم على كتف العتمة، وغرقتُ في السّواد.. لماذا سرقت مني بهجة الكائنات بعد أن أخذت بيدي كطفلة ودرّبتني على التّعايش معها؟ لماذا تريد أن تسحب من عنقي طوق النّجوم، ومن شعري أغنية الرّيح؟

ألست مَن جعلني أمتلك اليقين بأنّي أحسنت الاختيار بالعودة إلى هذه الجبال التي تعيد الصّفاء إلى الرّوح، وتخلّصها من كلّ ما علق بها من آلام خلّفها البشر هناك في المدن؟

صرت أهيم في البريّة كمجنونة تبحث عن شخص يؤذيها لتتأكد أنّها بشر مثله، وليست أحد كائنات الجبل الجامدة، تريد أن تعرف أهي تلةٌ أم صخرة أم شجرة! أم تراها فراشة مثل هؤلاء اللواتي يتنقّلن فوق أزهار الحنون والأقحوان، أم هي نحلة؟!

حاولتُ الطيران من فوق الخروبة، تلقّفني سريري في الأسفل، تحطّمت أضلعي.. الألم لا يطاق.. هزء مني نقّار الخشب بعبارة «مجنونة»، وتابع عمله بلا مبالاة! ماذا أحتاج بعد لأدرك أنّي مجرد إنسانٍ بائس لا يستطيع الطّيران، ولا يمكن أن يتحوّل إلى فراشة؟! من مكاني تحت الخروبة، كنت أراقب التّلال البعيدة، وأتمنّى أن أستطيع سؤالها عنك.. أطياف تمرّ في الأفق، تروح وتجيء، تبعث في روحي الاطمئنان.. أسمعك في غفوتي تهمس في أذني، أفتح عينيّ فيذهلني اللون الأبيض للزّهور، حتّى الحنون نكّس رأسه صوب الأرض وكأنّ السّاق لم تعد قادرة على حمل الرّأس! ما الذي يجري من حولي؟ العصافير تعلو وتهبط في سربٍ كثيف يغطي أشعة الشّمس، أم تراها الغيوم؟ لا، بل هو الغبار! كيف يأتي ويقتحم الرّبيع غير آبه بالأشجار التي

تسوّر الجبل وتحمي مداخل الكهوف؟ كيف يستسلم الحنون لجنون العاصفة والغبار؟ مؤلم منظره وهو حزين وقد جنّنته الطّيور في حركتها السّريعة، وهو يتساءل: من أين أتت؟ وإلى أين تمضي؟ وكيف تنتثر زهورًا في السّماء؟

شيءٌ مريب يشيع الفوضى حولي، وشيش في رأسي، تزيد الرّيح استعاره، ويمنعه الغبار من الانفلات خارج جسدي...

دلفتُ إلى كهفي.. في الرّكن أرحت جسدي.. خلال لحظات، فقدت الإحساس بأطرافي.. كلّ ما فيّ تخدّر.. وارتفعتُ عاليًا، صرت أستطيع لمس جسدي بحياد وكأنّه أحفورة في هذا الكهف، الشبه يربكني بكثرة التّأويلات التي تنخر عقلي.. أحتاج ليقظةٍ كاملة كي ألمس الحدّ الفاصل بين المخيلة والحقيقة، بل الواقع ما أريد معرفته ولمسه بأصابعي، فمنذ وطئت قدماي هذه الأرض المسحورة وأنا أشعر بعجز حواسي عن التمييز بين ما يحدث خارج جسدي وداخله. سيطر هدوءٌ مريب خارج الكهف، كفّت الرّيح عن لعبها بالأشجار، وهدأ الغبار، ونامت الكائنات.. حين خرجت لأنهل من السّكينة العابرة، كانت النّجوم تبعث رسائلها للبشر المتأملين في أحوال السّماء.

أراهما بوضوح، ملامحهما تشبهنا، حركاتهما؛ النّور في عينيها، ولحيته البيضاء مع تغضنات جبينه، ليسا هما بل نحن، أراني هناك أقرّب رأسي من كتفك وأهمس لك.

يردّ عليّ السّكون بمزيد من الوحشة فأرتعش، أنظر إليك، يبدو وكأنّك لم تسمعني، أهزّ ذراعك بكفيّ، تلتفت قليلًا، تبتسم بخبث.

أكبر نصّاب عرفته، لا يحرّكك سوى غضبي، ولا تبتسم إلا حين تستفزني، بخيل بالكلمات، تمرّرها بحرص وذكاء، تلاعبها، وتتركها لقيثارة الرّيح تنقلها عبر السّهول والوديان، وتزيّن بها ضفاف الأنهار، وبحرص تنقشها في شقوق الصّخر. تركتني ذاهلة عند صخرتي ونهضت مغادرًا..

لم أعد أراك هناك.. أصبحت وحيدة! أغمضت عينيّ.. وفتحتهما، اختفت الصّخرتان، وخفتت أنوار النّجوم، وراحت الشّمس تكشف الأفق وتعريه من أحلامي.. همست من قلب العتمة: «لنعد إلى هناك.. حيث يمكنني أن أتعبّد بهدوء على ضوء جسدك وهو ينير عتمة السّرير.. هكذا، يكون اتّصالي مع الله حقيقيًا».

بدأتُ العمل في حقولي الممتدة حول الكهف حتّى استوت الشّمس فوق رأسي، فلجأتُ إلى ظلال السّدرة أستروح نسمات الرّبيع التي تخفق بأجنحتها فوق قمم الأشجار.

مرّت أيام على غيابك، ولم يعد لديّ عمل سوى مراقبة الخضراوات تنمو من حولي، وتتبرعم أزهارها، وتعلو سيقانها وتلتف حول الأعواد، الكرمة تطرح ورقها الغض وحصرمها، وحبات اللوز تزهو بلونها الأخضر، والمسافة الخالية في أطراف التّل يكسوها الحنون والأقحوان، وتشرئب «الختمية» بأعناقها مباهية الأزهار الأخرى بطول قامتها وتنوع ألوانها وخصوصية رائحتها. عيناي تراقبان التّل، والصّخور وقمة الجبل والدّرب والزّرع.. يعبر طيفك قادمًا من أقصى الوادي.. ثمّ يختفي! ينتصف نيسان ويفاجئني الرّذاذ فالنّضح فالهطل.. أختبئ في مدخل الكهف، ثمّ أتوارى داخله، أيام والدّيمة تحجب الأفق والسّماء لا تكاد تبين.. في اليوم الرّابع، نقر حبُّ المُزن الشّبابيك والأبواب، وترك لي بعد رحيله كومة من الكرات الثّلجية النّاعمة وحطام المزروعات.. ولأوّل مرّة، يزحف الضّباب كثيفًا فوق القمة، ويهبط إليّ ببطء.. من خلال الضباب، كنت ألمح طيفك الغامض الأليف.

فجأة، شعرتُ بأصابعي تتنمل وجسدي يهتز، لقد نضجت الفكرة، وأدركتُ بوضوح أنّني لن أستطيع كتابتها، لكنّي أستطيع رسمها. وقفت بباب الكهف، تلمّست الجدار من الطّرف الأيمن، كان في وضعٍ مناسب تمامًا.

كانت البداية مؤلمة جدًا، لم أدرك ما تخطّه أصابعي حتّى انتهيتُ من اللوحة، وجلست أرضًا وجسدي يهتزّ من النّشيج، كان وجه «لينا» شاحبًا، عيناها تحدّقان فيّ بفزع، وجسدها غارقٌ بالدّماء.. يدي التي تتقن نسج خطوط الحكاية كانت أكثر إدراكًا من عقلي.. ذاكرة أصابعي تتمتع بيقظةٍ مربكة، لم أكن أذكر تلك التّفاصيل الدّقيقة لجسد «لينا» ساعة مقتلها.. لكنّ اللوحة كانت من الوضوح بحيث أذهلتني وجعلتني أفكّر: هل حقًّا كان المسدس بيد «سميح» أم أنّ المفاجأة جعلتني أراه في يده؟ حدّقت جيدًا في اللوحة، كان المسدس مرميًا على الأرض بجانب جثتها، وسميح يرتعش خوفًا وفي عينيه نظرةٌ غريبة، نظرة شخص لا يفهم شيئًا مما يجري أمامه!

لا أعرف كم شمس أشرقت على الكهف وأنا في حمى رسم الرّواية التي بدأت بمقتل «لينا»، ولم تنتهِ عند تلك الليلة التي رسمت تفاصيلها بدقة، كنت أمام غرفة المكتب، سمعته يحادث شخصًا في الهاتف، كان يحادث «سميح» ويلومه لاتصاله به، لم أسمع ما قاله «سميح»، لكنّه ظهر في اللوحة بملامح مختلفة، شخص نحيف غائر العينين، يدخّن بشراهة، يده اليمنى ترتعش باستمرار، سمعته يقول: «لقد فعلتها، قطعت شريان يدي بهدف قتل نفسي، كان ذلك أهون عليّ من أن أصدّق أنّ تلك اليد أطلقت عليها الرّصاص!».

لا أعرف كم مرّ عليّ حتّى اكتملت الرّواية، أعدتُ قراءتها من البداية خطًا إثر آخر، وكلّما وصلت إلى اللحظة التي اكتشفت فيها أنّ «حليم» هو نفسه «سميح»، وأنّه لم يقتل شقيقتي، أشعر بالدّوار.. لقد كنت الشّاهد الذي تسبب في دخوله السّجن والقضاء على مستقبله. لم أكن على استعداد للتراجع، على الرّغم من انقباض صدري حين سمعت عبارته في المحكمة: «كان موتها لأجلكِ، أنتِ من قتلها وليس أنا»! لكن سرعان ما نسيت عبارته، وانغمست في دوامة حياتي الجديدة.

كان «سميح» شابًا يميل إلى السّمنة، طافحًا بالحيوية والمرح، عيناه العسليتان الواسعتان برموشهما الكثيفة تضحكان باستمرار، طيبة قلبه سهّلت الدّرب أمام زوجي -صديقه- لإقناعه بأنّ «لينا» لا تحبّه، وأنّهما على وشك الانفصال، وأنّه كان مغرمًا بي وتورط في الزّواج منها! حكايةٌ طويلة كتبها لي «حليم» بعد أن افترقنا في ألمانيا، فوجئت بها في بريدي الخاص على «فيسبوك».. لم أصدق عيني وأنا أقرأ تلك التّفاصيل التي جرت بينهما تلك الليلة، حيث سهرا للصباح، وخرجا وهما في حالة سكرٍ شديد، وذهبا إلى البراري ودرّبه «وسيم» على إطلاق النّار من مسدسه، أقسم لي أنّه لا يعرف متى وكيف وصلا إلى البيت، ولا يعرف كيف خرجت «لينا» وكيف أصيبت، كلّ ما أدركه بعد ساعة أنّه متهم بقتلها، وأنّي كنت الشّاهد الوحيد على ذلك! ما أضافه في نهاية الرّسالة كان صاعقًا: «أدرك جيدًا أهمية هذه الرسالة لي ولكِ، لا أنكر أنّي ترددت كثيرًا في كتابتها، لكن لا بدّ من اعترافٍ أخير قبل أن تغادرني سوريا إلى الأبد.

قد تصفينني بالجبان، لكن في اللحظة التي انقلب فيها القارب، كنت مخيرًا في إنقاذ شخصٍ واحد، ولم أتردد في أن تكوني أنتِ. ما شعرتُ به بعد ذلك كان قاسيًا إلى درجة لا تطاق. اصطرع داخلي شعوران: أحدهما يدفعني للعودة لإنقاذ «بدر»، والثاني يدعوني للتريث حفاظًا على حياتي، فقد كان من الممكن في وضعي الصّحي ألا أستطيع الوصول إليه، وألا أعود إلى الشّاطئ. تفوقت قوة التّشبث بالحياة، على الرغم من يقيني بتفاهتها، وأنّها لا تستحق أن تعاش، حياتي تحديدًا.. يمكنني أن أكون صريحًا أكثر.. كنت أخشى أن أفقدك، أن أفقد «لينا» فيكِ، فقد تهيّأ لي للحظات أنّ باستطاعتي أن أعيش الماضي مرّة أخرى.. معكِ. لكن في هذه النقطة، كنتُ جبانًا ولم أستطع أن أنسف الحواجز التي تفصلنا. لقد عدتِ لتنتظري لقاء «بدر»، وبقيت هنا لأنسى غياب «لينا».

أعرف أنّك ستغضبين وتمسحين رسالتي، وتلغين رقم هاتفي، وأنا لا أريد أكثر من ذلك.

حليم».

دقّقت النّظر في اللوحة الأولى.. نعم، لم يكن هو من أطلق النّار؛ لقد كان موجودًا في زاوية من الحديقة لو أطلق منها النّار لما دخلت الرّصاصات في القلب! صرخت بفزع: «لم يكن حليم، لم يكن ليستطيع قتلها».

لم يكن «وسيم» يحبّها، لقد أراد الحصول عليها فقط، لم يشأ أن يتركها لصديقه، لقد راهنه على أنّه قادرٌ على الإيقاع بها، ورأى نفسه منساقًا لإتمام لعبة الزّواج والسّفر.. لكنّه كان يخطّط للتخلّص منها ومن «بدر» و«سميح» بضربةٍ واحدة. أيّ حبّ مريض دفعه لارتكاب جريمتين في آن واحد: قتلها وزواجه مني؟!

حين انقشع الضّباب آخر الأسبوع، وجفّفت الشّمس النّدى من الحقول.. بلغت باب الكهف من الطّرف الأيسر واضعةً آخر خطوط روايتي.. فاجأني الضّوء بقوة، وضعت كفي على عينيّ لدقيقة محاولة استيعاب انهمار النّور داخلهما.. تنفست بعمق عبق التّراب والحشائش.. انتبهت إلى غيابك في غيابي!

خرجت أبحث عنك من دون جدوى. كلّ يوم، وخلال شهرٍ كامل، أصعد القمة وأراقب الوادي والسّهل، وأعود بالخيبة والحزن. أخيرًا، اهتديت لصخرةٍ غريبة داخل الحرش الكثيف، نقش عليها أحدهم قصيدة، حين قرأتها أيقنت أنّك هنا، أردت أن تخبرني كلّ شيء عن غيابك!

لكن لا أثر لك سوى أنفاس الرّيح تلفح وجهي، أتنشقها بعمق وأمدد جسدي في المكان.. يبدو لي كأنّه ناووس وليس عرشًا كما وصفته.

سرب من الطّائرات غطّى السّماء...

ابتعدت الطائرات، ووصلني صوت انفجارٍ ضخم هزّ الجبل، ودفعني بقوة لاحتضان الشجرة. شوك المسيح انهمر كالمطر، انغرس في جلد وجهي ويدي.. ومال غصنٌ ضخم ووقع فوق ظهري.

من بعيد، رأيت الكهف وقد صار ركامًا!

قصدت القمة وأنا أجرّ جسدي حينًا وأزحف حينًا، ولجت الحرش، ووصلت إلى الصّخرة المنحوتة على شكل ناووس. تمددت بهدوء فوق الحجر.. أغمضت عيني كي لا أرى الدّم الذي سال على وجهي ومن معصمي وساقيّ.. همستُ:

أتذكر حين قلتُ لكَ: «إنّ الحكم الجمالي على من نحبّ شيءٌ صغير كالحكم الأخلاقي تحكمه رغباتنا! النّظرية ما تزال ثابتة، رغباتنا هي التي تغيّرت!». يومها، أصررتَ على أنْ لا شيء يمكن أن يتغيّر بيننا ما دمنا نحيا.

الآن، أقول لك: «لا شيء بيننا يمكن أن يتغيّر، وإن غيّبنا الموت!».

لا ينقصني اليقين بوجودك قربي، بل أكاد ألمسك.. سألتك معاتبة: «ماذا لو تزوجنا؟ ماذا لو عشنا حياتنا كما يعيشها كلّ الناس؟!».

همستَ بحنان:

كنّا سنذهب أبعد

كنّا سنمشي كثيرًا تحت المطر

كنّا سنعيد عدّ النّجوم كلّ صيف

كنّا سندهش معًا من أقدار الأصدقاء

وكنّا سنموت دافئين بأنفاس البنات والأولاد

لكنّنا لم نكن![1]

****

باب الهوى/ يناير/ 2015

---

(1) القصيدة للشاعر الفلسطيني خالد الجبور.

تعاني هيفين من اضطرابات وهلوسات بسبب سوء معاملة زوجها واضطهاده لها، ويعمق إحساسَها هذا وجودُها في جدة وعدم استطاعتها السفر. وفي ظل معاناتها وغربتها النفسية والروحية والجسدية، يظهر حبها القديم بدر على مواقع التواصل الاجتماعي، فهل تساعدهم الظروف على استعادة حبهما وقصتهما؟ تتوالى أحداث الرواية ويموت بدر وتصل هي ألمانيا، لتعاني انفصامًا حادًا بين الحلم والواقع فتقرر العودة إلى سوريا.

ترصد الرواية رحلتي النزوح والعودة، وما تعيشه هيفين في الحلم وما تعيشه في الواقع، لاسيما بعد اكتشافها شخصية قاتل أختها واندهاشها من درجة قربه منها طوال هذه السنين.

ابتسام إبراهيم تريسي، من مواليد عام 1959، تخرجت في كلية الآداب، قسم اللغة العربية، جامعة حلب. وهي عضو في هيئة تحرير مجلة "أوراق" الصادرة عن رابطة الكتاب السوريين. لها العديد من الأعمال الأدبية المطبوعة، منها: مجموعة قصصية بعنوان "جذور ميتة"، والتي حازت الجائزة الأولى لمسابقة سعاد الصباح عام 2001. ورواية "عين الشمس" التي دخلت القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية عام 2010.

مكتبة نوميديا 217
Telegram@Numidia_Library

www.hbkupress.com
ISBN 978-9927141324
دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS